القسم الأول

الجزيرة العربية

الفصل الأول

السياسة وا لمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم في الجزيرة العربية لاتساع رقعتها، ففي الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسَّراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة، هي تِهامة التي فصل بينهما وبين بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نَجْد الفسيحة التي تظل تنحدر نحو الشرق، حتى تصاقب أرض العَروض: اليمامة والبحرين، وتظل تنبطح شمالا في إقليم القَصيم حتى جبلي أجأ وسلمي، وتلتقي بصحراء النفود الممتدة في تيماء إلى الشرق، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعا لها نحو الجنوب تسمي الدهناء أو رملة عالج، وتستدير حول اليمامة منبطحة في الربع الخالي، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حضرموت وظفار وعمان من جهة ثانية، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التي تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز. وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، وتتوسط حضرموت ومعها ظفار بينها وبين عمان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة وعلي الخليج العربي من جهة ثانية، وكانت تشمل قديما طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج، وهي رأس الخيمة والشارقة ودبي وأبو ظبي. وشمالي هذه الإمارات الرحين، وكانت تشمل إمارة قطر الحالية وإمارة الكويت الحديثة، وكذلك الأحساء. والأقاليم الأساسية في الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين، وسنخص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته.

الحجاز[١] وإماراته

كانت في الحجاز لهذا العصر إمارتان: إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخل وعسفان ومر الظهران. وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفدك وينبع والفرع ووادي القرى ومدين. وكانت إمارة مكة للحسنيين من أحفاد الحسن بن على بن أبي طالب في حين كانت إمارة المدينة للحسينين من أحفاد الحسين بن على بن أبي طالب. وكان الأولون يعتنقون المذهب الزيدي الشيعي، بينما الثانون يعتنقون المذهب الإسماعيلي على الأقل في عصر الدولة الفاطمية. وكان فمارة مكة المكانة الأولى، إذ كان المسلمون ولا يزالون- يؤمونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج، وكان من يدعي له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة.

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا لعصر هي أسرة بني سليمان أو بني موسى، و كان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدي، وراسله الخليفة المعز الفاطمي كي يقيم باسمه الخطبة في موسم الحج، فأبي، مما جعله يجهز له عسكرا لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بني الحسين أمراء المدينة، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر. وتولي بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزيز الفاطمي، وأقام الخطبة باسمه، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية

---

(١) انظر في مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبيعة بولاق) الجزء الرابع والفاسي في كتابيه: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) وصبح العشي للقلقشندي في مواضع متفرقة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (طبع دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان ليقاوت في مكة والمدينة الوفا بأخبار دار المصطفي للسمهودي (طبع مطبعة المؤيد) وخلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام لابن زيني دحلان وماضي الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث- الجزء الأول- للدكتور عبد الكريم غرابية ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور (الترجمة العربية- طبع القاهرة).

أخيه أبي الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي أن يحملوه على أن يقرأ سجلا في المسجد الحرام بالبراءة من أبي بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، فرفض ذلك وقطع صلته بمصر، - فيما بعد- أبو القاسم المغربي حين فر من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه، فخطب باسمه، وتلقب بالراشد بالله، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين، وعاهده أميرها وأمير طئ حسان بن مفرج على نصرته. وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرج بالأموال، فنفض يده من أبي الفتوح وأسلمه إلى المصريين، وفر أبو القاسم المغربي إلى العراق. واضطر أبو الفتوح أن يعلم طاعته للحاكم، فعفا عنه وعاد إلى إمارته. وحدث بعد عودته في سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين في أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس، فصدعه وهو يقول: إلى متى تعبد ؟ إلى كم تقبل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفرا من أصحابه. وما زال أبو الفتوح يلي مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وكان فارسا وأديبا وشاعرا، وله قصة ترويها كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمي الجازية، وهي نواة قصص أبي زيد الهلالي. وبشكر انقرضت سلالته وحكمها في مكة إذ تلم يعقب ولدا، وصار أمرها بعده إلى عبد له، غير أ، فرعا من الأسرة الحسنية من بني هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بني سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالي اليمن، فأسسوا لهم إمارة هناك في المخلاف السليماني المنسوب إليهم. وكان أحد الهاشميين، وهو محمد بن جعفر قد تولي أمر مكة بمساعدة الصليحي أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة في الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين، تعبا لما كان يغدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه. واستطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقراهما، وبذلك اجتمع له الحجاز. وولي بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٧ وكانت الخطبة في عهده تارة تكون باسم الفاطميين، وتارة باسم العباسيين. ويخلفه ابنه أو فليتة، فيجعل

الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة٥٢٧. واتصلت الخطبة باسم بني العباس في عهد ابنه القاسم حتى قتل سنة ٥٥٦. وخلفه ابنه عيسى، وفي عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه: مكة والمدينة، ثم استولى على اليمن. ويظل أبناء عيسى يلون مكة، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفي عهده يبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدة، ويعوضه عنها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين ، ويدخل سيف الدين طغتكين الأيوبي مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحي على خير العمل،عملا بأذان أهل السنة والجماعة. ويخلف داود أخوه مكثر سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود. ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها في أبنائه إلى العصر الحديث.

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر. وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه، وكان يؤذن في الحرم بحي على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة، وأيضا على قاعدة الزيدية من آبائه. وخلفه ابن الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبي أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز وولي عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركي. وعادت مكة إلى بني قتادة، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تتنقل بينه وبين أخيه على وجماز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢. وفي كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦. وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المماليك هي التي توليهم، وكانوا يعينون بجانبهم حكاما لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية. ومن أهم أمراء الأسرة أبو نمي الأول الذي ولي مكة سنة ٦٥٢ وثبته عليها السلطان بيبرس، وظل يلي شئونها خمسين عاما، ويقول صاحب النجوم الزاهرة: كان يقال لولا أنه زيدي النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته. وروي له الفاسي بترجمته في كتابه العقد الثمين يمينا أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثق: أن يحمي الحجاج ويؤمنهم، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح. وكان شاعرا جوادا، ومدحه شعراء كثيرون في

مقدمتهم الحديدي. ويخلفه في سنة ٧٠١ ولداه: رميثة وعطيفة، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة في سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحا تفرق في أهلها. ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويقبض عليه في سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر، ويتولاها أخوه حميضة. وترد مكة إلى رميثة. ويبلغ الناصر في سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية، فينكر ذلك عليه، ويرسل إليه عسكرا، ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة في الإمارة، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه: ثقبة وعجلان. ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمر الأخوان على مكة، ويجعلها المصريون لعجعلان إذ كان ثقبة يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيبا زيديا يخطب الناس أيام الحج، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفي سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان. وكان بخلافة آبائه يحب أهل السنة، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالحمل على العادة. وكان ممدحا، مدحه النشو شاعر مكة وغيره، وأشرك معه ابنه أحمد في الحكم، وما زال يلي الإمارة حتى توفي سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٩٩. ووليها بعده أخوه على وشركه في الإمرة أخوه مغامس لمدة سنتين، وما زال عليها حتى توفي سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩. ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات، وأهم منه ابنه أبو نمي الثاني الذي سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه.

وكانت إمارة مكة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية، وولايتها ثلاث أسر من أبناء نمي: أسرة بركات، ثم أسرة زيد، ثم أسرة عون. وظلت الولاية في الأسرة الأولى أكثر من مائة عام، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادي عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتي إلى زيدي حتى استقل بها بنو زيد، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد على للحجاز في عام ١٢٢٧ هـ/ ١٨١٢ من ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصري الشريف محمد بن عون عليه. وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبي نمي، ونقصد أسرة عون. وحين انسحب جيش محمد على من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية

عليه واليا لها، واستبقت الشريف محمد على بن عون، فكانت السلطة الثنائية بينه وبين الوالي العثماني، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٧ م. وما زالت الإمارة في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني من حسين بن على آخرهم لا في هذا العصر، وإنما في العصر الحديث.

وكانت إمارة المدينة أقل شأنا من إمارة مكة، وكانت الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد الحسين، ويروي أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر، فأكرمه وأقطعه ما يغل كل سنة مائة ألف دينار، وتوفي سنة ٣٢٩ وانعقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور، ويقال إن مسلما كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفي هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى، ويقال أيضا إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه، فرده، فحنق عليه ونكبه، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة، فأمره الحسينيون هناك عليهم، واستقل بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذي يقال إنه وليها بعده. ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر الحسن بن جعفر السليماني أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بني المهنا، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم، وظلت في أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة. وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة، الواحد تلو الآخر، إذ كانوا من شيعتهم. ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥. وتنتهي الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز في طاعته، ويبقي على بني مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها في العهد الأيوبي من قبل الخلفاء العباسيين، ومن أشهرهم حينئذ أبو فليته الذي حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤ وولي بعده ابنه سالم، وكان شارعا، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذي الحليفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة، وفي ذلك يقول ملتاعا:

مصارع آل المصطفى عدن مثلما ... بدان ولكن صرن بين الأقارب

وقال عن سالما حضر إلى مصر في سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة، ومات في طريق عودته قبول وصوله إلى المدينة، وولي بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى، وقبض عليه أخوه جماز سنة ٦٤٩ وملك مكانه، وهو الذي ظلت الإمرة بعده في بيته، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعمي في آخر أيامه، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه، وقبل شفاعته في أمير ينبع وفي أبي نمي أمير مكة وكان قد غاب في لقاء الركب المصري. وخلفه ابنه منصور، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا في ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما في الإمرة وفيما عينه من إقطاع لأمير المدينة، وغاب منصور عن المدينة لمر واستخلف ابنه كبيشة، فملكها مقبل من يده، ولحق كبيشة بأحياء العرب، فنصروه على عمه وسقط قتيلا سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته، وظل بها حتى توفي سنة ٧٢٥. ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقض عليه آخر. ويكفي أن نذكر ممن تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور، وودي بن جماز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب جماز، ثم جماز بن منصور وهبة ابنه، وهبة آخر من عقب ودي وعطيفة بن منصور بن جماز وهبة بن جماز وجماز بن هبة بن جماز ونعير بن منصور وثابت بن نعير. وكثيرا ما كان يثب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر واليا حتى سنة ٧٩٩. ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهبازع بن هبة الله المتوفى بالسجن في الإسكندرية سنة ٧٨٩. وحقا كانت تتبع المماليك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد، فما يكادون يولون شخصا حتى تقيم الأسرة شخصا آخر وتطلب توليته، ويفزع إلى القاهرة كي تخلع عليه وتنصبه أميرا. على كل حال ساء الحكم في هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجري، وكلما قطعنا شوطا من الزمن اشتد سوءه، حتى لنري أحد أمرائها من أحفاد نعير المسمي الحسن بن الزبير يعتدي في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوي وينهب ما في الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس. وتتدور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز في حكم الدولة العثمانية،

وتظل لهذا البيت الحسيني عليها إمارة اسمية. ويؤكد ابن خلدون والقلقشدني أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة، بينما كان أمراء مكة زيدية، ومر بنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في العهد الفاطمي حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحولوا فيما بعد إمامية اثني عشرية.

نجد وقبائلها وشيوخها[1] وإماراتها

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم في عصر الفتوح، ولا نكاد نعرف شيئا واضحا عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كونته هناك من إمارات، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تتغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب، وأيضا ما يتصل بقبيلة طيئ التي كانت تحتل منطقة جبلي أجأ وسلمي وتنتشر في بوادي الشام والعراق، وقد جعلتها مواطنها في هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام.

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية في هذا العصر يتصل ببني هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عقيل وربيعة، وكذلك ببني سليم. وكان العامريون ينزلون في جبل غزوان، بينما كان بنو سليم ينزلون شرقي المدينة، وكانوا جميعا يطوفون بأطراف الجزيرة في العراق والشام ويغيرون على القرى هناك، وكان بنو سليم يغيرون أحيانا على الحجاج في مواسم الحج، وكانت البعوث تجهز لهم من بغداد للإيقاع بهم. ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيز كثيرون من العامريين وبني سليم إليهم، وصاروا جندا لهم في البحرين وعمان، وحين أغار الأعصم القرمطي سنة ٣٦٠ على الشام، وهزمته جيوش الفاطميين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر،

---

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي في مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهاني وابن خلدكان في أمراء بني عقيل وبني أسد وروضة الأفكار لحسين بن غنام وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث- الجزء الأول (١٥٠٠- ١٩١٨م) للدكتور عبد الكريم غرايبة.

وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب، فخربوا مدن تونس وملكت سليم شرقي البلاد وبنو هلال غريبها. وكان قد انظم إلى الأعصم في حربه للفاطميين شيخ طيئ: حسان بن الجراح، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه، وتظل لبني الجراح رياستهم لطيئ وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمي، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دغفل المفرج ويستولي على الرملة بفلسطين، ويتولى زعامة طئ بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين في حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلي أفاميه سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكرا بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قرواش صاحب الموصل.

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بني خفاجة من عقيل بن عامر وقد توغلوا نحو اليمامة زحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق، فملكوا ضواحيه، وأصبحوا سادة الكوفة في ظل أميرهم عليان بن ثمان الخفاجي الذي أسس هناك إمارة بني ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بني المنتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة، وكانوا لا يزالون ينزلون في هذه الأنحاء في بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متنقلين بخيامهم من مكان إلى مكان.

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبني عقيل بن عامر إلى الموصل في الشمال الشرقي من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أول أمرائها ومؤسسها أبا الزهار محمد بن المسيب العقيلي الذي تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخلفه أخوه المقلد العقيلي الذي اتسعت مملكته، وقد حارب بني خفاجة واضطرهم إلى الدخول في طاعته، وكان شاعرا ومحبا لهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشرف الرضي بقصيدتين وجماعة من الشعراء. وخلفه ابنه قرواش، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسقي الفرات، وأدب بني خفاجة مرارا، وكان كريما وهابا نهابا، كما كان شاعرا مجيدا. ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه في إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولي مكانه. وتوفي بعد سنتين، فخلفه ابن أخ له يسمي قريش بن

بدران، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفي سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلا، كما كان ممدحا، مدحه ابن حيوس شاعر الشام وغيره، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجري حتى ينحسر ملك بني عقيل بن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره في الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح.

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها في أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد في أنحاء الحلة، وكان أول من تصدي منهم لذلك علي بن مزيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دبيس، ويحالف بني خفاجة على حرب قرواش العقيلي ويحرقان الأنبار انتقاما منه. وينعقد صلح بين قرواش ودبيس ويهزمان جموعا للغز ويمدح ابن الشبل البغدادي قرواشا بهذا النصر المبين. وكان دبيس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة، مثله في ذلك مثل قرواش. ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه علي بن أفلح الكاتب المشهور، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة، ويفتك أسري بني عقيل حين استولى العسكري السلطاني على حللهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم، وقد تغني الشعراء بهذه المأثرة طويلا وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفا ذكري طيبة، غير شعر جيد كان ينظمه. وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة، وكان ذا بأس وسطوة، وكان يقال له ملك العرب وكان يسكن هو وآباؤه قبله في البيوت العربية (الخيام) فبني الحلة سنة ٤٩٥ وسكنها، وله قدم ابن الهبارية كتاب الصادح والباعم، وتوفي سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دبيس وكان أديبا وجوادا كريما، وهو الذي عناه الحريري بقوله مقاماته- وهي المقامة العمانية- والناس محيطون بأبي زيد يثنون عليه ويقبلون يديه حتى: "خيل إلى أنه القرني أو يس (واعظ أموي) أو الأسدي دبيس" وقد اشترك في مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد، مما دفع السلطان مسعودا السلجوقي إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩. وولي بعده ابنه صدقة، وسرعان ما ضعفت الأسرة، وزايلت الحلة، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية. ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية.

ونولي وجوهنا في العصريين الأيوبي والمملوكي نحو بوادي الشام ومنازل طيئ في جبل شمر أو جبلي أجأ وسلمي، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب في بوادي الشام والعراق، وهما آل فضل وآل مرا، وكانت منازل الأخيرين بوادي حوران، وكانوا يسقطون منها جنوبا في الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم، وأهم شعبهم آل أحمد بن حجي المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسيني يؤدي له الخفر وكذلك أطراف الحجاز وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون. ويقول صاحب صبح الأعشى: آل مرا أبطال مناجيد، ورجال صناديد، وكثيرا ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل. ويروي القلقشندي عن الشهاب محمود الحلبي أنه حين غزا التتار الشام في أيامه وكان بحمص أقبل من أهل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسومة والجياد المطهمة مقلدين بالسيوف وفي أيديهم الرماح ومعهم الظعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالحضرمية طائرة السمعة سافرة في الهودج تغني أبياتا حماسية.

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبير الثاني من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يسارا إلى البصرة وتستدير نحو منازل بني تميم واليمامة، وتشمل منازل غطفان مما يلي وادي القرى، كما تشمل منازل بني أسد، وكان ينضم إليهم لفيف من قبائل العرب: من مذحج وعامر وزبيد وغيرهم. وكان شيوخ هذا الفخذ يولون على إمرة العرب بتقليد من السلطان، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب، إذ أقام على العرب أميرا منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذي حضر مع المظفر قطز قتال التتار في عين جالوت. وولي بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى. وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولي تقليد شريف بذلك، ويلبس تشريفا أطلس أسوة بالنواب إن كان حاضرا ويجهز إليه إن كان غائبا، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مرا. وكانوا يوفرون لهم الاقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميرا على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا، وفي الجزء الثاني عشر من صبح

الأعشى مرسوم شريف بإمرته. ويخلفه في سنة ٧١٢ فضل أخوه، ويقال إن ابنه حج في اثني عشر ألف راحلة، وظلت الإمارة في طيئ طويلا.

ونسمع في داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة في اليمامة والعارض والوشم والقصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدرعية التي تأسست في منتصف القرن التاسع الهجري ولا نمضي طويلا في القرن الثاني عشر حتى نري أميرها سعودا يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه، وتوفي سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥ م. وخلفه ابنه محمد، وهو الذي تآزر مع محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ/ ١٧٤٥ من على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع، وأخذا يتعاونان في ذلك حتى دان له أكثر نجد. وتوفي سنة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٥ م، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضري في نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادي السرحان، وفتح بلدة الرياض. ولم يلبث أن قتل بيد شيعي سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣ من وولي بعده ابنه سعود، وقد استطاع أن يمد لواء سلطانه من أطراف عمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الشمال من الجزيرة، ومن الخليج العربي ونهر الفرات إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد على واليها في مصر، كي يستخلص الحجاز منه، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنة ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٢ م، وسرعان ما توفي سعود في الدرعية سنة ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٤ من وتولي بعده ابنه عبد الله، وفي عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى في يد إبراهيم باشا، واستسلم عبد الله بن سعود،وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨ م. ويتولى حكم الدرعية تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وبذلك ينتقل الحكم في آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد، ويبقي فيه إلى اليوم. وينشط تركي، ويفتح الحسا والقطيف، ويعقد صلحا مع صالح بن على أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبلي أجأ وسلمي ويغتال سنة ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٣م، ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥ من وهو عام وفاته. وتعقبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع في

خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين، لولا أن هب لا في هذا العصر بل في العصر الحديث التالي عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فقد من إمارة آبائه.

اليمن ودولها[1]

توزعت اليمن في هذا العصر دول كثيرة، لعل أقدمها دولة بني زياد في زبيد (٢٠٣-٤١٢هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤هـ) ثم دولة بني مهدي الخوارج (٥٥٤-٥٦٩هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلي اليمن دولة آل رسول. ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنو يعفر (٢٥٢-٣٩٣هـ) وتلتها دولة الصليحيين الإسماعيليين (٤٣٩-٥٣٢هـ) ز ثم دولة الهمدانيين (٤٩٢-٥٦٩هـ). وفي صعدة مستقر الزيدية دولة الرسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا المخلاف السليماني سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدي دولتهم منه ز ثم عادوا إليه، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث. وفي عدن دولة بني زريع الإسماعيلية (٤٦٧- ٥٦٩هـ). ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصعدة عاصمة الرسيين. ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ثم ننتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبني طاهر والعصر العثماني ومقاومة الرسيين في صعدة للعثمانيين، حتى استخلصوا منهم البلاد.

---

(١) راجع في اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصبح الأعشى في جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان في التراجم المشهورة وتاريخ المستبصر لابن المجاور وتاريخ اليمن لعمارة (نشرة كاي) وبلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولي ملك اليمن من ملك وإمام للقاضي العرشي والعقود اللؤلؤية للخزرجي (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع اليماني (طبع القاهرة) وأنباء الزمن في أخبار اليمن ليحيي بن الحسين وتاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافي (طبع القاهرة) والمخلاف السليماني للعقيلي (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث، الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور.

ونبدأ بدول زبيد قبل الفتح الأيوبي، وأولها دولة بني زياد، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تهامة وحضرموت، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧هـ). وفي عهده استولى القرامطة على زبيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها. ودانت له اليمن: عدن وصنعاء وحكامها بنو يعفر وصعدة وحكامها الرسيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير، سوي ما كان يجبيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن الغوص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك. وما زال الحكم في أسرته حتى تشاجر حجبتهم على الحكم، وتغلب عليهم نجاح الحبشي سنة ٤١٢ وأسس دولة بني نجاح، ومازال يحكها حتى دس له بعض أنصار على بن الصليحي صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحي على زبيد، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دهلك، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحي في طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جياش بن نجاح أن يستعيد زبيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبا بليغا، وصنف المفيد في أخبار زبيد، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة في زبيد أدبية وعليمة، ومن وزرائهم من الله الفاتكي وسرور وكانا ممدحين عالي الهمة. وتوارث أبناء جياش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدي وزال ملك بني نجاح. وقد نشأ مؤسس دولة بني مهدي- وهو على بن مهدي الحميري- في سواحل زبيد على النسك والدين، ولما شب أخذ في الوعظ فأحبه الناس والتفوا حوله، وفكر في إقامة دولة لنفسه فاستولى على زبيد وتسمي الإمام المهدي أمير المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين. وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلي، وكان يكفر بالمعاصي، ويقتل من يقترف كبيرة، وكذل من خالف اعتقاده من أهل السنة، وكان يستبيح نساءهم وأبناءه وذراريهم، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة، ولم يلبث أ، توفي بعد استيلائه على زبيد بنحو ثلاثة أشهر، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبي عقامة وابنه وكانا فاضلين. وخلفه ابنه مهدي ثم أخوه عبد النبي. وقد أغار في سنة ٥٦١ على

المخلاف السليماني، وما زال على زبيد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ للهجرة.

وأول دول صنعاء دولة بني يعفر التي أنشأها يعفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه، وحدث في سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء، ولم يلبث أن ادعي النبوة، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات، وحط عن الناس- بزعمه- أركان الإسلام الأساسية: الصلاة والصيام والحج. وفي سنة ٣٠٣ هلك على يد حسني حجام، جعل له السم في المبضع. وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واسترد صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولي بعده ابنه أسعد، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنتهي دولة آل يعفر.

وتخلف دولة اليعفريين بصنعاء دولة الصليحيين، أسسها على بن محمد الصليحي، وقد نشأ فقيها صالحا بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو في مقره بجبلة منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة. وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في الدعوة للمذهب الإسماعيلي، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زبيد، كما أسلفنا، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرته، وعظم ملكه. واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسنية الزيدية ثم تركها. وكانت زوجة أسماء من فضليات النساء، وكانت ممدحة كريمة، مدحها كثير من الشعراء. وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جبلة عاصمته، وأصيب بمرض الفالج، ففوض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أروي بنت أحمد الصليحي إلى أن توفي سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحي بأمر المستنصر الفاطمي، وتوفي سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان، واستولى بنو حاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمداني حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبي. وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولا والدولة الصليحية تتفكك أوصالها، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة، وقد خرجت

أكثر الحصون في الجنوب إلى بني زريع أصحاب عدن وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية.

وحري بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرسيين الزيدية بصعدة في اليمن، ومؤسسها هناك الهادي إلى الحق يحيي بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرس بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ في زمن جده القاسم الإمام الزيدي المعروف بمؤلفاته في المذهب الزيدي وفي الفقه. وقد خرج من موطنه إلى اليمن في سنة ٢٨٤ واستولى على صعدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن، وتوفي سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد، فالإمام الهادي إلى الحق وهو المؤسس الحقيقي للدولة. وما تزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حي يفد عليها أبو الفتح الديلمي سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب المخلاف السليماني والزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة، وتتوالى أئمتهم هناك. وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة، وتدخل صنعاء في حوزتهم مرارا. ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢- ٥٦٦ هـ). وكان شاعرا محسنا، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميري، ومن أئمتهم في العهد الأيوبي الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤. ومن مشهوريهم في عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهاس، والموطئ الرسي الذي بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها، وظل الحكم بعده في أبنائه وتتوالى أئمتهم في عهد الدولتين: الرسولية والطاهرية، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر.

أما عدن فكانت قديما دارا لبني معن بن زائدة منذ ولايته عليها في عهد المأمون، وقد امتنعوا على بني زياد أصحاب زبيد، ولما استولى عليها الصليحي داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم، وجعلها للهمدانيين، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بني زريع أن استخلصها لنفسه، وكانوا إسماعيلية، ومن أهم أمرائهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠هـ). وكان يتلقب بالداعي المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين، وقد اشتري حصن جبلة من الصليحيين، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبي بكر العيذي (٥٥٠-٥٦٥هـ). وكان يدبر دولته ودولة ابنيه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصري وغيره من

الشعراء. وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بني زريع. ويقال عن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت في عهد الأيوبيين إلى ستمائة ألف. وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نوابا في مدنها وحصونها، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماما لصلاح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحي على خير العمل " وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة، وتوفي سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان، وظلما لناس، فولي السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأناب عنه في بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن على بن رسول أحد قواده، فمكن لنفسه فيها، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة.

وتظل اليمن في قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعز بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسي سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت. وكانت الحرب كثيرا ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة في صعدة. وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتعز، وبني جوامع ومجارس كثيرة في مدن اليمن، وفتح الظفار في أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ن وتوفي سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة في العلوم والفنون، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجي كتابه العقود اللؤلؤية، ويصف حفل ختان أبنائه وصفا رائعا. وتضعف الدولة بعده وتأخذ في التدهور، وينتهز بنو طاهر ولاتهم وأمناؤهم في عدم وغيرها الفرصة، ويؤسسون دولتهم.

وقد اتخذ بنو طاهر " زبيد " حاضرة لهم، وأول أمرائهم عامر بن طاهر الذي استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفي سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى

وفاته سنة ٨٨٣ وولي بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولي البرتغاليون على جزيرة كمران في البحر الأحمر، وحينئذ يرسل قنصوه الغوري صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولي على زبيد وتعز وتقضي على دولة بني طاهر.

وتدخل اليمن في حوزة الدولة العثمانية، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة الزيديين وبين العثمانيين، وتترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى في أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤-١٠٨٧هـ) وقد ظلت الإمامة في عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن في ثورتها الأخيرة، وكان المتوكل مظفرا استولى على عدن وحضرموت وظفار وجمع بلاد اليمن وتوالي الأئمة من بعده. وحدث في عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدي أن زاره القبطان الإنجليزي ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر، ونزل له طائعا عن جزيرة ميون المسماة بريم في مضيق باب المندب بالبحر الأمر ! وهي تقسم البحر عندها قسمين. وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليز سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩ من ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحج، وأصبحت مستعمرة إنجليزية. ورأي الأتراك طمع الدول الأوروبية في اليمن، وأحس أئمتها بحاجتهم إليهم، فعادوا إلي احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٩ من بينما مضي الإنجليز يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت. وأخذت المناوشات تعود ثانية بني الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولي مناهضتهم لا في هذا العصر ولا في أواخره بل في العصر الحديث الإمام الزيدي يحيي بن محمد حميد الدين.

حضرموت[١] وظفار وتاريخهما

تقع حضرموت في جنوبي الجزيرة على بحر العرب، وهي إقليم جبلي يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديما باسم أرض اللبن، وأهم مدنها في الداخل شبوة وشبام وتريم وسيون وعلي الساحل الشحر والمكلا، وكانت تسكنها قديما قبيلة كندة، وما زال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء في صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية. ولما تولي محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه، وظل لبنيه نفوذ فيها، حتى ولي بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم، وحاول الحضارمة الثورة عليهم، ولكن ثورتهم أخفقت، وقدمها في أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوي، منتسبا نسبا شريفا إلى الحسين بن علي، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم، وهي زعامة أتاحت للشيعة أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة في حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائما يثورون ثورات متعاقبة. ونزلها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري مدة ثم تركوها، ويلمع بها في القرن الخامس أبو إسحق الخضرمي الخارجي، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوراج في عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية، واستطاع أن يرد الصليحي عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولي شئونها واستقل بها. والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبي قحطان الكندي المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها وسنه دون الثلاثين، واهتم بالعلم والعلماء. ولما فتح صلاح الدين اليمن وولي على عدن عثمان الزنجيلي فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولي من آل النعمان على شبام، وتمضي البلاد أمن حتى يغزوها عمر بن مهدي اليمني بجيش أيوبي سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا: على الشحر وشبام وتريم، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهي

---

(١) انظر في حضرموت وظفار وتاريخهما ابن الأثير وابن خلدون في مواضع متفرقة ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ حضرموت السياسي لصلاح البكري وتاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

بـذلك عهـد الأيـوبيين في حـضرموت، وتخلفهـم دولـة الرسـوليين، فيعملـون عـلى أن تظـل حـضرموت تابعـة لهـم، وكـان يليهـا بعـض أبنائهـا نوابـا عـنهم، وحـين دانـت ظفـار شرقـي حـضرموت لـسالم بـن إدريـس الحبـوظي اسـتولى بجموعـه عـلى حـضرموت سـنة ٦٧٣ غـير أن الرسـوليين قـضوا عليـه ولا يـزال شـيوخ القبائـل في الـبلاد وفي مقـدمتهم بنوراشـد وبنـو نهـد يتنـاحرون عـلى حكـم المـدن، ويـشتر آل بـاكثير باسـتيلائهم عـلى الـشحر سـنة ٧٨٦ وتكـون الغلبـة لهـم في كثـير مـن الـبلاد. وكـان ينافـسهم آل بادجانـة وآل بـاوزير والكنـديين ولكـن آل باكثير ظفـروا بهـم وبغـيرهم مـن العـشائر أو قـل ظهـروا عليهم. وخلـف الرسـوليين بنـو طـاره على الـيمن، وكانـت حـضرموت تستـشعر الـولاء لهـم، وقـد ردوا عـلى الـشحر محمـد بـن سـعيد بن فـارس المهـدي سـنة ٨٦٧ وعهـدوا بهـا إلى آل بـاكثير، واشـتهر مـن بيـنهم بوطـويرق المولـود سـنة ٩٠٢ وقـد اسـتولى عـلى شـبام سـنة ٩٢٦ واحتـل تـريم سـنة ٩٢٧ اتخـذها مركـزا لدولتـه وكـان يجـزل العطايـا للعلـماء والـشعراء. واسـتولى العثمانيـون عـلى الـيمن سـنة ٩٤٥ ويعـترف لهـم بوطـويرق بالطاعـة سـنة ٩٧٠ غـير أن ابنـه عبـد الله رفـض حـك الـترك واسـتقل بـبلاده، وخلفـه أخـوه عمـر وكـان نـصيره ومعاونـه وكاتبـه الـشاعر الكبـير عبـد الـصمد بـن عبـد الله بـاكثير. ويتـولى ابنـه عبـد الله شـئون حـضرموت حتـى سـنة ١٠٢٤ ويخلفـه أخـوه بـدر ويظهـر ولاءه للزيدية وأئمـتهم بـصنعاء وينـشب خـلاف بينـه وبـين ابـن أخيـه بـدر بـن عبـد الله بـسبب ذلـك، ويقـبض عليـه ويعتقـل، فيغـضب الإمـام الزيـدي المتوكـل عـلى الله إسـماعيل، ويرسـل في سنة ١٠٦٩ إلى حضرموت يـستولي عليهـا، ويـسلمها إلى بـدر بـن عمـر ويظـل يليهـا حتـى وفاتـه سنة ١٠٧٣ ويتولاهـا ابنـه محمـد. ويـضعف شـأن آل بـاكثير، ويـصبح ليـافع وعـشائرها الكلمـة العليا في البلاد ن ويتحـول الحكـم والـسلطان إليهـا حتـى سـنة ١٢٦٣ إذ يعيـد غالـب بـن محـسن الكثيري دولة آله ويـستولي عـلى تـريم، وغـير أن الـشحر وأكثـر الـبلاد تظـل في قبـضة اليـافعيين، ويشتهر من بينهم عمر بـن عـوض القعيطـي اليـافعي ثـم ابنـه عـوض الـذي أخطـأ خطـأ فاحـشا في حـق بلـده وأمتـه بتوقيـع معاهـدة مـع الإنجليـز سـنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨م أصـبحت بهـا حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب، وصمة في جبينه ما بعدها وصمة.

وظفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر (اللبان) الذي يستعمله الهنود في معابدهم، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوي، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظي الذي مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسوليين عليه، وكانوا يولون عليها نائبا لهم. وفي القرن السادس عشر الميلادي حكم البلاد سيف الإسلام الغساني وهو من صنعاء، وكانت قلعة بلد مقر حكمه، وفي القرن السابع عشر الميلادي استولى عليها بنو كثير الحضرميون، ولا يعرف عنها شيء في القرن الثامن عشر، وحكمها علوي في القرن التاسع عشر، وقتله بنو قرا، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن في هذا القرن فرض سيادتهم عليها. وفزعوا إلى سعيد بن تركي بن سعيد جد أمراء عمان، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم.

عُمان وأمراؤها[1]

تمتد عمان على الشاطئ الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندي وبحر العرب من جهة وعلي الخليج العربي من جهة ثانية، وقد ثار بها الخوارج الإباضية منذ زمن الحجاج في عصر بني أمية، وكانوا يتخذون مدينة نزوي في الداخل جنوبي الجبل الأخضر مركزا لهم، وكانوا يستولون عليها في أكثر سنوات القرن الثالث الهجري، وتغلب على عمان أبو طاهر القرمطي عند اقتلاعه الحجر الأسود من الكعب سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدي، وترددت عليها ولاة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الإباضية سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن. يدل على ذلك أننا نجد نفرا من أعيانهم بنو مكرم شيعة إمامية يسيرون إلي بغداد يتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي. ويملكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختر منهم أبا محمد بن مكرم، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم في نزوي وحولها، ويخطب لبني العباس.

---

(١) انظر في تاريخ عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمي وعمان تاريخ يتكلم لمحمد ابن عبد الله السالمي وعمان قديما وحديثا لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لحمد البوريني ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرايبة.

وظل الإباضية في عهد بني مكرم يولون عليهم أئمة منهم، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره في حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمي على غزوها والاستيلاء عليها. وتوارث بنو مركم ملك عمان، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة على بن الحسين بن مركم، وكان جوادا ممدحا، ومدحه مهيار الديليمي وغيره وتوفي سنة ٤٢٨ بعد استئثاره بالإمارة مدة طويلة.

وفي سنة ٤٤٢ ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج من نزوي وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد، وله حروب مع قبيلتي نهد وعقيل سحقهما فيها، وامتدحه بذلك أبو إسحق الخضرمي منوها ببسالته وبطولة جنوده. ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذي تملكها بعد أبيه وتظل في أيدي خلفائه.

وفي القرن السادس الهجري تملك عمان من أيدي الإباضية بنو نبهان سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وهم عشيرة من العتيك من الأزد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها، وكانوا سنيين، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع، وقد غزا الفرس عمان في عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها في عهد عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا في الغزوتين مدحورين، كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالي الخروصي، ويشن المؤرخ نور الدين السالمي حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بني نبهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالي. وقد زار ابن بطوطة عمان في عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة، وأشاد بأميرها النبهاني وحسن ضيافته ثم ذكر نزوي عاصمة الخوارج، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة. ومن أئمة الإباضية المهمين في القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذي بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهاني أمير عمان، وهزمه واضطر أن يفر إلى هرمز وتوفي عمر، فعاد سليمان ونازل الإمام التالي للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام، وباء بهزيمة منكرة، فرحل ثانية إلى هرمز، وتوفي أبو الحسن فاسترد سلطانه، ونازل خليفته

الإمام الإباضي محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهزم لم تقم له بعدها قائمة. وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر.

وتصبح عمان تابعة للإباضية، ويستردها سلطان بن محسن النبهاني سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون، حتى يستولي عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤-١٠٥٠هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها، فأخذ يناوشهم، وظلت مدينتا صحار ومسقط في أيديهم وقيل بل سقطت في يده صحار، وخلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠- ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربيين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهر البلاد منهم. وبني لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطئ إفريقيا والهند، وكانت تتبعه مباسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرقي وجزيرة زنجبار وجزيرة سقطرة في بحر العرب، غير أن أسرته ضعفت بعده.

وتخلف أسره العيربين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذي جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١ من ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩ من حين حاولوا غزو بلاده. ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذي ولي عمان سنة ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ من وظل في الحكم خمسين عام. و قبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم. وأخذ الأسطول الإنجليزي يظهر في هذه الأنحاء، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة. وسرعان ما تزعم " بي" آل بوفلاس سنة ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٣ من كما تزعم " أبو ظبي " آل فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ/ ١٨٠٩م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا.

البحرين ودولها[١]

[٢]يقول ياقوت: "البحرين" اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدهناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا. وهي بذلك كانت تشمل إقليم قطر والإقليم الشرقي للملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف وهجر، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا.

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن، إذ غلب عليها بنو الجنابي بقيادة أبي سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القطيف. وفي سنة ٢٨٧ غلب على هجر، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية. وقد تحدثنا في العصر العباسي الثاني عن هذه العقيدة وعن أبي سعيد وابنه أبي طاهر وإغارته على مكة واستباحة دماء الحجاج، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف، ولما رجع إلى البحرين رماه الله في جسده، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، ولعذاب الآخرة أشد وأنكي. وفي سنة ٣٣٩ رد الحجر الكريم إلى موضعه. وفي عقيدتهم- كما صورناها في كتاب العصر العباسي الثاني- ضلال كثير. ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين- وكانوا لا يزالون في المهدية بجوار تونس- أخذت في الفتور. حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية. ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبي طاهر، وكان

---

(١) زنجبار: جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا سكانها عرب مهاجرين من منطقة الخليج العربي وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي.

(٢) انظر في البحرين ودولها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصبح الأعشى والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي وديوان ابن قمرب العيوني وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد للشي محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١/ ٢٤٩ وما بعدها.

فارسا وشاعرا مجيدا تولي بعده أبيه سنة ٣٥٩ واتفق في السنة التالية مع الخليفة العباسي المطيع لله على محاربة الفاطميين، فأمده بالمال والسلاح، وزحف على الشام تحت الريات السود شعار الدولة العباسية، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلي الفاطمي أساس عقيدته القرمطية، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة، واتجه بجيشه نحو مصر، والتقي بالفاطميين وعساكرهم المغاربة في عين شمس، واد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليهم وانضمامهم إلى الفاطميين، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين. ومر بنا في حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمي لجنده من بني سليم وبني هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب. وفي سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومي مولي البويهيين ضد جوهر الصقلي القائد الفاطمي، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦. وتولي أمر القرامطة بعده ستة نفر، وأخذت دولتهم في الاضمحلال. ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمي الأحيفر من بني المنتفق بن عامر بن عقيل جمعا كبيرا، وينازل به القرامطة، ويستولي منهم على القطيف، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وعمت الفوضى في البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسي، واستقرت الدولة له، واختلفت في أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بني عقيل، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق، وطالت أيام الأصفر، واتسع به طموحه، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله. وبقي الملك في البحرين بعده متوارثا في بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا.

وتخلفهم دولة بني العيوني بزعامة مؤسسها عبد الله بن علي. إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقي سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة، وكان لا يزال لها في البحرين أتباع كثيرون. وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليها بعده ابنه محمد المكني بأبي سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة. ووليها بعده ابنه أبو فراس غرير، وولي الأحساء في أيامه عمه بعد الله بن علي وولي ابنه أبو الحسن القطيف. والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذي يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن

ولاة البحرين العامين من العيونيين وولاة مدنها المختلفين. ويختلط بعضهم ببعض في الديوان، ومن أهمهم محمد بن أبي الحسين الذي تولي زمام الأمور في البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخلفية الناصر (٥٧٥- ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتي ثوب أكثرها من الإبرسيم. وسمع في سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع في طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج، فنكل بهم تنكيلا شديدا. وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة. ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبي الحسين ويفتك به ثأرا لأبيه. وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة، وتأخذ في الضعف تدريجا، ويستولي أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين.

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة بني عصفور من بني عامر بن عوف العقيليين، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم التتار، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته، ويظلون يفدون على المماليك، وعلي رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغامس من بني جبر، وينتزعها منه بنو جروان من بني عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفي عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت في أيديهم مدة.

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين، إذ خلصها من بني جروان سيف بن زامل، واتسع نفوذه في نجد، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أدود. ودب الشقاق بين أبناء الأسرة، فأخذها منهم راشد بن مغامس. وفي هذه الأثناء وفي غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون في سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف وقطر، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣.

وقد انفصلت قطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجري بزعامة آل ثاني، وكانوا من يبرين، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها. أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقي من المملكة العربية السعودية، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوي على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزيارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم، ووقع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها في حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا.

وظل يلي الحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا، وكان أول من وليهما منهم براك بن غرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف في الروايات، فسعدون بن محمد، فسليمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليهما بعده عرعر، فابنه بطين، فأخوه دجين، فأخوهما سعدون، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩م في حروب رجحت فيها كفة سعود. وتتطور الظروف وتنشف الحرب بين محمد على والسعوديين. ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف، غير أن الحاكم السعودي تركي بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمهما سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصهما منها في العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود.

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف في حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م وظل آل ثاني رؤساءها إلى أن نفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم في العصر الحديث، واستقل ببلاده سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م وتظل أسرته متولية أمرها وومدبة شئونها إلى اليوم.

٢

المجتمع[١]

يتقابل في الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر، والأولون عرب خلص، وقد دخل على الثانين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية، والغلبة للعنصر العربي فهو قوام الحواضر. ربما كانت مكة بالذات من الحواضر التي كثر إليها نزوح الأجانب، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامي، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن. والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها، ومرت بنا دولة آل نجاح في زبيد، وهم أحباش أو من أصل حبشي، ومن قديم كان الفرس ينزلون في عمان ومدن الخليج، وكان كثير منهم يستوطنها، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم. وبالمثل كان ينزل في مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون، وثورة الزنج بالبصرة في القرن الثالث الهجري مشهورة، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا في البحرين، وكانوا كثيرين في عمان منذ أخذت تستولي في القرن الثالث على سقطرة وبعض الجزرة، ونراها بعد ذلك تستولي على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية.

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام، ويحفها غير قليل من شظف العيش، مما جعلهم أو بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة، منها إرسال الحجاج في قوافل مع حاميات، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبني عقيل أو لبني

---

(١) انظر في مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة في مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعمارة ومروج الذهب للمسعودي: الفصل الخاص بالغناء والموسيقي في الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجي وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد عبده غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربي ببيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العيوني تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد وتحفة الأعيان بسرة أهل عمان للسالمي وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة.

أسد أن يحموا الحجاج، وكانت القاهرة بدورها تعهد للآل الجراح في العهد الفاطمي وآل فضل في العهدين الأيوبي والمملوكي بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين.

وكان وراء مكة والمدينة في الحجاز مدن وقرى كثيرة على شيء من التحضر، نجد ذلك في الطائف وفي جدة وفي ينبغ وفي خيبر وفي وادي القرى، حيث يقيم الناس في دور شيدونها ويستقرون بها. وهذا الاستقرار أساس التحضر والعمران إذ يتجه الناس إلى عمل يقيمون به أود حياتهم وكان الزراعة، إذ نجدها في كل هذه المدن. وطبيعي أن ينشأ في المدن بجانب الزراع صناع ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياكة، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل. وتشتهر المدينة بكثرة زروعها، وكانت مصر منذ العصر الفاطمي ترسل إليها وإلي مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك في زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم في زمن المماليك. وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا، فيشيعون فيهما الرخاء، وأهل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسنيين في مكة وإمارة أخرى للحسينيين في المدينة.

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جنَّتانِ عن يَمِينٍ وشِمَال) ومعروف أنه تهب عليها الرياح الموسمية صيفا، فتهطل بها أمطار غزيرة تغذي المروج والزروع والأشجار المتكاثفة، ويزرع أهلها في الأودية والسهول الحنطة والشعير والذرة والأرز والسمسم، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطيخ والسفرجل، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة. ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين. وعدن ميناؤها، ويقول القدماء إنه " لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة ". ومر بنا في حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن، هي زبيد وصنعاء وصعدة وتعز،وزبيد بتهامة اليمن في سهل من الأرض وبها نخيل كثير، وكانت مسورة وبها قلعة، وصنعاء في منطقة الجبال بوسط اليمن، وهي كثيرة الزروع والفواكه، وصعدة في منطقة جبلية وعرة شمالا، أما تعز

فحصن في الجبال جنوي اليمن مطل على تهامة وأراضي زبيد. وكان الرسوليون يقيمون بها صيفا ويزيد شتاء. واليمن بما قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم، وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة، فلا غرابة أن كان أهلها في هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله: " لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنغم والتفنن في المأكل: يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان.. وتطيب أوانيها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية، وفي بيته العدد الصالح من الإماء، وعلي بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش، ولهم الدور الجليلة والمباني الأنيقة، إلا الرخام ودهان الذهب اللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا ". ويدل من بعض الوجوه على ما كان في اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بني نجاح في زبيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه في شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار.

ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجواري والإماء، ويذكر عمارة اليمني أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة، وقد أشاع الإماء والجواري في قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب. والغناء قديم في اليمن، وأشار المسعودي إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميري وحنفي، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفيا أو حنفيا. ولا نسمع بعد زمن المسعودي المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة في زمن آل نجاح كما أسلفنا. ويبدو أن الأئمة الزيديين في صعدة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص في بعض الاحتفالات، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولي الأشرف لسنة ٧٩٣ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ في شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى. ويعدد الخزرجي أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة

ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغاني والرياحين والبواقين يزفونها إلى باب الدار. وأقيمت للناس أربعة سماطات: سماط الطعام وسماط الحلوى وسماط المكسرات من اللوز والجوز والفستق والبندق وسماد رابع خاص بالعطور والمباخر، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد. ويذكر الخزرجي أنه كان هناك من المغاني والراقصات ما أدهش الحاضرين، وفي ذلك ما قد يل على أن الرسوليين لم يحاربوا الغناء في دولهم، بل لعلهم شجعوا عليه. ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعاني العربي التي اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ في أواسط العصر الرسولي أو في أواخره. وفي رأي أن على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية في صنعاء وغيرها من مدن اليمن، على الأقل منذ العهد الرسولي، كما تدل على ذلك المغني والراقصات في الاحتفال السابق، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمن النجاحيين في القرن السادس، إذ نجد لابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصري المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتولي سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعاني، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم في كتابه، وأيضا فإننا نجد للشعار اليمني ابن هتيمل شاعر القرن السابع الهجري أشعارا ملحنة بهذا الغناء، وكذلك للبرعي الشاعر اليمني الصوفي المشهور في القرن الثامن، وتتوالى بعد ذلك الأغاني في شعر القاضي موسى بن يحيي بهران والأمير الزيدي محمد بن إسحق. وتكثر الأغاني الشعبية الصناعية، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن.

وأشار الخزرجي في الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المحصنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المقدمين. ولعل من ذلك ما يدل من بعض الوجود على أن المرأة كانت تحظ في اليمن بغير قليل من الحرية. ومر بنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصليحي كانت من فضليات النساء، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتبرهم، وكان ابنها المكرم يجلها إجلالا عظيما، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة.

وحين مرض ابنها المكرم بالفالج فوض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أروي بنت أحمد الصليحي سنة ٤٦٧ فأحسنت القيام عليها وتدبيرها إلى أن توفي سنة ٤٨٤ وتولت بعده شئون الحكم، كما مر بنا إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهي التي أمرت ببناء جامع جبلة والجناح الشرقي في جامع صنعاء.

وكانت حضرموت من قديم متصلة باليمن، بل كانت أحيانا تعد جزءا منها، وكان واليها في القديم هو نفس والي اليمن. وقد يعين عليها نائبا له، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مر بنا في تاريخها السياسي. ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطا في الخصب وكثيرة الزروع. وهي بلاد جبلية يشقها واد عظيم تتفرع منه أودية مختلفة، كما مر بنا. وأهم حاصلاتها اللبان (الكندر) والحنطة والتمور، وأهلها يهبطون في التحضر درجات كثيرة عن أهل اليمن، لشظف العيش بديارهم، وهم ملاحون ممتازون وجعلت الملاحة شطرا كبيرا منهم تجارا، وإليهم يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بشرقي إفريقيا وبالملايو وإندونسيا والهند. وهم بحق أبناء المحيط الهندي، جابوه شرقا وغربا، ونزلوا في أقاليمه، وعايشوا سكانها، ولهم في كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة. وبجانب حضرموت ظفار، وطبيعتها واحدة، فهي الأخرى جبلية، وأهلها يزرعون الموز والحنطة والدرة معتمدين في ذلك على مياه الأمطار، وهم يرعون النعام والأغنام ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعي أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندي أو بحر العرب. وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة، التي رأيناها في اليمن، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم.

وعمان إقليم كبير في الجنوب الشرقي من الجزيرة، وهي تطل على بحر العرب من جهة وعلي الخليج العربي من جهة ثانية، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونسيا، وينزلها إيرانيون كثيرون من قديم، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة: عربية وإفريقية وإيرانية وهندية، والغلبة للعنصر العربي. وبداخلها جبل عظيم الارتفاع تتشعب منه تسعة أدية جميعها البني رئام وبجنوبيه مدينة نزوي عاصمة الخوارج. ومن أهم موانى عمان

صحار وكانت عاصمتها قديما، ومسقط وهي عاصمتها الآن. وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ، وهي كثيرة التمور والفواكه والزروع من الحنطة والذرة والشعير. وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥: إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة، ويصف نزوي عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت في سفح جبل، تحف بها البساتين والأنهار، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل في صحون المساجد، يأتي كل إنسان بما لديه من الأكل، ويأكل معهم الوارد والصادر، ويثني على أهلها قائلا: " لهم نجدة وشجاعة ". ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبي محمد بن نبهان، ويقول إنه يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه، ولا يمنع أحدا من الدخول عليه سواء أكان مواطنا أم غريبا، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له مدة الضيافة ويعطيه حسب قدره. ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة، وهي نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ في تصوره وملاحظته. وكل شيء يؤكد أن هذا الإقليم كان على شيء غير قليل من الثراء، وهو ثراء مكن سلطان بن سيف اليعربي في القرن الحادي عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندي وبعض شواطئ الهند.

والبحرين شديدة الخصب، وهي كثيرة العيون والفواكه النخيل وبها من التمور أنواع لا تحصي ومن زروعها الحنطة والأرز، وكان يرد إلى موانيها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية. وأخبار كثيرة تصور ما كان فيها من رواج وانتعاش اقتصادي، ومن ذلك ما يروي من أن تجارا غرفت سفينتهم بين جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف، وسقط في الخليج كل ما كان معهم، وعلم بذلك أمير البحرين العيوني الفضل بن عبد الله (٥٠٠- ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ما كان يحمله وقيمته نقدا، وأعطي كلا منهم ما فقده كاملا، وكان بينهم جوهري، قال إنه كان يحمل عقودا من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف، فأعطاها له. وهي مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ، وأنها كانت في يسر. ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصا بأمير البحرين وحده، بل كانت تشمل

حكام مدنها، ويروي أ،ه في عهد أميرها غرير الذي تولي إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة، فأمر حاكمها على بن عبد الله العيوني بفتح خزان الغلال والتمر وأن يأخذ منها السناس كل حسب حاجته، وأمر بحط الزكاة والضرائب عنهم، وما زال يوالي فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم. وكان يحكم القطيف في نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن على، فلجأ إليه سبعون فارسا من قبيلة عبد القيس، فأكرمهم، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم، سوي اقطاعات مختلفة.

وفي كل البلدان السالفة كانوا يفتنون في المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعا بكثرة الأسماك، ويكثر السردين في حضرموت، ووراءه في شواطئ الشحر واليمن وعمان والبحرين أنواع سمك لا تكاد تحصي، ويكثر في الخليج الآمور (الوقار) والربيان (الجنبري). وكانت المرأة تتفنن في زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلي. وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدي الفطر الأضحى. وكان الغناء منتشرا وخاصة في اليمن كما أسلفنا، وكانوا يخرجون للصيد والطرد في الصحراء من حولهم فرادي وجماعات.

٣

التشيع[١]

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية، وهي الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية، وأطولها عمرا وأكثرها بقاء وأوسعها انتشارا نحلة الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسن الذي ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ وقتل وصلب، وكان يري أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين، وكان يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وبذلك جوز إمامة أبي بكر وعمر مع وجود على بن أبي طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها. وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم، فكانت نحلته معتدلة، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام، ولا بأن وحيا نزل يعين الأئمة. وكان يشترط في الإمام أربعة شروط: العلم والزهد والشجاعة والسخاء، وهو لا يكون إماما إلا إذا ثار على الخليفة في عصره وطالب بالخلافة، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المختفي مثل الأثنى عشرية والكيسانية.

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم في القرنين الثاني والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله " النفس الزكية " الذي أعلن ثورته في المدينة على المنصور العباسي سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة، فاستثار أهلها، وهبوا معه ثائرين، وقضي المنصور على هذه الثورة. وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن على الحسنى في مكة والحجاز، ويهزم هو ومن معه لعصر الهادي سنة ١٦٩ في مكان يقال له " فخ " ويفر خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس

---

(١) انظر في التشيع ونحله مقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادي والملل والنحل للشهر ستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي وفرق الشيعة للنجواتي والتبصير في الدين للإسفراييني وفضائح الباطنية للغزالي ورسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد تحقيق د. وداد القاضي (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحي الإسلام لابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحي الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر.

ويؤسس بها دولة الأدارسة. ويفر أخوه يحيي إلى خراسان ويقبض عليه، ويلقي به في غياهب السجون حتى موته. ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا في الكوفة لعهد المأمون، ويقضي على ثورته. وينشط الزيديون في طبرستان بالنصف الثاني من القرن الثالث، وقد صورنا نشاطهم هناك في الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسي الثاني.

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان في اليمن والحجاز، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيي بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادي إلى الحق، واتخذ مقرا له-كما مر بنا- " صعدة " في الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالي بعده في صعدة الأئمة من أ بنائه، وحتى سنة ٤٣٧ إذ تولي الإمارة أبو الفتح الديلمي الحسنى كما مر بنا، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليماني، وتعود إلى الأسرة الرسية: أسرة الإمام الهادي إلى الحق وتظل في أبناء المتوكل على الله الرسي. كما أسلفنا. وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية فتتسع رقعتها وتستولي على صنعاء أحيانا، ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مر بنا. أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجري حتى العصر الحديث، وإن أخذت تلك الإمارة في التضعضع والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه في القرن العاشر الهجري.

ومر بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني حديث مفصل عن نحلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النحلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكانت قد أدركته المنية في حياة أبيه، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه، لأنها- في رأيهم- تتوارث في الابن الأكبر حتى لو توفي قبل أبيه كما حدث لإسماعيل. ويخلفه- في عقيدتهم- ابنه محمد، ويخلف محمدا ثلاثة أئمة مستورون جاء في إثرهم عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم، وتلقيبه بالمهدي يشير إلى عقيدتهم في المهدي المنتظر، وعرضنا في العصر العباسي الثاني تفصيلا لتلك النحلة وأهم مبادئها وأن الذي نظمها وكون حولها

جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح، وكان ينزل في سلمية بقرب اللاذقية، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمي حمدانا ويلقب بقرمط، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها،وإليه نسب القرامطة، وكان يدعو في جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة، وهي الشركة في الأموال. وزعم، وزعم معه القرامطة، كما يقول البغدادي " أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات (ضروب من السحر) واستعبدوهم بشرائعهم " وقالوا: " هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد ". ومن هنا كانوا يحلون أنفسهم من الفرائض، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم. والقرامطة- بهذا التصوير للبغدادي- كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنابي أرسل به إلى منطقة البحرين، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التي ظلت نحو تسعين عاما. وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريرا كبيرا، وكثيرا ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم. وفي سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشي على الحجاج في موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورمي كثير من جثثهم في بئر زمزم واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مر بنا، وهو في أثناء ذلك ينشد أشعارا كافرة مارقة. ونري القرامطة في سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩- ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده- كما مر بنا- حتى سنة ٣٧٨. وعلي الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة في البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عني مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هي عادة الماشوش، وإذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم في الليلة العاشرة من شهر المحرم، ويشعلون الشموع والمصابيح يغنون ويرقصون، ثم يطفئون الشموع ويختلطون. ويبدو أن عبد الله العيوني لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائيا، فقد ظلت منها بقايا بعده، بل يقول فؤاد حمزة في كتابه " قلب جزيرة العرب " ! إنها لا تعدم في

الأحساء- إن صح ما يقول- من يعتنقونها إلى اليوم. وعرفت الدعوة القرمطية في اليمن، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعاته، وهما المنصور بن حوشب وعلي ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة، ونزلا على حافة اليمن النجدية، غير أن دعوتهما اختلفت، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجري، وكأنما نقض يده من القرامطة وانتشرت دعوته في بعض الجبال وبعض القبائل، ويسميه الفاطميون منصور اليمن، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم، إذ توفي سنة ٣٣١ وخلفه ابنه في الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحي، كما سنري عما قليل. ونفض على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية، فلم يدع للفاطميين، بل أخذ يدعو لنفسه، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادعي أنه من بني يعرب أو قحطان، كما مر بنا، واستحل المحارم ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم انتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا.

وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استمالوا على بن محمد الصليحي للدعوة الإسماعيلية، واستطاع-كما رأينا في غير هذا الموضع- أن يؤسس الدولة الصليحية، وأن يستولي على زبيد وصنعاء وعدن، واتخذ صنعاء عاصمة له. وحري بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي الذي كان يدين به هو وكثيرون من أهل إماراته. وقد ذكرنا آنفا أن القرامطة كانوا فرعا من المذهب الإسماعيلي ضل هداه. وقد اتخذ هذا المذهب في أول أمره شكل جمعية سرية كون مبادئها عبد الله بن ميمون القداح، وهي مبادئ غمست غمسا في نظرية الفيض الأفلاطونية التي سكبوها في نظرية الأدوار عندهم، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون في أدوار، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلي الناطق عن القوي الخارقة، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره. والإمام له نسبتان: نسبة إلى عالم القدم، ونسبة إلى عالم الطبيعة. وفي مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلي أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع في كل دور، ولذلك يوصف- عندهم- بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرة. وفي عقيدتهم أن آيات

القرآن الكريم ينبغي أن تفهم فهما باطنا مجازيا، ولا تفهم فهما ظاهرا أو ظاهريا، حتى يؤولوها كما يشاءون. والمنتظم في سلك الدعوة- عندهم- يتدرج في سبع مراتب و بلغت تسعا. وظلت الدولة الصليحية قائمة- كما أسلفنا- حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زريع حكام عدن إسماعيليين فاطميين، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩. وتلاشت بذلك الدعوة نهائيا بقضاء الأيوبيين عليها في اليمن ومصر، وبقيت فترة حية في المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية، ونظن ظنا أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر في اعتناق هذه العقيدة طويلا وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الأثنى عشرية.

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقي الجزيرة، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالي في اثني عشر إماما. ولذلك يسمي أصحابها باسم الأثنى عشرية، وآخرهم المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلا. ولم تقم للإمامية دولة في الجزيرة العربية، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر في الخليج العربي، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبهويهيين، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثني عشرية، وفي نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان في عمان بيت إمامي أثنا عشري هو بيت بني المكرم ،أنهم، كما مر بنا دفعوا البويهيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدي خوارج نزوي، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجري، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين في التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثاني عشر المختفي كما أسلفنا. ولا يزال يوجد إماميون في الخليج العربي وإماراته إلى اليوم.

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية، وهو أخ ربيب للحسن والحسين، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ والرجعة وكان ابن الحنفية يتبرأ منها أشد التبرؤ، وتوفي، فيقول أتباعه إنه لم يمت، بل غاب في جبل رضوى، يقول فؤاد حمزة في كتابه " قلب جزيرة

العرب " يوجد في الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون في جبل رضوى بالقرب من ينبع وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن.

٤

الخوارج: الإباضية[١]

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي أحد أربعة كانوا رؤوس الخوارج في منتصف القرن الأول الهجري وحولهم تكونت فرقهم الأساسية: الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان، والنجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي وكان مسرحهم نشاطهم اليمامة والبحرين، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة. وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضرموت واليمن، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أو كادت بانتهاء العصر الأموي، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا في بيئتها الأصلية عمان وحضرموت فحسب، بل أيضا في بلاد المغرب، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون في العصر الأموي أو بعبارة أدق في أواخره، وما زالت الدعوة تنمو في المغرب، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية في تيهرت. ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة في جنوبي الجزائر وليبيا.

أما في عمان وحضرموت فقد اتخذ الإباضية نزوي جنوبي الجبل الأخضر في داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالي أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسي، وكثيرا ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدي العباسيين. وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بني مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نزوي قبيل منتصف القرن الخامس. وتخرج من أيديهم في القرن السادس ويتملكها بنو نبهان، وتعود إلى الإباضية فترة في أول القرن العاشر الهجري، ثم تعود إليهم نهائيا وياتولاها أئمة

---

(١) انظر في الإباضية الكتب المذكور في تاريخ عمان وأمرائها والملل و النحل للشهرستاني ومقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبغدادي وفجر الإسلام وضحي الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبي ربيع سليمان الباروني (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة).

الإباضية اليعاربة منذ سنة ١٠٢٤. وتخلفهم أسرة إباضية أخرى هي أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١ من وتظل عليها إلى اليوم، وتترك السلطة الدينية لأئمة نزوي وتكتفي بالسلطة الزمنية. ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية، ومر بنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيح أحمد بن عيسى جد آل باعلوي وقد نشر فيها مذهب الشافعي ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلا مع دعوة الخوارج، ولأسرته نشاط علمي وأدبي كبير في حضرموت، ومر بنا أن أبا إسحق الخارجي الحضرمي استقل بها في القرن الخامس، وكان خارجيا يدين بالولاء لإباضية نزي وإمامهم الخليل ابن شاذان، وكثيرا ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية في نزوي أو فيها وفي عمان. وقد نشر العمانيون المذهب الإباضي في زنجبار والبلاد التي كانت تتبعهم في شرقي إفريقيا مثل دار السلام، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري.

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى أهل السنة، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصي كافرا، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله، بل يقصدون بكفره أنه كافرا بالنعمة، والكفر بذلك عندهم نوعان: كفر نعمة وكفر شرك بالله. وأحلوا التزوج من مخالفيهم من المسلمين وأن يتوارث الإباضي معهم. ولم يستحلوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب، وحرموا قتل المسلمين غيلة وكذلك سبيهم سرا، وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضي وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب. وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم. وقالوا في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون، وهم كفار نعمة لا كفار ملة. وعندهم أن الإيمان لا يكفي فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق، بل لابد من العمل وأداء فروض الدين. ويتفقون مع المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وينزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات، ويقولن إن القرآن مخلوق حادث، وإذا صح ما يقوله الشهرستاني كانوا يتفقون مع الأشعرية في رأيهم أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثا

وإبداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجاز. ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين.

وهذا الاعتدال في مذهب الإباضية يجعلنا ننفي عنهم نفيا باتا دولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا، فقد تسمي مؤسسها بأمير المؤمنين كما تسمي بالمهدي، وكأنه جمع بين فكرتي الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغاليين معا مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية، إذ كان- كما أسلفنا- يكفر بالمعاصي ويقتل من اقترف كبيرة و بالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمي دارهم دار حرب. وهو في ذلك كله غال غلوا شديدا حتى ليتقدم الأزارقة خطوة في الغلو، ثم يدعي العصمة ويدعيها له أتباعه وهو في ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية، بل إنه ليعد نفسه المهدي المنتظر، ولم يلبث توران شاه- كما مر بنا- أن قضى على من خلفه ودولتهم الخارجية الشيعية.

٥

الدعوة الوهابية السلفية[١]

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التي شابت العقيدة الإسلامية ونبذ تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم غلي قضاء الحاجات، كالبركة في الزروع أو في الأغنام والأنعام أو في برء المرضي وشفائهم، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار والأحجار، وكان حنبليا يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية، وقد مضي يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم. وكان الغزالي قد وصل بين التصوف والشريعة محاولا تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفا سنيا، وقد شن ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة، وناهض المذهب الأشعري وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعا جديدة.

وعلي هدي من هذه الدعوة التي وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبري محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ/ ١٧٠٣ من بالعيينة في إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه، وكان أبو قاضيا للعينة وعليه تلقي دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكب على قراءته، وعاد إلى موطنه، يدعو إلى مذهبه الحنبلي وإلي كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولي أو شفيع ونبذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية، والرجوع إلى

---

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة جليلة في التوسل ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع القاهرة) وكتاب التوحيد كشف الشبهات في التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب القاهرة ولمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب للريكي وعنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر.

السنة والعمل على إحيائها، وإتباع السلف في ذلك كله، ولذلك يسمي الوهابيون أنفسهم سلفية. وكتب لهذه الدعوة أن تعم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدرعية (١١٣٧-١١٧٩هـ). يده في يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨هـ/ ١٧٤٤م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث.

وأخذ محمد بن سعود خلفاؤه يعملون على نشر الدعوة، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة في الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التي تظل نجد والأحساء والحجاز اليوم. وفي الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢ من في الدرعية يبث تعاليمه وينشرها في أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة، وفي مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادي بعبادة الله وحده وأن زيارة قبول الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك. وبالغ أتباعه في هذا المبدأ فمنعوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين، وتشددوا في قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب. والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى، كما كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك دعت إلى نبذ كل ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف في العهد الإسلامي الأول، ونادت بأنه يجب إزالته، حتى لو كانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحته، بل حتى لو حبذته. وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقا في الوقت نفسه للمذهب الحنبلي، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد بن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية، فللأولين الحكم والسياسة وللثاني الإفتاء والتعليم والقضاء.

٦

الزهد والتصوف[١]

لم تكن نجد تعرف شيئا عن الترف والنعيم، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف، فطبيعي أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا، وحقا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج في بعض السنوات طلبا لما في أيديهم من مال ومتاع، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون في متاع الحياة العاجل انتظارا لما عند الله من الثواب الآجل. ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية.

وكانت المدينتان المقدستان في الحجاز، ولا تزالان، موئلا للنساك والعباد، ومن قديم كان يجاور فيهما وخاصة في مكة كبار الزهاد والمتصوفة، فيقيمون فيهما بضع سنوات، وقد ينفقون فيهما العمر كله. ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن فؤاد كل مسلم يهوي إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعيا أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور في العالم الإسلامي دون أن يفد على مكة، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية. ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألموا بمكة وجاوروا فيها الحلاج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة، جاور فيها سنة كاملة. ومر بنا في العصر العباسي الثاني ترجمة له وعرض لشعره الصوفي وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفا فلسفيا، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد والحلول. وممن جاور في مكة بعده القشيري المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث، وهو الذي رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة، فنحى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السهرودي شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقي ابن الفارض المتصوف المصري

---

(١) انظر العقد الثمين في مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة).

المشهور الذي كان يجاور هناك، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طوالا، وهو يطوف المشار مبتهلا إلى الله متغنيا بالحب والصوفي الإلهي ناظما أشعاره الرائعة. وإنشاد البوصيري لميميته أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ذائع مشهور. ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفي " ترجمان الأِواق " سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمي: " الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأِواق " وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسي المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة. ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورن بمكة إنما هم قليل من كثير، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة. وكان يتعبد الله معهد أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحصر والاستقصاء، ولنأخذ مثلا كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " مكة " فإن من يتصفح تراجمه في مجلداته الثمانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد.

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدي لا يزال يتحدث عن زهد كثير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفاني، وحقا أكثرهم من فقهاء زبيد الشافعية، ولكن الزهد كان يحيي في كل البيئات وفي كل المدن وكان كثير من أئمة الزيدية في صعدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره على إمارتهم، فأكب فيها كثيرون على النسك والعبادة، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكامهم. ولم تكتف اليمن بالزهد، فقد عرفت التصوف السني وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية، واشتهر عندهم صوفي كبير يسمي أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم في اليمن المجاذيب، وهم يطوفون في البلدان اليمنية مرددين أغاني وأناشيد في مديح قطبهم الرباني، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التي شاعت منذ أواسط القرن السادس، يدل على ذلك ما يري عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسمانية، مصورين بذلك مقدرتهم الخارقة. ومر بنا في حديثنا عن المجتمع اليمني والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك

بمقطوعة لابن الفارض، ولعل في ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمني بالتصوف السني المصري عند ابن الفارض وأمثاله، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيري في مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وصلتهم، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجري حتى يلقانا عندهم شاعر صوفي سني هو بعد الرحيم البرعي المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهي والمدائح النبوية. وعلي غراره محمد بن إبراهيم الوزير، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف. ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعي صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين، وزار مصر، وكان ابنه عبد الرحمن زاهدا صوفيا على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة. وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران في اليمن، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت في عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن في مواجهة العثمانيين، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة في البلاد، حتى نهاية هذا العصر.

وعلي نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين في اليمن كانا أيضا منتشرين في حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف في كتابه عن شعرائها يقول في مقدمته: إنك تري في شعرهم جميعا طلاء صوفيا. وفي الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفي الزاهد التقي الورع. ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر بامخرمة المتوفاة سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حف به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء. وممن ترجم لهم أيضا السقاف عبد الله الحداد العلوي المتوفى سنة ١١٣٢ وبعد الرحمن بن مصطفي العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسيول من شعر الزهد والتصوف.

ولم تكن عمان وإقليمها يوما بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف، وقد وصف أبو حمزة الخارجي شبابهم قديما بأنهم " غضيضة

عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبدة وأطلاح (أنضاء) سهر " وطبيعي أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائل ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل. ونجد عند شعراء بني نبهان لمعة من الزهد والمديح النبوي.

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف في عصر القرامطة، وفي ديوان ابن مقرب العيوني بعض أشعار قليلة زاهدة، وهي تشيع في كتابي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبي، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفي وما يشيع فيه من وجد. وتلقانا في كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة.

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية[١]

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم معلمين إلى القبائل والقرى في الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تتدفق في كل ركن من أركان الجزيرة، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد في كل ركن من أركان الجزيرة، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة كل مدن العالم الإسلامي. ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة، وليست خاصة بإقليم معين، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى، وسرعان ما تتعهد وتضيف إليه إضافات كثيرة.

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدي ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى، شجرة الحركة العلمية العربية العامة، غذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة

---

(١) انظر في الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافي في ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة اليمني والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزيارة والبدر الطالع للشوكاني والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعي (مطابع دار قريش بمكة) وثغر عدن لبامخرمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافي وتاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمي وعمان تاريخ يتكلم لمحمد السالمي وعساف وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم.

العربية كانت جداوله ونهيراته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس.

وتتغلغل دول هذه الثقافة حتى في نجد: البيئة التي يظن أنها كانت بعيدة عن الحركة العلمية ما يحيط بها من أسوار الصحراء، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ، وكانت تتلي فيها كتب الشريعة وأيضا كتب العربية بآخرة. وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلا أو كثيرا من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة، على نحو ما حدث في بني مزبد وقبيلتهم بني أسد حين أسسوا مدينة الحلة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار، وأيضا على نحو ما حدث في بني عقيل حين اتخذوا لهم إمارة في الموصل،، فإن القبيلتين جميعا قادتا حركة علمية في ديارهما، وقد عادتا جميعا إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري. ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبريدة وحائل والعيينة والدرعية لم تخل في أي عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقي كتب الفقه والتفسير والحديث النبوي. ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية ولمدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إمامية: أحمد بن حنبل وابن تيمية.

وإذا تركنا نجدا إلى المدينتين المقدستين في الحجاز: مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكي والمدني يتحولان في عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية في البلاد العربية، لسبب مهم سبق أن عرضنا له في غير هذا الموضع، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء النابهين بالأقطار العربية في كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طوالات، وقد يمضون فيها بقية حياتهم، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة، غير من كان فيها وفي مكة من علماء الشريعة والعربية. وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء، ويكفي أن تتصفح مثلا كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: مكة لتري مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف، وكان لكل عالم حلقته، فالمقرئ القرآن الكريم حلقته وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف. وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتعد بالعشرات.

وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس، فقد بني بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة، رتب لها مدرسين وإماما ومؤذنا وطلابا يتعلمون، ووقف عليها أوقافا دارة. وتعاقب بعده بناء المدارس في مكة والمدينة، يبنيها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباي التي بناها بجوار الحرم المكي ورصد لها أوقافا كثيرة. وعني العثمانيون بعد استيئلاهم على الحرين ببناء المدارس، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه، وتتكاثر المدارس في المدينتين المقدستين وتتكاثر الكتاتيب وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري.

ونشطت الحركة العلمية في اليمن من قديم، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علماء وأدبيا مما جعل كلا منه تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء، فالأمير على بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية كان عالما، ويقول عنه عمارة: " كان عالما وفقيها مستبصرا في علم التأويل وخطيبا بليغا " وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروي بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخاري مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة. وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف " المفيد في أخبار زبيد " واختصره عمارة اليمني ونشره مختصره، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكي، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب. ويقول عمارة اليمني إنه رأي جريدة هذه الرواتب التي كانت تدفع إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة، فوجدها اثني عشر ألف دينار في كل سنة. وبالمثل عرف بنو زريع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم. وحين تسلم الروليون زمام المور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم في ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بني في تعز عاصمته الصيفية مدرستين وفي عدن مدرسة وفي زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس: مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية للحديث النبوي، ورتب في كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفايتها

وتسد حاجتها. وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية في تعز وجوامع أخرى في أنحاء إ مارته وبني مدرسة بتعز، وأخري بظفار وكانت تتبعه. وابتني أحد رجاله المسمي بدرا المظفري بزيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوي ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة. وخلفه ابنه السلطان الأشرف، وكان عالما في فنون مختلفة وله عدة مصنفات، منها كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب في التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان، وتعمق في علوم الأوائل، وله كتاب في الأسطر وكتاب الجامع في الطب، وولي بعده أخوه المؤيد، وكان عالما أديبا، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحو المصري وكتاب الجمل في النحو للزجاجي وكفاية المتحفظ في اللغة، ودرس كتاب التنبيه في الفقه الشافعي لبي إسحق الشيرازي وسع الحديث النبوي من حفاظه العلام وأجازة منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبري شيخ السنة بالحرم المكي وأذن له في رواية البخاري والترمذي عنه وناوله صحيح مسلم، وجمع من الكتب ما لا يكاد يحصي، واختصر كتاب الجمهري في البيزرة وألف في الطب كتاب العمدة. واشتهر بعده حفيده السلطان الأشرف بتشجعيه الحركة العلمية، وحين علم في سنة ٧٨٨ بتأليف القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الرمي كتابه " التفقيه في شرح التنبيه " في أربعة وعشرين جزءا أمر بحمل هذا الكتاب على رؤوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلس، مزففا بالطبلخانة، وحين وصل الكتاب ومصنفة منحة مكافأة لجهده العلمي: ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيما للعلم والعلماء، ورفعا لدرجة الشيخ. ويقول الخرزجي إنه طرز كتابه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته، ويذكر عنه أنه رتب في سنة ٧٩١ بجامع المملاح ستة مدرسين ومقرئا للقراءات السبع ومحدثا ومدرسين: شافعيا وحنفيا ومدرسين: في النحو الفرائض، ورتب فيه إماما ومؤذين وقيمين وخطيبا ومعلما وأيتاما يحفظون القرآن وشيخا صوفيا. وكان الخزرجي نفسه أحد المرتبين لإقراء القرآن، وأمر السلطان الأشرف بعد المساجد والمدارس في سنة ٧٩٥ بزبيد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين. ومعروف أن المساجد في العالم الإسلامي كانت مدارس تعقد فيها دائما حلقات للطلاب والعلماء. ولعل في هذا ما يدل على مدي النهضة العلمية باليمن في عهد

الرسوليين، وبلغ من عنايتهم بذلك أ، اشترك معهم نساؤهم في بناء المدارس والجوامع والمساجد ز وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء، ومن أهمهم الفيروزابادي صاحب كتاب القاموس المحيط، ألفه في زبيد ونوه في مقدمته بالسطان الأشرف، وقد أنزله منزلة رفيعة، ويقال إنه لما ألف تابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يحمل الكتاب إلى بابه مزفوفا بالطبول في موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاء والطلبة، وأمير للفيروزابادي توا بثلاثة آلاف دينار، إذ كان الكتاب في ثلاثة أجزاء، جعل لكل جزء ألفا. ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة في تعز. وفي الحق أن دولة الرسوليين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة في اليمن، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتي ألف مجلد، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتبا نفيسة أو نادرة. واهتم بنو طاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء.

ومنذ اتخذ الرسيون صعدة مركزا لدعوتهم في أواخر القرن الثالث الهجري، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها، فكثيرون منهم ألفوا في الفقه الزيدي وفي علم الكلام وفي غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادي إلى الحق يحيي بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية في اليمن. وللإمام المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبي الفتح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٥٩٨ وللإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر المتوفى سنة ٦٧٠. وعلي هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن في النهضة العلمية. ويشتهر الإمام شرف الدين يحيي المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس في صنعاء وذمار وكوكبان. ومر بنا أن إمارة الزيدية اتسعت في العصر العثماني وشملت صنعاء وغيرها من المدن، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين.

ويلقانا في حضرموت كثير من العلماء النابهين، وهم منبثون في كتب التراجم، ولهم دلالتهم على ما كان ورائهم من حركة علمية، وفي كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك في

كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاوروا في مكة. وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات في التاريخ الحضرمي ما يصور من بضع الوجوه النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها ك تريم وغير تريم.

وكانت عمان من قديم مركزا لحركة لعمية نشطة، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دريد أكبر علماء اللغة في عصره أزدي عماني وقد أمضي بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر في تكونيه اللغوي، ومن آثارها في معجمه " الجمهرة " أنه يحمل كثيرا من لغة الزد العمانيين وخصائص لهجتهم، ومعروف أنه توفي قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤. وشهرة عمان العلمية في القرن الرابع الهجري هي التي جعلت أبا سعيد السيرافي، كما قال الرواة، يخرج من بلدته سيراف في طلب العلم إلى عمان، ويتفقه بها ويتعلم العربية، ثم يدخل بغداد بعد ذلك، ويروي أنه تتلمذ لابن دريد. وقد عني حكام عمان من بني مركم وخلفائهم من بني نبهان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم، فكثر في عمان الأدباء والعلماء والشعراء. وكان للخوارج في عاصمتهم نزوي ثم في عمان حين استولوا عليها نهائيا في العصور المتأخرة نشاطهم الخاص في مذهبهم الإباضي والتأليف فيه مع العناية بالعربية.

ومنطقة البحرين هي منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديما، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق داريـن، وأنجبت عبد القيس في الجاهلية والعصر الإسلامي غير شاعر وخطيب، وأشاد بخطبائها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ونوه بهم طويلا. ونشعر حين استولى القرامطة على البحرين بخمود الحركة العلمية فيها، غير أنها أخذت تنتعش سريعا في زمن العيونيين وبني عصفور وبني جبر، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة العلوم اللغوية للناشئة وتفقيه الناس بأمور دينهم ووعظهم. وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة، على نحو ما يصور ذلك مثلا كتاب سلافة العصر لابن معصوم، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم في القرن الحادي عشر مثل الشيخ سليمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة في المنطق وعلم الكلام. ومن يطلع على كتاب

شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر يري نشاطا علميا وأدبيا واسعا في أواخر هذا العصر كان يعم البحرين بمعناها العام: في الأحساء وقطر والقطيف وجزيرة أوال (البحرين الحالية).

٢

علوم الأوائل[١]

من مفاخر جزيرة العرب وحضرموت خاصة أنها قدمت إلى الفكر العربي في نهاية العصر العباسي الأول ومفتتح العصر العباسي الثاني أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وهو يعقوب بن إسحق الكندي الذي تمثل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلا رائعا، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقها حسنا، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة، سواء في العلوم الطبيعية أو الرياضية أو في المنطق والسياسة والأخلاق والطب. وقد أحصي ابن النديم في الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتابا، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية، ويقول ألدوميلي إن كتابه في الهندسة أثر أثرا بعيدا في روجر بيكون.

والكندي ثمرة الحركة العلمية في البصرة التي نشأ بها وفي بغداد التي عاش فيها، وطبيعي أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية، يغر أن مراكز أخرى أخذت تتكون في هذا العصر بإيران وبمصر والشام، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعادا للمشاركة في علوم الأوائل أو على الأقل في تعلمها تعلما حسنا. ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسي الثاني حتى نجد أبا محمد الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل، ويتقنها فهما وتحليلا، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة، ومن أهمها كتابه " سرائر الحكمة " وفيه عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب، و بين علم أحكام النجوم واستوفي ضروبه، وكذلك كتابه " القوي " في الطب، وكتابه " الإكليل " الذي ألفه في ملوك حمير وأنسابها وهو في عشرة أجزاء كبار، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل " جمل من القرانات " في النجوم وأوقاتها- كما يقول القفطي- ونبذ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل في قدم العالم وحدوثه واختلافهم في أدواره. ثم يقول القفطي: وله زيجه المعروف، وعليه اعتماد أهل اليمن.

---

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميلي وترجمة الهمداني في مختصر الزورني لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (طبعة ليبزج) ص ١٦٣ وديوان السلطان الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار المعارف- المقدمة) وترجمة ابن سينا في ابن أبي أصيبعة وترجمة زيد بن عطية في انباه الرواة وكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة العصر لابن معصوم.

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية في عصر الدولة الصليحية (٤٣٩-٥٣٢هـ) هيأت في بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل، إذ كانت ترتكز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها، وهي من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها في الأفلاطونية الحديثة وأيضا عرض لعلوم الأوائل. ونجد أحد دعاة الفاطميين في اليمن المسمي الداعي الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة في النفس، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية، وهي تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث في الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات.

وفي ترجمة ابن سينا ذكر شخص همداني يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها إنصاف بينه وبين ابن سينا ولم نقع على اسم هذا الهمداني. وفي الجزء الثاني من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصعدي اللغوي، وفيها أنه " كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسين، يسلم إليه المنجمون في ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب، وله تصانيف في ذلك، منها زيجان: كبير وصغير، ومنها " أحكام نجومية " و "فصول".

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت في اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة في عهد سلطانها المظفر (٦٤٧-٦٩٤هـ). وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد، ولكل منهما في الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة في الطب، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر ي طلب منه طبيبا قائلا: " ولا يظن المقام العالي أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غ يرنا، وقد أشتغلنا به من أيام الشبيبة، وولدنا عمر- يقصد السلطان الأشرف- من العلماء بالطب، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله". ومر بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه " العمدة ". ويذكر صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن في القرن الحادي عشر طبيبا شيرازيا، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره.

ويلقانا دائما اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والنجوم، ونقرأ عن ذلك أخبارا متناثرة هنا وهناك، من ذلك ما نقرؤه في تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين: إحداهما في الطب والثانية في علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر بامخزمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة في علم الجبر والمقابلة. ونستطيع أن نعمم هذه النزعة في عمان والبحرين وفي مكة والمدينة. ومما يدل على رغبة المثقفين في الجزيرة العربية على

الإطلاع على علوم الأوائل أننا نجد في كتاب لمع الشهاب في أسرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عني بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس في الهنسة وكتاب المجسطي في الهيئة، كما قرأ الحكمة الإشراقية، ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس في كل أنحاء الجزيرة، لاقتناع العلماء في كل مكان بضرورة درسه.

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني المتوفى مع أول هذا العصر، كما مر بنا آنفا، ولأبي على الهجري كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية، ومعروف أن الأمم القديمة في أفريقيا وآسيا وأوربا اخترقت البحار والمحيطات من حولها، وبنت سفنا حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو،حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القلزم أو البحر الأحمر، كما اقتحموا المحيط الهندي إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غربا وإلي الهند شرقا. وكان اقتحامهم له في أواخر القرن الأول الهجري سببا في أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونسيا، بل لقد اقتحموا المحيط الهادي نزلوا على شواطئ الصين، واشتهر أحد تجارهم المسمي سليمان بكتابة رحلة له قام بها في سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمما ديار الصين، وقد تحدث فيها عما ركبه وخاصة من بحار بادئا بالخليج العربي. وتوالي رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية.

علم الملاحة البحرية[١]

كان ربابنة السفن في البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر في المحيط الهندي وما يتصل به من المحيط الهادي، مما كان سببا مباشرا من نشوء علم الملاحظة عند العرب وازدهاره على مر السنين. وكان يشترك في هذه الملاحة سكان الخليج العربي وجنوبي الجزيرة العربية، ونهض بها منهم ربابنة كثيرون.

واشتهر ربابنة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود في عمان حوالي سنة ٨٣٠ للهجرة، وقد نشر له المستشرق جبرييل فران في باريس سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله النثرية والشعرية أنشأها في نحو ثلاثين عاما بين سنتي ٨٦٥ و ٨٩٥ ولقران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره في دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين. ونشر المستشرق الروسي تيودور شوموفسكي في موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات، وعني الدكتور محمد منير مرسي بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها في القاهرة بعنوان: " ثلاث أزهار في معرفة البحار " ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكي، ورد الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد و بذل في ذلك كله جهدا محمودا.

والأعمال التي نشرها قران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة في باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين، تتناول أصول علم البحار

---

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليماني المهري كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي لجورج فضلو حوراني ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة الأنجلو) بالقاهرة. وراجع فران في مادتي شهب الدين أحمد بن ماجد والمهري في دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار في معرفة البحار لحمد بن ماجا تحقيق تيودور شوموفسكي ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مسري والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم • نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدوميلي ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالا للأستاذ حسن الصيرفي في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان " علماء البحار العرب واصلاحاتهم البحرية.

والفلك والملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب. وبجانب هذه الأشعار في المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس: " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة، وهو في اثني عشر فصلا، و يتحدث ابن ماجد في الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحظة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب. ويعرض للكتابات في الملاحة قبل ويشيد بثلاثة من البربانة، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان، معتمدا في ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية، وليس بصحيح ما ذهب إليه بعضه الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كتاب النسخة وأنه كتبها- كما يظن- سنة ٣١٥ للهجرة وكان هؤلاء البربانة الثلاثة- في رأيه- كانوا يعيشون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا في النصف الأول من القرن السادس. ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة يوقوم إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم الرحية لم تتجاوز الخليج العربي، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم. ويؤكد أن كتابه ليس كتابا نظريا كالكتب السابقة له، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده، فقد كانا ربانين كبيرين، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية في ألف بيت تعد دليلا ومرشدا هاديا للملاحظة في البحر الأحمر. ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهيل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف في الملاحة يسميهم الليوث، ويسمي نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة. ويذكر في الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التي تطابق تقاسيم البوصلة الاثنين والثلاثين والطرق البحرية في المحيط الهندي وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانى في المحيطين: الهندي والهادي والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندي والخليج العربي والرياح الموسمية للرحلات والبرح الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية وريحاه وأغواره. ويقول قران إن وصفه لكل

ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أي وصف لكاتب آخر في الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية. وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط. فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بلد) ومزاول لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبي.

ومن سوء طالع هذا العالم الفذ في علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا أن تعرف عليه في " مالندي " بشرقي أفريقيا قاسكودي جاما البرتغالي، وكان قد يئس من الوصول إلي الهند عن طريق البحر، إذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحري إليها، وكانت سفهنهم كلما خرجت في المحيط الهندي واتجهت نحو الهند وتحطمت ولم ينج منها أحد. ونعجب أن نري ابن ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا في الهند. وبذلك يكون- لغفلته- أداة للاستعمار البغيض: البرتغالي أولا، ثم الإنجليزي والفرنسي والهولندي، من شاطئ إفريقيا الشرقي إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين. وسرعان ما شعر بسوء فعله، وصور ذلك مرارا وفي ألم ومرارة عن قاسكودي جاما وأصحابه البرتغاليين في الأرجوزة الأولى من " ثلاث أزهار في معرفة البحار":

وجَا لكاليكوتَ خُذْ ذي الفائدة ... لعام تسعْمايَهْ وستٍّ زائدة

وسار فيها مبغضُ الإسلامِ ... والناسُ في خَوْفٍ وفي اهتمامِ

وشْتَرَوُا البيوت ثم سكنا ... وصاحَبوا للسَّوامرْ ركنوا

وهو يريد بالسوامر نسبة إلى السامري الذي صنع العجل وعبده بنو إسرائيل يردي أنهم كفار، ومع ذلك صاحبهم حكام ثغر كاليكوت في الهند. وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان. ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضا يختل الوزن عنده أحيانا.

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهري من مهرة في الشحر بين حضرموت وعمان، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، وله

في الملاحة كتب لا تقل أهمية في عن كتب ابن ماجد، بل لعلها أوفي وأشمل في بيانها لأحوال الملاحة في المحيطين الهندي والهادي حتى بحر الصين، ومن كتبه " تحفة الفحول " و " العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية " و" المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر" وتاريخها جميعا يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر، وقد درس فران أعمال سليمان المهري البحرية دراسة وافية.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة في التراث اللغوي والنحوي والبلاغي والنقدي، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم في بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نقل إلى البيئات الأخرى، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات، بل عن طريق الطيارات، لا نبلغ مبلغ أسلافنا في سرعة التواصل بينهم في الكتاب، لا في مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضا في جميع المجالات لغوية وغير لغوية. وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا، ولم يستطع الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان لجأ إلى النداء عليه في الحج، ليخبره عنه بعض من رآه في مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند. وكان العالم في أي علم أو فن يري أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد في رحلته ليلقي العلماء ويقرأ كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذي يريد التعمق فيه. ونقلوا في أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم، وفتحت المكتبات في كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزي حملتها خير الجزاء.

ومعني ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط في علم بأي بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة، وهي أكبر جدا من أسمائهم، لأنها تعني النشاط العلمي في العالم العربي جميعه، إذ كانت كتبه ومصنفاته تصب في كل البلدان العربية، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب. وقد يضيفون إليها في كل علم منصفات جديدة وكان يكون عيدا لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب. وقد يضيفون إليها في كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيدا لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم

من البلاد العربية، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبه، فكان بمجرد نزوله في بلد يتحول في التو محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه.

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية، أشبه ما تكون بالدورة الدموية، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر، ويدور العلماء أنفسهم. وكانت الجزيرة العربية تدخل في هذه الدورة، تدخل فيها نجد بقراها التي أخذت تعني بتعلم العربية منذ أن هجرت أو كادت الإعراب في القرن السابع الهجري وما بعده. أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم، كما كانا يعنيان بالنحو، وكان يوجد لهما دائما مدرسون ينهضون بهما سوي من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية، ويكفي أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة[1] الأندلسي المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب في الحرم المكي، مما جعل الزمخشري[2] يرحل في شبيته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذه عنه، وقد جاور بمكة- بدوره- مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه، وكان لا يباري في اللغة والنحو وألف فيهما مؤلفات دوت شهرتها في العالم العربي، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذي رتب مواده بحسب الحرف الأول، وأدخل فيها كثيرا من الشواهد والأساليب الأدبية، ويغلب أن يقول في ختام المادة: " ومن المجاز " فيقرن الأساليب المجازية على الأساليب الحقيقية. وألف في غريب الحديث النبوي كتابه " الفائق " وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغريبة، وصنف في تفسير القرآن الكريم وألفاظه " الكشاف " وشهرته تملأ الخافقين. ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصي في أمثال العرب القسطاس في العروض. ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل، جعله في أقسام أربعة: قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشترك وأراد به الإمالة والوقف والإبدال والإعلال، ولابن يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور. وللزمخشري بجانبه في النحو كتاب سماه النموذج. ولا ريب في أن هذا

---

(١) انظره في التكملة لابن الأبار ٢/ ٨١٥ والعقد الثمين ٥/ ١٨٢ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣٧٢.

(٢) راجع في الزمخشري ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٥ / ١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم الخاص بإيران.

العالم النحوي اللغوي العظيم بعث في مكة حركة علمية مباركة في فنون اللغة والنحو والتفسير ولابد أن كثيرين شدوا الرحال إليه في مكة ليتلقوا عنه مصنفاته، وليحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعا وإلقاء. وممن نزل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغاني الحسن[1] بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقص ما قلناه من وحدة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي، فقد ولد سنة ٥٧٧ في لاهور عاصمة إقليم بنجاب في الهند، ونشأ في إقليم صغان كورة من بلاد السغد، ويذكر مترجموه شيخين له في الهند، فالشيوخ ومعلمو العربية والشريعة منبثون في أنحاء العالم الإسلامي، وحتى في أبعد دياره. ورحل في طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها سنتين، ودخل اليمن، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ في موطنه وغير موطنه، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث، أن يصبح إماما من أئمة اللغة العربية، مما جعله موئلا للطلاب في كل مكان نزل به وخاصة في مكة. وعني بوضع المعاجم والكتب في اللغة، ومن أهمها: مجمع البحرين في اثني عشر مجلدا ويقول في مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهري ومعجم له سماه " التكملة والذيل والصلة ". وعادة يفصل في مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة. ونشر مجمع اللغة العربية معجم " التكملة والذيل والصلة " المذكور في ستة مجلدات، وقد ضمنه ما فات الجوهري في صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام. وله كتاب في الأضداد، وكتاب سماه النوادر في اللغة روي فيه غرائب اللغة التي نص عليها علماء اللغة الأقدمون، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة. وحاول بأخرة من عمره أن يؤلف في اللغة معجما كبيرا سماه العباب الزاخر، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه. ولا شك في أن هذا الإنتاج الغزير يصور عالما لغويا كبيرا، وهو لم ينشأ في الجزيرة ولا في بلد عربي، وإنما نشأ في الهند، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفذاذ في العربية على مر العصور، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربي كان ملقي

---

(١) انظره في العقد الثمين ٤ / ١٧٦ والجواهر المضية ١/ ٢٠١ وشذرات الذهب ٥/ ٢٥٠ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٧ / ٢٦.

بكل مكان في العالم العربي والعالم الإسلامي الكبير. وممن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد[١] المعطي أحمد بن محمد الملقب بنحوي الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربي مصري تتلمذ في العربية على أبي حيان الغرناطي عالمها المشهور، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوي المعروف، ثم جاور بمكة إلي أن توفي بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض. ومن النحاة بعده محمد[٢] بن أبي بكر المرجاني المكي المتوفى سنة ٨٢٧. ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية. ولا ريب في أن دراساتها ظلت نشطة في العصر العثماني وحتى نهايته، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية في مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة.

وتنشط اليمن طوال هذا العصر في الدراسات اللغوية والنحوية، وهو يفتتح في سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوي يمني مهم، هو الهمداني[٣] المذكور فيما مر، وفيه يقول القفطي في إنباه الرواة "هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها". وسبق أن نوهنا بكتابة الإكليل وهو في سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين، طبع منه الأجزاء: الأول والثاني والثامن، وكذلك الجزء العاشر وهو في أنساب هندان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة. وله كتاب يسمي " اليعسوب في فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار " يقول القفطي عنه: إنه جيد جدا ومفيد للمتأدبين، ومر بنا ذكر كتابة صفة جزيرة العرب، وهو يحمل مقدارا كبيرا من اللغة والشعر. وله القصيدة الدامغة افتخر فيها باليمن على مضر، طبعت مشروحة بالقاهرة. وكان يكاتب ابن الأنباري وغيره من لغويي بغداد ويعترفون بفضله، ومن أجله رحل العالم النحوي المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعني بجمع ديوانه وتخريجه، إذ كان شاعرا مجيدا. وتمضي اليمن في نشاطها اللغوي طوال أزمنة الدول التي مرت بنا في زبيد وصنعاء وعدن وصعدة إذ كان أمراؤها يتنافسون في جميع العلماء بإماراتهم ومن حولهم: علماء العربية غيرهم،

---

(١) انظره في العقد الثمين ٣/ ١٤٩ والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٢٧٧.

(٢) العقد الثمين ١/ ٤٢٩.

(٣) إنباه الرواة ١/ ٢٧٩ وأخبار الحكماء ص ١٦٣ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨.

ويلقانا منهم في زبيد بـبلاط جيـاش بـن نجـاح زيـد بـن عطيـة الـذي سـبق أن تحـدثنا عـن حذفـه لعلـوم الأوائـل، وكـان يعـاصره في بـلاط الـصليحيين إسـماعيل[1] بـن إبـراهيم الربعـي النحـوي واللغـوي الـشاعر، مـن أهـل صـنعاء، وكـان مؤدبـا لأولاد الأمـراء الـصليحيين، ولـه قـصيدة في غريب اللغـة جعـل ترتيبهـا عـلى ترتيـب معجـم العـين المنـسوب إلى الخليـل بـن أحمـد وسـماها " قيـد الأوابـد " وجعـل لهـا شرحـا ضـمنه نـوادر وطرائـف مـن الأخبـار والأشـعار. ومـن نحـاة اليمن القاضي أبو بكـر اليـافعي المتـوفى سـنة ٥٥٢ ولـه في النحـو مختـصر سـماه المفتـاح، وسرعـان مـا تنجـب الـيمن نـشوان[2] بـن سـعيد المتـوفى سـنة ٥٨٠ ولـه في اللغـة كتـب مختلفـة، أهمهـا " شـمس[3] العلـوم و شـفاء كـلام العـرب مـن الكلـوم " في ثمانيـة مجلـدات، رتبـه عـلى حـروف المعجـم بحـسب أوائـل الكلـمات لا أواخرهـا متابعـا في ذلـك الزمخـشري في معجمـه أسـاس البلاغـة، وحـرص فيـه عـلى دقـة الـضبط بـالنقط والحركـات، وقـسم كـل بـاب فيـه أو حـرف قسمين: قسما للأسماء وقسما للأفعـال، وعنـي بـأن يـذكر فيـه كثـيرا مـن الكلـمات اليمنيـة التـي لم تـسجلها المعـاجم قبلـه، وأكثـر فيـه مـن شـواهد القـرآن الكـريم والحـديث النبـوي والـشعر والأمثـال. وكـان يعـاصره الحـسن[4] بـن أبي عبـاد المتـوفى سـنة ٥٩٠ ويقـول القفطـي إن لـه مختـصرا في النحـو مـشهورا في الـيمن يقـرؤه المبتـدئون.ويقـول الـسيوطي في البغيـة عنـه " إمـام النحـاة في قطـر الـيمن كانـت الرحلـة في علـم النحـو إليـه وإلي ابـن أخيـه إبـراهيم ". وكـان يعاصرهمـا عـلى[5] بـن سـليمان اليمنـي النحـوي المتـوفى سـنة ٥٩٩ ولـه مـصنف في النحـو سـماه كشف المشكل في مجلدين، وروى له ياقوت أبياتا يحصر فيها جموع التكسير.

وتـنهض الدولـة الرسـولية بعلـوم العربيـة واسـعة، وكـانوا يجزلـون العطـاء للعلـماء فقصدوهم مـن كـل فـج ومـر بنـا أن الفيروزابـادي[6] مجـد الـدين محمـد بـن يعقـوب المتـوفى سـنة

---

(١) إنباه الرواة ١/ ١٩١.

(٢) انظر مصادره في ترجمته بالفصل الثالث.

(٣) طبع الجزء الأول منه في بريل ثم طبع بالقاهرة.

(٤) انظره في معجم الأدباء ٨/ ٥٣ وانظر في ابن أخيه الآتي ذكره معجم الأدباء ١/ ١٦٤ وله في النحو مصنفات.

(٥) راجعه في معجم الأدباء ١٣/ ٢٤٣.

٦ راجعه في الضوء اللامع للسخاوي ١٠/ ٧٩ وفي العقد الثمين ٢/ ٣٩٢ وبغية الوعـاة والـروض العـاطر للـنعماني ٢/ ٢٤٩

٨١٧ بزبيد وفد على السلطان الأشرف، فأكرمه إكراما عظيما، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيرا ما عاد إليها، وجعلها في سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين: في الحديث وفقه مالك وفقه الشافعي، وزار المدينة المنورة وقرر باه ما قرر بمكة، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضي القضاة باليمن، وظل يليها أكثر من عشرين سنة في عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركته الوفاة. وكانت أكثر إقامته بزبيد، وأقام مدة بتعز، لما كان فوض إليه من التدريس بمدارس البلديتين. وله مصنفات كثيرة في الحديث وفي الفقه، ومرت بنا المنحة التي أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف في الفقه كتابه الإسعاد، وله في النحو كتاب سماه " مقصود الألباب في علم الإعراب ". أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره، ومن مصنفاته فيها مصنف في الترادف سماه: " الروض المسلوف فيما له أسماء إلى ألوف ". وله كتاب في غريب الذكر الحكيم سماه " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز " وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عدة مجلدات. ومن أروع أعماله معجمه النفيس " القاموس المحيط " الذي ألفه في زبيد، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو في أربعة مجلدات فقط، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثا قصيرا، وقد اتبع في ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهري فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة، لأن الحرف الأخير في المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة. وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادي، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة، وهي جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل، ولنفاسة المعجم تعهده يمني بصنع شرح مطول له هو السيد

والبدر الطالع للشوكاني ٢ / ٢٨٠ والشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ١/ ٣٢.

مرتضي[١] الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩٠م وقد اتخذ القاهرة مهاجرا له وموطنا منذ سنة ١١٦٧ هـ/ ١٧٥٣م وفيها ألف هذا الشرح الذي سماه " تاج العروس في شرح جواهر القاموس " وهو مطبوع في عشرة مجلدات، ويتلافي نواقص القاموس في المادة اللغوية مستعينا بلسان العرب لابن منظور وغيره في المعاجم المطولة، ويتوسع في الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية.

وهذه النهضة بعلوم العربية في اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين في صعدة وفيما يتبعهم أحيانا من البلدان مثل صنعاء وزبيد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين نشروا هذه النهضة في كل مكان. وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية، وكان الزيديون ينافسونهم في هذا المضمار والزبيدي نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوي لما كانت تحظي به العربية حينئذ من نشاط خصب.

ولم يكن هذا النشاط قاصرا على اليمن والحجاز بل كان عاما في حضرموت وعمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولا بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار، ثم يأخذ المتعلمون قسطا من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية، وهل من شك في أن كل ما نقرأ من شعر وأدب في هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية، ونتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيتوشي[٢]، وأصله شهرزوري تثقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهي لقطر الندي تأليف ابن هشام، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة في اللغة والنحو والدين. وكان في كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية

---

(١) انظره في فهرس الكتاني ١ / ١٩٨ والجبرتي ٢/ ١٩٦ والخطط التوفيقية ٣/ ٩٣ ونشر العرف لزبارة (طبع المكتبة السلفية)٢/ ٢١.

(٢) انظر فيه كتاب البيتوشي لمحمد الخال قاضي السليمانية (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلو ص ١٧ وما بعدها.

حتى نجد وقراها المتوغلة في الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين. ويدل على ذلك ما نجده في كتاب " لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب " من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمي عبد الرحمن بن أحمد من أهل بريدة إحدى القرى المتعمقة في بوادي نجد. وإنه ليكفي من نشاط الجزيرة العربية في هذا العصر فيما يخص الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد، ثم أهدت مجموعة المعاجم التي خلفها الصغاني والقاموس المحيط للفيروزابادي وتاج العروس للزبيدي فنشاطها اللغوي كان نشاطا جما مثمرا.

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغي أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية في علم من العلوم يصبح حقا مشاعا لكل البيئات الأخرى، ولذلك كنا نفاجأ من حين إلى حين بكتاب في بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة في شرح نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب، تلك التي قدم بها كمال الدين ميثم[1] بن علي بن ميثم البحراني المتوفى سنة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان، وفيه تحدث عن البيان في النهج ووزع حديثه على ثلاث قواعد، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعاني، والثالثة لدراسة الخطابة، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة.

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغي في الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدي اليمني يحيي[2] بن حمزة العلوي، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول في مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هي، المثل السائر لابن الأثير والتبيان في علم البيان لابن الزملكاني ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمصباح في البيان والبديع لبدر الدين بن مالك، ويشيد بعبد القاهر وكتابيه: " دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول: " أول من أسس في هذا

---

(١) راجع في ميثم كتاب سليمان البحراني عنه باسم السلافة البهية في الترجمة الميثمية.

(٢) انظره في البدر الطالع للشوكاني ٢/ ٣٣١ وكتابه ط الطراز " نشرته دار الكتب المصرية في ثلاثة مجلدات سنة ١٩١٤ وراجع كتابنا: البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٠.

العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير، علم المحققين عبد القاهر الجرجاني " غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفا، إنما اطلع على شذرات منهما في كتابات البلاغيين. وقد ذكر السكاكي مرارا، مما يدل على أنه اطلع على كتابه " المفتاح " ويقول إن الحافز الذي دفعه على تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسر الزمخشري المسمي بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم في البلاغة كتابا، فاستجاب لهم، وأثر ابن الأثير والفخر الرازي والسكاكي بين في الكتاب، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات، وسمي كل فرع من هذه الفروع فنا، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز، وسلك في الفصاحة والبلاغة علمي المعاني والبيان، ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن. ونصوص الشعر والنثر، ويستوحي الفخر الرازي فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير. ويطيل في الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية، ويتضح هنا تأثره بعلم أصول الفقه. ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوي أو المرسل وعلاقاته ويسمي المجاز العقلي باسم المجاز المركب وينقل عن الرازي بعض أحكام المجاز. وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطيل مستضيئا بابن الأثير في بيان وجوه الحسن في أفراد الحروف والكلمات. ويتحدث عن البلاغة مهتديا بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازي من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوط وبعضها غير منقوط ويذكر آراءه في معنى الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز. ويخرج إلى بيان مواقع الغلط في اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه. ويترك الفن الأول هو المقدمات إلى الفن الثاني في الكتاب، وهو المقاصد، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية، ويعرض أبواب البيان مبتدئا بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل، ويفصل القول في الاستعارة وتعريفاتها عند الرماني والفخر الرازي وابن الأثير، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها

بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر، ويتحدث عن أقسامها على هدي الرازي وبدر الدين بن مالك، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة، أما باعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول. ويخرج إلى التشبيه، ويذكر أن ابن الأثير أدخله في المجاز، ويفصل القول فيه، متأثرا بالرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك، ويجعله أقساما: قسما يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف المحسوسة، وقسما يشترك فيه المشبه المشبه به في الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام والليونة والصلابة، وقسما يشترك فيه المشبه والمشبه به والأوصاف العقلية. ويؤكد أن مدار الجمال في التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف. ويعود إلى تقسيمات أخرى في التشبيه باعتبارات مختلفة، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام: مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب،وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طردا وعكسا وباعتبار أداته إلى مظهر ومضمر. ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها، ويقف مع ابن الأسير في عدها ضربا من المجاز قائلا إنها " اللفظ الدال على معنيين مختلفين: حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح " ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل. وينتقل إلى الكلام عن علم المعاني، مازجا فيه بين مباحث الرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملكاني، وقد ذكر فيه- على هدي الأخير- المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفي، وأيضا ذكر على هداه وهدي ابن الأثير صور الالتفات. وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان: قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة.

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصورا من المبالغة، وهو في كل ذلك يستلهم ابن الأثير. وفصل في علم البديع، على هدي بدر الدين بن مالك، وجعله نوعين: نوعا ي تعلق بالفصاحة اللفظية، وينتظم عشرين محسنا بلاغيا من مثل الجناس والترصيع والألغاز، وعد من هذا النوع الطباق ومرده إلى المعنى، ونوعا ثانيا يتعلق بالفصاحة المعنوية

وينتظم خمسة وثلاثين محسنا بلاغيا. وينتقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب، وهي الفن الثالث من فنونه، وهو فن خاص ببيان البلاغة في القرآن الكريم وآياته،وهو يوضح روعة فصاحته في حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعاني والبيان البديع، ويتحدث في إفاضة عن إعجازه البلاغي وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية.

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوي البديعيات وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح، وتوزع على المحسنات البديعية في أبواب متلاحقة، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات في جميع الأقطار العربية. وممن شارك في هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم[1] الحسيني من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته:

حُسْنُ ابتدائي بذكري جِيرة الحَرَمِ له براعةُ شوقٍ تستهلُّ دمي

وألف عليها شرحا سماه " أنوار الربيع في أنواع البديع " وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية، وذكر في مقدمته شرحه أسماء من سبقوه إلى من البديعيات والتأليف محاكيا بذلك أصحاب البديعيات وشروحا قبله.

وعلي النحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة في الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب لعبد[2] الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي المكي قاضي جدة المتوفى حوالي سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح بابا لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبي مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة

---

(١) انظره في البدر الطالع ١/ ٤٢٨ وأمل الآمل ص ٥٢.

(٢) راجع مقدمة محقق الكتاب: الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح، وما بها من مصادر عن المؤلف.

ثم بعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة، ويعقد بابا ثانيا يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبي من الشعراء وسرقات الشعراء منه. ثم يسوق خاتمة في بيان وجوه من محاسن المتنبي في إرسال الأمثال والحكم وينهيه بالثناء عليه وعلي شعره. والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمي المكي وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة في بيان محاسن شعره ومعايبه، وهو يشيد به في فواتح كتابة إشادة بالغة وكذلك في تضاعيفه وفي خاتمته ونهايته. ومن أطرف صحفه الصحف التي تحدث فيها عن السرقات إذ عرض فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى زمنه.

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام

ما قلناه عن التراث اللغوي والنحوي والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام، فهو تراث مشترك يدرس في كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس في كل أنحاء العالم العربي، ولا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن. ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون بأخذه عن علماء بلدهم، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابهين في كل بلد وخاصة في العراق والشام ومصر، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا في أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد المعرفة في علم بعينه أو في مجموعة من العلوم.

وجعل الحج والزيارة النبوية مكة والمدينة قبلتين للطلاب والعلماء جميعا، على نحو ما مر بنا في علوم العربية فكان يفد عليهما أنبه العلماء في العالم الإسلامي، وكثيرا ما ينزلوا بهما سنة أو سنوات، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة. ونضرب مثلا الفقه بالجويني[1] عبد الملك بن عبد الله النيسابوري شيخ الإسلام العلامة الأصولي الفقيه المتكلم سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا في المدينة ولذلك سمي إمام الحرمين، وكان يدرس هناك ويفتي ويجتهد في نشر العلم بفقه الشافعي، وكان علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا اسمه في موطنه وحين نزل بغداد ولقي علماءها وناظروه، ويقول عنه: وقف علماء المشرق والمغرب بالعجز يديه، ويقول السبكي: " لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقه والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقا.. وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا، مما جعل اسمه يطير في الأقطار وذكره يملأ الديار ". ومن تصانيفه في الفقه الشافعي النهاية في الفقه ويقول السبكي: " لم يصنف في مذهب الشافعي مثلها فيما أجزم به " ويذكر في أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتبا لإرشاد كما يذكر له في أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى، ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه

---

(١) انظر مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم الخاص بإيران.

والأصول والكلام في مكة والمدينة فحسب، بل كان يحضره أيضا الوافدون على البلدتين من أقطار العالم الإسلامي، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال. وعاد إلى نيسابور، فبني له نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي مدرسة ليلقي بها محاضراته من مدارسته المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقته تضم نحوا من أربعمائة طالب، وحين توفي طافوا ببلده ينوحون عليه وكشروا المحابر والأقلام حزنا وجزعا. والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله، يسمي مثلا إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي طائفة كبيرة. وكذلك غيره من كتب[1] التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووي ومصنفات كثيرة.

ونلتقي في مكة بمحدث من كبار المحدثين في العالم الإسلامي هو محب[2] الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة. وهي مسقط رأسه وموطنه، نشأ بها، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن على بن المقير، ومما قرأه عليه سنن أبي داود عن أبي الفضل بن سهل الإسفراييني وعن الخطيب البغدادي وسنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على عن البزدي عن عبد الرحمن بن محمد الدوني. وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلابد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ نابهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبي داود عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادي، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عمن أخذه لصحة السند وللثقة بالرواية، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة، وقد

---

(١) راجع مثلا في إمام للحنفية بالمسجد الحرام المنهل الصافي ١ / ٤٠٤ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن على بن يوسف، وفي إمام للمالكية العقد الثمين ٤ / ٣٢٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي، وفي إمام للشافعية العقد الثمين ١ / ٢٨٠ وهو الرضي الطبري المكي، وفي إمام للحنابلة العقد الثمين ٧/ ١١٩ وهو ابن الطباخ الحنبلي.

(٢) انظره في طبقات الشافعية الشافعية للسبكي ٨ / ١٨ والمنهل الصافي ١ / ٣٢٠ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٤ وشذرات الذهب ٥/ ٤٢٦ ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٤ والنجوم الزاهرة ٨/ ٧٤.

يقولون سمعه من شيخه، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفي أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة. وقد يجمعون الحسنيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة، فيقولون: سمعا وقراءة. وقرأ محب الدين الطبي صحيح البخاري على عبد الرحمن بن حرمي سبط السلفي الحافظ المضهور، وقرأه أيضا على عمين لأبيه وأخل له. وقرأ جامع الترمذي على يعقوب بن أبي بكر الطبري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبي الفضل المرسي، وقرأ الأربعين للحافظ الثقفي على أبي السحن بن الجميزي وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفي، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفراني، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدي عن ابن البطي، وقرأ على ابن العديم ورحيان السكيني وشيخ الحرم نجم الجين التبريزي جزء الأنصاري. وكان يعني بالفقه، وقرأ كتاب التنبيه المشهور في الفقه الشافعي والذي ألفه أبو إسحق الشيرازي على ابن سكينة وتفقه عليه. وسمع بعض كتاب الغريب لأبي عبيدة عن شهدة، وهي إحدى المحدثات الكبيرات. وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التي أخذها عن العلماء، فيعقبون على ما سبق بقولهم: وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها. والحرم المكي بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية. ونقف قليلا عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فمنهم القاضي جمال الدين الطبري قاضي مكة قرأ عليه في سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوي. وهذا يعني أنه كان يدرس في المدينة أحيانا.

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدوي والقطب القسطلاني المصري ثم المكي ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضي المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطي المصري المشهور وعلم الدين البرزالي الدمشقي المصري وقاضي مكة نجم الدين الطبري وقطب الدين الحلبي وأبو حيان الغرناطي وخلق كثير، كما يقول مترجموه، آخرهم وفاة عثمان بن الصفي الطبري، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفي. وأساتذته وتلامذته هم أعلام الحديث في عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة، غير من انتفع به في الفقه الشافعي، واستدعاه

المظفر السلطان الرسولي مرارا، وسمع عليه بعض مروياته وتآليفه ولابد أنه كان يلقي في أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزبيد. ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة، منها في الحديث كتاب الأحكام الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها، وهو في خمسة أجزاء وكتاب الأحكام السوطي مجلد كبير، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين، واختصره في كتاب سماه العمدة،وكتاب الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع، وكتاب ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، وكتاب السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، وتقرب المرام في غريب القاسم بن سلام، وكتاب القرى من ساكن أم القرى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك، وصفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها، غير كتب أخرى.

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبي إسحق الشيرازي في عشرة أجزاء ونكت كبري عليه في أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه في تلخيص التنبيه، وكتاب مختصر المهذب، ومجلدان. ومما يتصل بالقرآن الكريم: القبس الأسني في كشف الغريب والمعني، والكافي في غريب القرآن، وكتاب التحفة المدينة، وكتاب مرسوم المصحف العثماني المدني. وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردي. ومحب الدين الطبري، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التي كانت منبثة في الحجاز والتي كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات في الجزيرة العربية. ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها، وخاصة في رواية الحديث، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيري عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها ويرى جلة العلماء عنهن الحديث النبوي.

وطبيعي أن تنشط دراسة التفسير في مكة مع دراسة الحديث، وقد رأينا محب الدين الطبري بجانب عمله في الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفي قبل إتمامه. وقد صنف بمكة تفسير من أعظم التفاسير،

صنفه الزمخشري في أثناء مجاورته بها وهو " الكشاف " ومع أنه ضمنه آراءه الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته، ويلقبه الفاسي المالكي بأنه " الإمام الكبير في التفسير.. كان إمام عصره غير مدافع " ويقول ابن خلطان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله. وكان يمليه في مكة على الطلاب، وممن رواه عنه قاضيها أبو المعالي يحيي ابن عبد الرحمن الشيباني، أخذه عنه بالحرم المكي الشريف، وظل العلماء بعد الزمخشري يعنون بالكشاف في التفسير، كما يعنون برواية كتب الزمخشري المشهورة وإلقائها على الطلاب والطالبات بالحرم المكي، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعرية خاتمة الرواة عن الزمخشري وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه، ويقول الفاسي في العقد الثمين من طريقها واقع لنا حديثه.

ومنذ انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم على الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره، وظلت قراءة كل منهما تتداول في بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل، وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيي المكي المتوفى سنة ٣٤٤ وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء في مكة والمدينة. وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن.

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطا من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثوري وابن عيينة، وخلفه تلميذه عبد الرازق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روي الحديث أحمد بن حنبل وغيره، وخلفه أبو قرة موسى بن طارق. وكان الغالب في اليمن حتى القرن الثالث مذهبي أبي حنيفة ومالك، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعي، وفي مقدمتهم موسى بن عمران المعافري وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعي. ويوقل الجعدي في كتابه " طبقات فقهاء اليمن ": وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية في صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة

٤٣٧ وهو الذي نشر مذهب الشافعي في مخلاف الجند وفي صنعاء وعدن وزبيد، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقه علم القراءات. وكان يعاصره الصعبي أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزني المصري صاحب الشافعي- كما يقول الجعدي- في أربع سنوات مقابلا الكعبة الشريفة. ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعي وبيان مذهبه. ولما ألف أبو إسحاق الشيرازي كتابيه: المهذب والتنبيه في الفقه الشافعي، وأخذهما عنه حسين بن على الطبري وأبو نصر البندنيجي وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنهما الكتابين، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عبدويه الذي سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زبيد، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدي. وينشط الفقه الشافعي أو المذهب الشافعي في الفقه بتهامة وزبيد نشاطا واسعا، ويكثر فقهاؤه، ومن أهمهم يحيي[1] بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمراني وزيد بن عبد الله اليفاعي، وقد قرأ كتابه التنبيه للشيرازي على موسى بن على الصعبي، وحفظ كتاب الشيرازي: " المهذب " على عبد الله بن أحمد الهمداني، وكذلك كتابه " اللمع " وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشي تعليق الشيخ الشيرازي في أصول الفقه مع ملخصه، وحضر دروس فقهاء كثيرين، وقرأ على القاضي مسلم بن أبي بكر الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغي، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذي، ومما قرأه ونص عليه الجعدي شروح المزني والمجموع للمحاملي والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لبي الطيب والعدة للقاضي حسين بن على الطبري تلميذ الشيرازي كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي على السنجي وكتاب التبصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح.

وكان الفقهاء في اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية، وكان يحيي بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة ويناظر الفقهاء في مذهب

---

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية) ٧ / ٣٣٦ وشذرات الذهب ٤/ ١٨٥.

الأشعري المتكلم. وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة، وله مصنفات مختلفة، من أهمها في الفقه الشافعي كتابه الزوائد ألفه في أربع سنوات وكتابه البيان ألفه في ست، وكتابه استخراج المسائل المشكلة في المهذب.

ومن الطريف أن الجعدي في كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالي ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا في بيت بعينه، من ذلك اسرة بني أبي عقامة، ويقول عنهم الجعدية: " وفضائل بني أبي عقامة مشهورة، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة" ومن أهمهم أبو الفتوح[1] عبد الله بن محمد بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده على وعلي أبي الغنائم الفارقي، وله مصنفات جيدة منها كتاب الخناثي وفيه نفائس حسنة، قال النووي: لم يسبق إلى تصنيف مثله، وعقد العماد الأصبهاني لهذه الأسرة فصلا في الخريدة، ويقول الجندي في كتابه السلوك عن أحدهم، وهو القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة: " له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشنعها أصحاب الشافعية "وقد صار هذا الكتاب في اليمن قليل الوجود، لأن الحنفية اجتهدت بتحصيله وإذهابه"[2].

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم في القرن الخامس في اليمن القاضي محمد بن أبي عوف، ويعقد لهم الجعدي فصلا قصيرا في كتابه يذكر أسماء طائفة منهم، ويقف عند القاضي المذكور، ويقول إنه صنف كتابا بعنوان " القاضي " وهو مشهور في اليمن والعراق عند الحنفية. واشتهر منهم في القرن السابع أبو بكر عيسى المعروف بابن حنكانش[3] المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رياسة الحنفية في اليمن، ويقال: لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة هناك، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولي على بناء مدرسة للحنفية بزبيد وكان قد بني بها مدرسة للشافعية.

---

(١) انظره في طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكي ٧ / ١٣٠ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٦٢ص وقسم الشام من كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني ٣ م ٢٤٦.

(٢) كتاب (السلوك- النكت) للجندي ص ٦٣٢.

(٣) العقود اللؤلؤية للخزرجي ١ / ١٥٥.

وكان يقابل فقه الشافعية في تهامة وزبيد فقه الزيدية في صعدة من قديم، وكان الأئمة الرسيون كلما غلبوا على بلد في اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم، حتى إذا تمت لهم الغلبة في العصر العثماني أشاعوا مذهب الزيدية، غير أن مركز الشافعية في زبيد وتهامة ظل ثابتا إلى اليوم. ومعروف أن الفقه الزيدي نشأ مبكرا. فإن زيد بن على زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذي أرسي قواعده في كتاب فقهي له اشتهر باسم المجموع الفقهي[1]، وهو أساس الفتوي والأحكام القضائية عند الزيدية، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النضير للحسين الخيمي في أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضا بشرح شرف الدين السباعي، والشرحان مطبوعان في القاهرة. وعني أئمة الزيدية في اليمن- منذ تأسيس الإمام الهادي إلى الحق يحيي بن الحسين دعوتهم- بهذا الكتاب فهو عمدتهم في الفقه والتأليف فيه، وللإمام الهادي كتاب يسمي كتاب جامع[2] الأحكام في الحلال والحرام، ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه في اليمن، ونذكر من كتبهم أطرافا، فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزوة، له فتاوي كثيرة مجموعة. ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلي شرح مجموع الإمام زيد بن على. ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيي بن حمزة صاحب الطراز الذي تحدثنا عنه في النشاط البلاغي له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في ثمانية عشر جزءا. ومن ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيي المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طبع مع تخريج أحاديثه في خمسة أجزاء، وله أيضا كتاب الأزهار في فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه " الغيث المدرار ". وهناك كثيرون من علماء الزيدية، من الأمراء وغيرهم، تعمقوا في الفقه الزيدي وألفوا فيه وحوله كتبا ومصنفات مختلفة، ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية في القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه "

(١) انظر تاريخ الدب العربي لبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٣٢٣.

(٢) بروكلمان ٣ / ٣٢٨.

العواصم والقواصم " في أربعة مجلدات، واختصره في كتابه " الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم " وهو مطبوع.

وبجانب هذا النشاط الفقهي في اليمن كان هناك نشاط واسع في علم الحديث، وهو يبدأ في الحديث كما بدأ في الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور في السنن، ونمضي بعده في كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعاني كتاب المنتقي في السنن،قلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حمل عنه الحديث، وكثيرا ما يقول الجعدي عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخاري، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذي أو صحيح مسلم أو سنن أبي داود أو سنن النسائي. ومن حين لآخر نجد الجعدي ينعت الفقيه الذي يترجم له بأنه الحافظ المحديث، أو يقول سيف السنة. وبنفس النشاط في هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط في روايته وللإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب في الحديث يسمي الشفاء، وللإمام القاسم المتوفى سنة ١٠٢٩ في الحديث كتاب الاعتصام.

وعنيت اليمن بالتفسير كما عنيت بالحديث والفقه، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس. وهو باب هذه الحركة، ومضي اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير، حتى إذا ظهر تفسير الطبري أقبلوا على تداوله، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه. ومر بنا نشاط الفيروزابادي لعهد الرسوليين في هذا الاتجاه. ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه، وذكر للإمام الهادي مؤسس العقيدة في اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم. ولأبي التفح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد، وللإمام المهدي محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن. ولعل أروع تفسير صنفته اليمن في عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد[1] ابن على الشوكاني

---

(١) انظره في كتابه البدر الطالع ٢/ ٢١٤ وترجم له ابن زبارة في كتابه (نيل الوطر من تراجع اليمن في القرن الثالث عشر " وقال إنه أستاذه.

المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م سماه "فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في التفسير" وكان قد بدأ حياته زيديا ونزع إلى الدعوة الوهابية، وهو يعد إماما مجتهدا، وله عشرات المصنفات في الفقه والأصول علم الكلام واللغة.

واهتمت اليمن من قديم بالقراءات، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدين، وأذاعها في اليمن، ومن أعلام القراء هناك زيد[1] بن الحسن الفايشي المتوفى سنة ٤٥٨ وكان عالما بعلوم كثيرة، منها التفسير، ومنها القراءات أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن، وعليه تفقه يحيي بن أبي الخير المار ذكره. ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شداد البرعي على بن أبي بكر الزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن، وكانت إقامته بزبيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث، توفي سنة ٧٧٠ وخلفه أحمد بن محمد الأشعري العبدلي شيخ زبيد في القراءات، ويقول ابن الجزري: لما دخلت اليمن لازمني كثيرا وسمع مني نصف كتاب النشر وكتبا أخرى، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر[2]، ومعروف نشاط ابن الجزري في القراءات، ولا شك أن اليمن أفادت منه كثيرا. وهذا النشاط في القراءات كان يمتند ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية.

وعنيت اليمن في هذا الصعر بالمباحث الكلامية، وظلت عنايتها بها متصلة، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين منزعان: منزع أشعري ومنزع أهل السنة، وكانت الكثيرة تنزع المنزع السني، نجد ذلك واضحا في تأليف الكتب التي تعني بنقض آراء المعتزلة، مثل " كتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة " للمراغي[3] ومثل كتاب يحيي ابن أبي الخير الذي تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء، وقد جعل عنوانه: " الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار " وفي مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين

---

(١) راجع ترجمته في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ والسبكي ٧/ ٨٥.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء لآبن الجزري ١/ ١٠٣.

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣.

جعفر بن أحمد بن عبد السلام، أحد علماء الزيدية، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأي المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم. وحاول يحيي بن أبي الخير تفنيد آرائه الاعتزالية، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم في التحذير في من القدرية. ولم يكد يقرأ رسالته شمس الدين حتى نقضها بكتاب سماه " الدامغ للباطل من مذهب الحنابل " فأثار حفيظة يحيي ابن أبي الخير، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا، وأضاف إلى المتعزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم، مما جعل الشريف العثماني الأشعري يناظره ويجادله في مذهب الحنابلة أهل السنة[1].

ومعروف أن زيد بن على زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسة تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا ينتظمون في المعتزلة، مما جعل الاعتزال يستقر في مباحثهم، كما جعلهم يكثرون من هذه المباحث، ومن يرجع إلى الجزء اللاث من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسي جد الإمام الهادي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضي عبد الجبار أكبر معتزلي في نهاية القرن الرابع الهجري شرحا مطولا، وللإمام الهادي كتاب المسترشد في التوحيد، وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر في التوحيد، وتتوالى كتب كلامية كثيرة في بيئة الزيدية، ومن ذلك شرح القلائد في علم الكلام للإمام المهدي أحمد بن يحيي المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس في علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ ولم تؤلف هذه البيئة في الاعتزال وحده، بل ألفت أيضا كتبا في رجاله، وكتاب ابن المرتضي في المعتزلة مشهور.

ولم تكن حضرموت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية في اليمن والحجاز، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يفدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقينه، ويلقانا منهم كثيرون في كتب التراجم، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم في

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠.

تريم وشبام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت في تلقينه للشباب. وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين، بل مهم من كان يرحل في طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التي تتيح له روايتها ونشرها. ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي اليمني المتوفى سنه ٥١٤ كان يغص بالفقهاء من حضرموت[١]، ويذكر الجعدي من تلاميذ الفقيه يحيي بن أبي الخير الذي مر بنا في الحديث عن فقهاء اليمن محمد[٢] بن عبد الله الحضرمي من تريم حاضرة حضرموت وأيضا محمد بن مفلح الحضرمي وهو الذي طلب إليه تأليف كتابه " استخراج المسائل المشكلة في المهذب " لأبي إسحق الشيرازي وأجابه إلى طلبه[٣].

ويذكر الجعدي من فقهاء حضرموت أبازنيج وأبا جحوش وأبا أكدر قاضي تريم وقد جمع بين الفقه والقراءات السبع[٤]، وفي كتاب الجعدي فقيهان من شبوة بحضرموت هما عيسى بن مفلح وأحمد بن سليمان[٥]. ويقول المؤرخون إنه قتل كثير من فقهاء حضرموت وقرائها في الحملة التي وجهها نائب توران شاه من عدم إلى حضرموت. ويشيد السبكي بقطب[٦] الدين الحضرمي شارح المهذب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول " تفقه به خلائق " وله مصنفات كثيرة. وفي ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك. وكانوا يعنون إلى جانب ذلك بالحديث والتفسير. ويحدثنا السقاف في كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيريين ترجم لهم، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى في عدن سنة ٦٩٥ وعلي بن أبي بكر السقاف المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلي بن عبد الرحيم باكثير المتوفى سنة ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢. وممن ذكرهم السقاف من المحدثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعز في سنة ٨٨٩ ودق رحل إلى اليمن

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣.

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩.

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٠.

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٢٠٢.

(٦) طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ١٣٠.

ومكة وكان يقرأ للناس الصحيحين، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧. وكثيرا ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون. وممن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن ابن على السقاف المتوفى سنة ٩٢٣. ومن مقرئيها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد في القراءات الثمان، وقد أشاد به وبكتابه ابن الجزري، وقال إنه توفي في سنة ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ المصريين[1] وممن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢ وقال: له مختصر نهاية الناشري في القراءات وشرح الجزرية. ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات في علم التوحيد، وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة.

وهذه الصورة من النشاط العلمي لحضرموت هي صورة ظفار وعمان والبحرين، ونجد لظفار فقيها ينسب إلى مينائها مرباط هو مفتيها محمد بن على القلعي، ويقول الجعدي:له مصنفات حسنة، منها قواعد المهذب وغيره[2]. ولا ريب في أن النشاط العلمي في دراسة الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدما في عمان لزمن بني مكرم وبني نبهان، أما في نزوي عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان في العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره، وقد عنوا طويلا بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي الإباضي التوفي سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة في الحديث النبوي، وانصبت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف في عقيدتهم الإباضية ، وفرقتهم، كما قدمنا أكثر فرق الخوارج اعتدالا، وأقربها إلى الجماعة، ونصب إمام المسلمين عندهم واجب، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه، ومر بنا حديث عن عقيدتهم في الفصل الماضي.

---

(١) انظر طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٤٦ وكتابه: " النشر في القراءات العشر ١/ ٩٣.

(٢) الجعدي ص ٢٢٠.

وكانت البحرين مثل عمان نشطة في دراسة علوم الدين الحنيف، وكانت تدخل في دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة، فكان طلابها وعلماؤها لا يزالون ذاهبين آيبين من العراق وإليه. وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين، ويتخذها مقاما له موطنا، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر. وكانت علوم الشريعة مطروحة في كل مسجد، وظلت حلقاتها قائمة، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصرو له مصنفات مختلفة في المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازاني وكتاب إيساغوجي[1] وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلي مع الوهابيين، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الستة. ومنذ دخلت الأحساء في المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف، غير أن هذا لا يدخل في عصرنا إنما يدخل في العصر الحديث.

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة في البلاد العربية، فلقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس في قرى نجد، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في قريته تريم ست عشرة سنة، وأنه قرأ عليه فيها صحيحي البخاري ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمي في قرى القصيم حيث تتلمذ عليه في علم الفقه والتفسير سبع سنوات. و رحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى العراق وتتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود، كما مر في الفصل الماضي، على نشر عقيدته. وهي ليست عقيدة جديدة بل هي عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية. وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته في محاضراته ومؤلفاته، ومر بنا كتاب التوحيد، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعرفو والنهي عن المنكر وكتاب المسائل

---

١ ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٨.

وكتب الثلاثة الأصول في معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية. وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها: جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. واتسع التأليف في الدعوة مبكرا وراء نجد، إذ نجد محمد بن على الشوكاني اليمني يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار منتقي الأخيار.

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ في الجزيرة العربية كما نشطت في كل بلد عربي، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط في الحجاز، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقي " أخبار مكة" وهو كتبا مبكر. وأهم المصنفات التي تلقانا عنها في هذا العصر مصنفات الفاسي[١] أبي الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكون علميا حتى أصبح من علمائها الأفذاذ، وسرعان ما تحول مدرسا يفيد الطلاب من علمه. وتقلد منصب شيخ الحرم المكي إلى أن توفي سنة ٨٣٢ وعني بتاريخ مكة، فصنف فيها كتابه " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " في مجلدين، وهو مطبوع، وأهم منه كتابه " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " الذي نرجع إليه، وهو في ثمان مجلدات، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخيا وجغرافيا ثم أجمل السيرة النبوية، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئا بالمحمدين، ولم يترك حاكما ولا عالما ولا مؤذنا ولا مجاورا بمكة ولا شاعرا إلا أسهب في الترجمة له، وهو بذلك تاريخ كامل لمكة: سياسي وثقافي وأدبي وحضاري. وللديار[٢] بكري المكي المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان " الخميس في أحوال أنفس نفيس " في مدلدين كبيرين، طبعت مرارا، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة. وكان يعاصره قطب الدين[٣] النهروالي المكي، وكان مفتيا ومدرسا، على أن توفي سنة ٩٩٠ وله " الإعلام بأعلام بلد الله الحرام " تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه في عهد العثمانيين، طبع مرارا. ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحي[٤] بن العماد الحنبلي المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة. ومن مؤرخي مكة

---

(١) انظر في الضوء اللامع ٧ / ١٨ والشذرات ٧/ ١٩٩ ومقدمة كتابه " العقد الثمين " وقد ترجم لنفسه فيه انظر ١ / ٣٣١.

(٢) راجعه في الشذرات ٨/ ٤١٩ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٣) انظره في الشذرات ٨/ ٤٢٠ والنور السافر ص ٣٨٣ والبرد الطالع ٢/ ٥٧.

(٤) راجعه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ٢/ ٣٤٠

المتأخرين أحمد زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٦م وله: " خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام ".

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفي مقدمتهم محمد بن الحسين بن زبالة الذي ألف كتابا في تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخي العصر الذي نحن بصدده، بل قل من أشهرهم نور الدين السمهودي[١] المصري المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، والكتاب دائرة معارف كبيرة في جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طبع بمصر في مجلدين وطبع مختصر له باسم " خلاصة الوفا ". ومن مؤرخي المدينة ابن خضر المدني المتوفى في أوائل القرن الثاني عشر، وله مخطوطة في طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية. وجاء بعده جعفر البرزخي[٢] المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوي، طبعت بمصر مرارا منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل.

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوي الذي صنف كتابا في سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيي بن الحسين مؤسس المذهب الزيدي باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتابا في أخبار المنصور بالله القاسم الرسي المتوفى سنة ٣٩٣ لهجرة. وتنشط الكتابة التاريخية باليمن، ويلقانا من مؤرخيها جايش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب " المفيد في أخبار زبيد " فقد ولم يصل إلينا، غير أن عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره في كتاب سماه " مختصر املفيد في أخبار زبيد " وقد طبع في القاهرة. ويشتهر عمارة[٣] بكتاب له في تاريخ اليمن نشره كاي ثم نشره في القاهرة، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره، وله كتاب سماه " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " تحدث فيه عن الوزراء في آخر العهد بالفاطميين، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه، وطبع هذا الكتاب بشالون في آخر القرن الماضي وطبع معه ديوانه. ومر بنا ذكر

---

(١) انظره في الضوء اللامع ٥/ ٢٤٥ والشذرات ٨/ ٥٠ والبدر الطالع ١/ ٤٧٠.

(٢) راجعه في سلك الدرر ٢ / ٩ والجبرتي ١/ ٣٦٣.

(٣) انظره في ابن خلكان ٢ / ٤٣١ والخريدة قسم الشام ٣ / ١٠١ وستأتي مصادر ترجمته بين الشعراء.

طبقات فقهاء اليمن مرارا، وهو لعمر[١] بن على بن سمرة الجعدي المتوفى لأواخر القرن السادس الهجري. وللقاضي حميد بن[٢] أحمد المحلي المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما " الحدائق الوردية في سير الأئمة الزيدية " و" محاسن الأزهار في فضائل العترة الأخيار " ومن مؤرخي اليمن الجندي[٣] بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله " السلوك في طبقات العلماء والملوك " ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف، ومر بنا ذكر السلطان الأشرف الرسولي وكتبه، وللسلطان الأفضل عباس[٤] الرسولي المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب " العطايا السنة والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ". ومن مؤرخي اليمن اليافعي عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان في التراجم العامة وهو مطبوع. ويلقانا مؤرخ كب ير هو أبو الحسن الخزرجي[٥] المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدثين في عصره وقد رتب كتابه ترتيبا زمنيا محكما، وترجم للسلاطين الرسوليين ترجمات دقيقة. وهو لا يعرض في الكتاب التاريخ السياسي فحسب بل يعرض أيضا التاريخ الثقافي والحضاري عرضا مفصلا، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين، وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الديبع[٦] أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدي، وكان محدثا كبيرا درس الحديث في الجامع الأعظم بزبيد وتوفي سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة، منه قرة العيون بأخبار اليمن الميمون حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجي في دولة الرسوليين، ثم أضاف إليه دولة بني طاهر التي خلفتهم ويعد أول من عني بالتاريخ

---

(١) انظر التعريف به وبكتابه مقدمة المحقق له: فؤاد السيد.

(٢) تاريخ اليمن للجرافي ص ١٢١.

(٣) انظره في إعلان التوبيخ للسخاوي ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية.

(٤) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجي وفي الشذرات ٦/ ٢٥٧ وفي هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨.

(٥) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٥/ ٢١٠ والشذرات ٧ / ٩٧.

(٦) انظر في ابن الديبع ترجمته لنفسه في آخر كتابه بغية المستفيد والنور السافر ص ٢١٢ والشذرات ٨/ ٢٥٥ والبدر الطالع ١/ ٣٣٦ والكواكب السائرة ٢/ ١٥٨.

لها، من كتبه التاريخية بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلا حتى المائة التاسعة للهجرة. ومن الكتب الجيدة التي ألفت في القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن). وتلقانا بعده كتب كثيرة في أئمة اليمن وفي الحكام العثمانين، من ذلك ما كتبه الجرموزي المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم، وقد سماه " الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية " وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتابا سماه " النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة ". وصنف يحيي بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني في أواخر القرن الحادي عشر تاريخا لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أنباء الزمن في أخبار اليمن ". وليوسف بن يحيي الصنعاني المتوفى حوالي سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب " نسمة السحر فيمن تشيع وشعر " ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره. ولمحمد بن على الشوكاني العالم النابه كتاب في التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره في القرن الثالث عشر سماه " البدر الطالع " وهو أحد المراجع التي يتكرر ذكرها في هذا الجزء. وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات في أخبار اليمن للهمداني، ومثل النور السافر في تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيل عليه جمال الدين الشلي الحضرمي بكتاب سماه " السناء الباهر بتكميل النور السافر ".

ولنجد كتب تاريخية مختلفة في الحقب المتأخرة منها " روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام " لحسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠ من وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال في سبيل الدعوة، وهو يكثر من السجع في كتابه. ويليه في الأهمية كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٣ من وهو تاريخ على السنوات يبتدئ بسنة ١١٥٨ هـ/ ١٧٤٤ من وينتهي بسنة ١٢٦٨ هـ/ ١٨٥١ من أي من حين نزول محمد بن عبد الوهاب في " الدرعية " ووضع الأمير محمد بن سعود يده في يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركي. وضمن الكتاب أحداثا سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم في الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة، وأسلوب الكتاب مرسل

خال من السجع. ويلي الكتابين السالفين في الأهمية كتاب " عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر " لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يبتدئ من حين انتهي ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢١ من موزعا حديثه التاريخي على السنوات.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حيا يجري على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر، ومعروف أنه منها نبع قديما وأن ينابيعه كانت تمتد في شمالي الجزيرة وشرقيها وغربيها، أو قل في الجزيرة جميعها، باستثناء اليمن في العصر الجاهلي أو بعبارة أدق باستثناء أعماقها، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت في التعرب واستخدام الفصحى، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بإزاء الحجاز وفي نجران وفي حضرموت وبين أزد عمان. وتم تعرب اليمن سريعا بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقى منها يتحدث الحميرية.

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذي نؤرخ له والذي يبتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء في كل أنحاء الجزيرة، وكانت الحجاز- وخاصة مكة- دارا كبيرة للشعر والشعراء، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها أمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواما طويلة فسحب فإن ذلك أكثر من أن يحصي أو يستقصي، بل أيضا أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها. وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقيم فيها بين ظهرانيهم. فكان ذلك غذاء سائغا لشاعرياتهم. وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة. ولابد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هي نفس لغتهم اليومية، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لنزول الكثير من الموالي بهما ومعيشتهم فيهما، وقد ذكرنا في كتاب العصر الإسلامي أن عدد القتلي من الموالي في موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة

آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا من الأعاجم. ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا من سكانها الأصليين في هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاما، فما بالنا في هذا العصر ؟ إن المعقول الذي يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب في المدينتين زادت زيادة كبيرة، وهي زيادة كبيرة، وهي زيادة أعدت في هذا العصر لشيوع لغة عامية متداولة في مقاطع الكلمات ونبراتها. وعلي الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس، وكان الحرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية، وكان وراءها مدارس وكتاتيب، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربي الفصيح.

ولم تكن العناصر الأجنبية في اليمن كثيرة. ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة، ومر بنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم في حقبة إمارة في زبيد، وكان ينزل في عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين، ويبدو أن العناصر الأفريقية- وهي الكثيرة- كانت تتعرب سريعا. وليس معنى ذلك أنه لم تتكون في اليمن على مر الزمن لغة عامية، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة، حتى القرن السادس الهجري على الأقل في بعض أنحائها، فعمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكي في كتاب المفيد في أخبار زبيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زبيد في سنة ٥٣٠ ليطلب تلك البلدة من أنه لا يلحن في شيء من الكلام، ومن قوله: " وجبلا عكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلهما باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم. ولما زراني والدي وسبعة من إخوتي في زبيد تحدثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه[1] ". ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زبيد كان أهلها يلحنون في لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجري، أما تهامة والبوادي وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقا سليما. ويبدوا أن أنحاء كثيرة من

(١) المفيد في أخبار زبيد ص ٥٤.

اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظا صحيحا، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها في بعض تلك الأنحاء حديثا غير ملحون، إذ يقول صاحب المخلاف السليماني إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير في هذا المخلاف الذي يطلق عليه الآن اسم عسير، وقد ضم إلى المملكة العربية السعودية بأخرة. ويصور ذلك تصويرا مسببا فؤاد حمزة إذ يقول: " أفصح اللهجات (في الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين جنوبي الحجاز وشمالي اليمن (عسير) وكثيرا ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصيح من سواه. وبعض البدو من أهل هذه المنطقة يخرجون جملا يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلي البديهة، فيجيء كلامهم فصحيا معربا لا غبار عليه. ويستعملون ألفاظا نظنها في الأقطار العربية المتمدنة مهملة متروكة، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة[1]".

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية الأخرى، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة، ولكنها على كل حال أخذت في إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجري، كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء زبيد من أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها، مما يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن، وأخذت تتكون بسرعة هناك لغة يمنية عامية. وكان ثراء اليمن عاملا مهما في أن يعني حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومر بنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن، وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زبيد وتعز وصنعاء وعدن، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجري على الألسنة، غير أنه يلاحظ أنه أخذت تنظم هناك، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية. ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط، وإذا احتكمنا إلى تاريخ أول أغنية عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس: " شعر الغناء

---

(١) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٩٩.

الصنعاني " وجنا هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجري، وهي للشاعر شهاب الدين أبي محمد أحمد بن فليته، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولي المجاهد على الذي حكم من سنة ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغاني اليمنية العامية من زمن ابن فليتة إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري. ويقول إنها جميعا من الشعر الحميني وهو اسم خاص بالشعر العامي اليمني الذي لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية، كما لا يلتزم عروضها، وتكثر فيه السمطات والموشحات، وتبدو المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية، ويوضح الدكتور غانم توضيحيا مفصلا كيف أن هذا الشعر الحميني أو العامي اليمني يرتفع في لهجته عن اللغة اليمنية العامية ويهبط في الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصيحة. وهو بذلك يعد فرعا كبيرا من شجرة الشعر النبطي الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد. وهو شعر يلقانا في كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر، نلقاه في الحجاز وحضرموت وفي عمان والبحرين ونجده جنوبا وشمالا. وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامية لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات الفصحى، شعر بلغة بين العامية والفصحى، ويسمونه باسم الشعر النبطي، وهو كله غير معرب وكأنه يحل في الجزيرة محل الشعر الجاهلي فيها قديما، فقد كان شعر يتعاكس مع ما كان في الجاهلية فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى وألحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكون عنها أبدأ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماما. وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية تمام. وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنوا من قبيلته ولغتها العامية، ومع ذلك يظلون يرفدونه بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح، وكأنما في دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغي أن يظل مرتفعا قليلا أو كثيرا عن اللغة العامية اليومية، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة.

ومهما يكن فإن هذا الشعر العامي أو قل الحميني اليمني لم تعل كفته يوما على الشعر الفصيح الذي ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره في اليمن إلى اليوم. وما يصدق على

اليمن بصدق على حضرموت، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحميني العامي، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني ونمثل لذلك بأبي بكر العيدروس الحضرمي المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعرا وأغاني حمينية عامية ولكن شعره الفصيح هو الذي ذاع وشاع أو قل هو الذي غلب عليه، كما يصور ذلك ديوانه: " محجة السالك وحجة الناسك ". على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقترابا شديدا.

وكانت تنزل عمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية؛ ومما هيأ للأخيرة النزول كثيرا أن حاكم هرمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان، وكانت أحيانا تتبعهم فكثر نزول الإيرانيين بها، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخليلة في لغة العمانيين اليومية، وطبيعي أن يتبع ذلك تغيرات في الألفاظ العربية ذاتها في بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها، لذلك كان ابن بطوطة محقا حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن " كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا يقلون مثلا لا تأكل، لا تمشي، لا تفعل كذا ". فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم، أما التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائما حين يطلبون من شخص شيئا فكبر الظن أنها لام الأمر حرفت ومدت قليلا أو لعلها لام التوكيد. وينبغي أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد بن بطوطة، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعا، يتخذونها لغة للعلم وللشعر، وكثيرا ما نقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عمان، وقل ذلك نفسه في نزوي وفي صحار وغيرهما من المدن.

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فمواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك، وإن كانت لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيرا ما نزلوا هناك وحكموها. وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما

أعـد لظهـور شـعراء مختلفـين عـلى مـر الـزمن طـوال هـذا العـصر، وكـأن سـيل الـشعر كـان لا يمكن رده ولا صده في أي إقليم عربي، فهو دائم زاد للعرب وعدة وعتاد.

ومعرفتنا بالحركة الـشعرية في نجـد قليلـة، ومـع ذلـك نـستطيع أن نتعـرف عـلى أطـراف منهـا مـن خـلال مـن كـانوا يرحلـون عنهـا إلى الأقطـار المجـاورة، إذ لم تكـن وسـائل حفـظ الـشعر عنـدهم مهيـأة، ونقـصد وسـائله الأولى مـن الأقـلام والحـبر والـورق. وهـؤلاء المهـاجرون يدلوننا على ما كان من نـشاط شـعري وراءهـم، وقـد نـشط الـشعر في عهـد بنـي مزيـد الأسـديين الـذين شـادوا الحلـة عـلى حـدود العـراق وكـذلك في عهـد بنـي عقيـل العـامريين حـين هـاجروا إلى الموصل على نحو ما مـر بنـا في غـير هـذا الموضـع. ونفاجـأ بنـشاط واسـع للـشعر في نجـد مـع دعوة محمد بن عبد الوهاب من أواسط القرن الثاني عشر الهجري.

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطا واسعا في الشعر، فقد كان الحكام دائما يعنون بأن تحف بهم جمهرة من الشعراء، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم. غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجري قليلة، وكانوا المظنون أن يترجم الثعالبي في اليتيمة لهم لطائفة منها، غير أنه لم يعن بهم، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامي، وسنترجم له في غير هذا الموضع، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبي مرة المكي وينشد له قوله في أبي الفتوح أمير مكة الآتي ذكره[١]:

يا سَيِّدًا فَدَيْتُه بِروُحي ... خَوّلَك اللهُ أبا الفتوحِ

مُلْكَ سليمانٍ وعُمْرَ ونوحِ

وإذا كان الثعالبي قصر في الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عني بهم في فاتحة كتابه " دمية القصر وعصرة أهل العصر " إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم، مقدما لهم بقوله:

"إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار[٢]، ورعت مع الظباء الشيح، وتزودت مع الضباب[٣] الريح، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل.. وقد وقع لي من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزلال، وأرق من الشمول صفقت بالشمال".

---

(١) تتمة اليتيمة للثعالبي ١/ ٨٣.

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخرزي الخيام المتخذة من أوبار الإبل رمزا للبادية.

(٣) الضب: من الزواحف في نجد وذنبه كثير العقد.

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخرزي من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى في الجزيرة العربية، فمنهم المكي والمدني والطائفي الثقفي واليمني، ومنهم العامري والأسدي والبكري والطائي ولغساني والربعي والشيباني والهمداني. وهم بذلك يمثلون الجزيرة في جميع أنحائها غربا وسرقا ووسطا وشمالا وجنوبا. وفي ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الامس الجري، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب في نجد والحجاز واليمن، كما توضح ذلك تراجم البباخرزي وما ساقه لأحابها من أشعار، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحالاته إلى ما وراء البصرة وبغداد، ومنهم من لقيه في هاتين المدينتين أو في مدينة الري حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم بنظام الملك الذي وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم. وجمهورهم لم يلقهم الباخرزي، وقد روي أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني،و هو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمي " قلائد الشرف ". وأول من ترجم له أبو الفتوح[1] الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة المتوفى سنة ٤٣٠ للهجرة وقد أنشد له قوله:

وَصَلَتْنِي الهمومُ وَصْلَ هواكِ ... وجَفاني الرُّقَادُ مثلَ جَفاكِ

وحكي لي الرسولُ أنكِ غَضْبَي ... يا كَفَي اللهُ شَرَّ ما هو حاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة، وقد نسبهما العماد في الخريدة لابن أبي الفتوح شكر[2] الذي خلفه على إمارة مكة إلى أن توفي سنة ٤٥٣ وهو الذي حاك بعض بني هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا، كما مر بنا، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالي، ثم حديث بينه وبين عشيرتها مغاضبة، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها وذهب معهم إلى نجوعهم في نجد، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهي

(١) انظره في العقد الثمين ٤/ ٦٩.

(٢) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ٣ / ١٩ وانظر العقد الثمين ٥/ ١٥.

معهم، ومضوا في رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا، على نحو ما هو معروف عن رحلة بني هلال المشهورة، وظل لها بين جوانحه حب دفين، وظلت تكلف به إلى أن ماتت وهي هائمة بحبه عاشقة. ويبدو أن بني هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة العربية، إذ يجري فيها خلل الإعراب كما يجري في بقية أقاصيص الهلالية، وإنما نزعم هذا الزعم، لما رواه الباخرزي من أشعار النجديين في هذا التاريخ، وهي تدل على أن الخلل الإعرابي لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجري، وفي تقديرنا أن ذلك إنما حدث في القرون التالية مباشرة. ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله[1]:

قَوِّضْ خيامك عن أرضٍ تُضام بها ... وجانب الذُّلَّ إن الذُّلَّ يُجتَنبُ

وارْحَلْ إذا كان في الأوطان منقصةٌ ... فالمَنْدَل الرَّطْبُ في أوطانِه حَطَبُ

والبيتان يصوران إباء العربي وشعوره بالكرماة ورفضه للضيم مهما احتمل في هذا الرفض من العناء الشاق. ويترجم الباخرزي لشاعر يسمي المجاشعي ويلقبه بشاعر الحرمين، ويسوق له مدحة في نظام الملك، ويتلوه بأبي الحسن العبشمي المكي ثم بأبي الفضل جعفر بن الحسين الشيبي، ويسوق له أبياتا سمعها منه في مديح بعض الوزراء، كما يسوق له أبياتا في النسيب، ويترجم لعم له يسمي جعفر بن يحيي الحكاك وشعره متوسط. ويترجم الباخرزي بجانب هؤلاء الشعراء المكيين لشاعرين من المدينة: خزرجي وأوسي، ثم لشاعر من الطائف يسمي سليمان بن خضر، وينشد له غزلا رقيقا. ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحاجزيين شاعرا يمنيا يسلكه فيهم هو علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن، وكان فارسا،وله أشعار جيدة في تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه في القتال من مثل قوله[2]:

زَوَّجْتُ بِيضَ الهند سُمْرَ رِماحهم ... فرءوسُهم عِوَضَ النِّثارِ نِثارُ

وكذا العُلا لا يُسْتباح زواجُها ... إلا بحيث تطَّلق الأعمارُ

---

(١) العقد الثمين ٥/ ١٦. المندل: عود الطيب.

(٢) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٣/ ٢٢٥.

والنثار ما ينثر على العروسين في الزفاف من الدراهم والدنانير والورود، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفراحا، نثارها رؤوس خصومه التي تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده، ويقول إن هذا دائما مهر العلا وصداقها.

ويترك الباخرزي شعراء غربي الجزيرة إلى شرقيها مصعدا إلى أقصى الشمال حيث إمارة بني عقيل العامريين الذين أسسوها في الموصل وبوادي نجد العراقية في القرن الرابع الهجري، ويترجم الباخرزي لأمير منهم هو قرواش بن المقلد الذي ولي الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميرا نحو خمسين عاما إلى أن غلبة على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفي في سجنه، كما مر بنا، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون: " كان كريما وهابا نهابا " وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه، من مثل قوله الذي أنشده الباخرزي:

لي أشقرٌ سَمْحُ العِنان مغاور ... يُعْطيك ما يُرضيك من مجهودهِ

ومهنَّدٌ غَضْبٌ إذا جردته ... خلتَ البروقَ تموج في تجريدِه

ومثقَّفٌ لَدْنُ السِّنان كأنما ... أمُّ المنايا رُكِّبَتْ في عوده

وبذا حويتُ المال إلا أنني ... سلَّطتُ جود يدي على تبديدِه

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثا عن آبائه، وإنما هو مما أنعم به عليه فرسه الذي لا يشق غباره في الغارات، وسيفه القاطع المسلول دائما للنزال ورمحه الذي يفتك بالرجال، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان مال تبدده يداه في الناس. ويترجم الباخرزي لابن عم له يسمي أبا جوزثة، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادي الحلة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بني مزيد الأسديين التي أسستها قبيلتهم بنو أسد في أواخر القرن الرابع الهجري، ويترجم لدبيس بن على بن مزيد الذي ولي إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بني خفاجة، واستنجد به قرواش ضد العز حين أغاروا على بلاده، فنجده وينشد له الباخرزي بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة.

ويأخذ الباخرزي بعد ذلك في الترجمة لطائفة من شعراء نجد، يبتدئهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر، ومما أنشده له في كرم الضيافة الذي يشتهر به العرب من قديم قوله:

لا يرفع الضيفُ عَيْنًا في منازلنا إلا إلى ضحاكٍ منا ومبتسمِ

ويطيل الباخرزي في الوقوف عند شاعر الطائي، هو أبو كامل تميم بن المفرج، ويقول: "كامل "وبالكمال قد كني، إذا وصف تمام الفضل فتميم عني، وناهيك بذاك الألمعي " ويذكر الباخرزي أنه مدح الوزراء في إيران ونال جوائزهم، وأنه أبعد في الرحلة حتى غزنة. ويلم ببعض مدائحه وخمرياته، وينشد له أشارا في الغزل تذوب رقة، من مثل قوله:

ودِعينا- إن كنت أزمعتِ- جاره قبل أن يمنع الفراقُ الزيارهْ

زوِّدِي وامقا أجَدَّ ارتحالا ما قَضَى في مُقامه أوطارَهْ

لم يزل يَحْذَر التفرق حَتى حققوا يوم رامتين حذارهْ

كان يكفيه- والمحبُّ قنوعٌ - وَقْفَة أو تحيَّة أو إشارهْ

كاعب في الحِجال يمنعها الزو ر حياء يصونها وغرارهْ

ذات ثَغْرٍ كأنه حين يبدو عقد در أو أُقحُوان قرارهْ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة، والألفاظ فيها ملتحمة أوثق التحام، وكلما قرأنا بيتا فيها، بل شطرا، أحسنا بجمال اتساقه، وإنه يتصل بسابقه اتصال ذوي الرحم والقرابة، وما أجمل قوله: " والمحب قنوع " فأي شيء يقنعه: وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد. وقد عبر عن حجابها وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيرا ظريفا، إذ ذكر أنها في الحجال والأستاذ داخل بيتها، ولا يصونها الحجاب وحده، بل يصونها أيضا حياؤها وخجلها. والمعاني رقيقة رقة بالغة، والصور جميلة وطبيعية، ولا تكلف، ولا تصنع، بل شاعر وا مق يعبر عن حبه وهيامه تعبيرا حافلا بالوجد والصبابة دون أي أثر للحب الحسي الماي وأدرانه، بل هو حب عذري طاهر يخلو من كل إثم موزر، سوي اللوعة ويترجم الباخرزي لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدون، ثم لشاعر ثالث همداني يسمي المنيع، وينشد له قطعة غزلية في أبنة عم له تسمي ذؤابة شغفت قلبه حبا، وفيها يقول:

كأنَّ ذُؤابةَ في القَز تمشي ربيبُ مَها تَرتَدِي بالظِّلالِ

وهي صورة بديعة، إذ يصور صاحبته وثوبها الهفهاف بمهاة في يوم قيظ شديد الحرارة، وقد أوت إلى ظلال ش جرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمارة القيظ. ويمضي الباخرزي، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم ل شاعر عامري يسمي قيسا، وكأنما يعيد لنا ذكري قيس مجنون ليلي، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبته ومعاهدها من مثل قوله:

قِفا صاحبيَّ قليلا عَلَيَّا ... ولا تُعْجلانِي يا صاحبيَّا

وعُوجا علىَ طلل داثر لريا ... لرَيَّا وأين من العين رَيَّا

معاهدُ لم يُبق صرف الزما ... ن منها ومنِّي إلا شويا

"وشويا" تصغير شيء بمعني بقية قليلة، بالضبط كما نستعملها في عاميتنا المصرية، وكأن لها أصلا صحيحا في العربية، والأبيات تفيض بالوجد والحنين. ويترجم الباخرزي لشاعر شيباني من مداح نظام الملك الوزير السلجوقي ولشاعر من بني عجل من شيبان من مداحه أيضا، ويبدأ محدته فيه بوصف الخمر. ويتبعهما الباخرزي بثلاثة من الشعراء النجديين، ويقف وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمي على بن الأزهر، ويقول: " مما سحر لبي من لب كلامه قوله:

ديارَهُم بالرَّقْمتيَن سُقيتِ ... سَحابًا من الوَسْميِّ ثم وُليتِ[1]

ومالك في ريِّ السحائب حاجةٌ ... فقد طالما من مُقْلتَّي رويت

وكم قد سَبَتْني فيك من ذات برقع ... بأحسن عين للمهَاة وليتِ[2]

أيا بأبي الفَوْرانِ طنبت فيهما ... وأرضٌ من الفَورين كنتِ وطيتِ[3]

وماءُ حللتيه وإن كان آجنا ... وروضٌ رعيت العُشْبَ فيه رعيت

---

١ الرقمة: جانب الوادي والروضة. الوسمي: أول مطر الربيع.

(٢) الليت: صفحة العنق.

(٣) طنبت: أقمت. وطيت: سرت فيها.

والصورة في البيت الثاني بديعة، إذ ذكر. ي، بعد أن دعا للديار بالسقيا، أنها ليست في حاجة إلى ري السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه، وقد سبته صاحبته بعينيها وصفحة جيدها. ويذكر في البيت الرابع الفورين، وهما موضعان باليمامة كثيرا ما التقيا فيهما، ويهتف مفديا الأرض التي وطئتها قدماها وكل ما مرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض. وفي البيت الخامس يشبع الكسرة في كلمة " حللته " فتمتد تاء التأنيث على نحو ما ما تمتد في عاميتنا المصرية، والكلمات محبوكة، ولك بيت يستدعي ما يليه في سلاسة وعذوبة، ويستطيب الماء الذي حلت به وإن كان آجنا متغيرا، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها، ويقول الباخرزي: " ما أحسن ما جمع بين قوله: " رعيت " على الدعاء ". ويستعجل الشاعر الركب معه في السير، وينشأ بينه وبين صاحبته حوار طريف على هذا النمط:

فقلت لهم سيروا ولا تتروَّحوا ... فليس لنا وادي الغَضا بمبيتِ

فقالتْ: ولم أمسيتَ تطوي بلادنا ... فقلتُ أمرتيني غداة نهيتِ

وقد كنت لا تَرضِين منهم بما أري ... من الضَّيْم لي فاليومَ كيف رضيتِ

وأقسمت أن لا تَقْبلي قولَ كاشح ... كذوب فكم أقسمت ثم نَسيتِ

والحوار مع صاحبته طبيعي، ولكل بيت رقته وعذوبته ودقته، فلم يعد الغضا مبيتا صال لها، وقد أمرته بالمسير غداة نهاته، ولم تكن ترضي له بالضيم والهوان فريت، وكم أقسمت وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب، ولم يقل لها- كما لاحظ الباخرزي- نقضت العهد وحنثت في يمينك، بل قال لها متلطفا " نسيت " القسم والعهد بل الأقسام والعهود. وهو لطف ورقة حس ما بعدها رقة، ويترجم الباخرزي بعده لشاعر بدوي نجدي يسمي على بن حسان، وينشد قوله:

سَقْيًا لأيام التصابِي ... مع كلِّ خَرْعَبَةٍ كَعَابِ[1]

إذا نحن نَرْتَعُ في الهوى ... ونجرُّ أردية الشبابِ

والدَّهرُ عنا غافلٌ ... كالسيف يُؤْمَنُ في القرابِ

والأبيات سلسلة سائغة، والصور والأخيلة فيها طريفة، وخاصة الصورة الأخيرة التي صور فيها لدهر كأنه سيف احتواه غمده، فلم يعد يخيفهم ولا يرهبهم، فالسيف في غمده، والدهر بهمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين. وينشد له الباخرزي من قصيدة قافية:

وحقَّ لي وَجْدي على شادنٍ ... أدقَّ جِسْمِي منه خَصْرٌ دقيقْ

وشاهد يشهد في خَدِّهِ ... أن ليس في الحسن لهذا رفيقْ

فكلما عذَّبني هَّجْره ... صحتُ من الوَجد الحريف الحريقْ

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه، وكأنما أعداه نحولا وضني، وما أجمل البيت الثاني الذي جعل فيه من الخد شاهدا يشهد ب حسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال. والحب يكوي فؤاده ويلذعه، وكأنه جمرات نار يصلي بها قلبه بل يحترق، وهو يندي، الحريق الحريق. ويترجم الباخرزي بعده لشاعر أسدي من شعراء المديح ولمغنية بدوية تسمي أم كلثوم.

وإنما أطلنا عرض شعراء البدو في الدمية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة في الحقب الأولى من هذا العصر، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو في القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادي كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء. ومن الغريب أن العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي وشاعره الذي عني مثل الباخرزي بالترجمة لشعر العالم العربي جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفا في خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عقيل أصحاب إمارة الموصل وبواديه، أودعهم في قسم الشام والجزيرة، وكذلك ما ذكره من شعراء بني مزيد الأسديين أصحاب الحلة وبواديها أودعهم قسم

---

(١) الخرعبة: الشابة الحسنة.

العـراق، وبالمثـل أودع شـعراء الحجـاز والـيمن في القـسم الخـاص بالـشام، أو قـل ألحقهـم بـه، ولم يعـن أي عنايـة بـشعراء عـمان والبحـرين. وكتابـه يعـد المـصدر العـام الثـاني بعـد الدميـة لشعراء الجزيـرة العربيـة في القـرنين الخـامس والـسادس الهجـريين. وقـد صـنفه في مطـالع العقـد الثامن من القرن السادس وهو يصرح بذلك مرارا في تضاعيفه.

ولم يـذكر العـماد لبنـي عقيـل أصـحاب الموصـل وبـوادي الجزيـرة سـوي مـسلم[1] بـن قـريش أبن أخـي قـرواش الـذي مـر ذكـره، وهـو أعظـم أمـراء هـذه الأسرة سـلطانا، غـذ كـان يـستولي على ديـار ربيعـة ومـضر في نجـد. وملـك حلـب مـن بنـي مـرداس، وبـذلك قـضى عـلى إمـارتهم فيهـا نهائيـا، وأخـذ الإتـاوة مـن الـروم. وكانـت سـيرته منـذ ولي سـنة ٤٥٣ مـن أحـسن الـسير وأعدلها، وعم الأمن دياره، وكـان يـصرف الجزيـة في جميـع بـلاده إلى الطـالبين مـن أبنـاء عـلى بـن أبي طالـب. وكـان هـو وأهلـه شـيعة إسـماعيلية عـلى مـذهب الفـاطميين، ومـما يـدل عـلى أن قرواشـا عمـه خطـب في بـلاده للحـاكم صـاحب مـصر، كـما يقـول المؤرخـون، ثـم رجـع عـن ذلك خوفا مـن حكـام بغـداد الـسلاجقة. وعنـي هـو وأفـراد أسرتـه بنثـر الأمـوال عـلى الـشعراء فـأتوهم مـن بغـداد وغـير بغـداد. وكـان مـسلم يجـزل العطايـا للـشعراء، وحـين قـصده ابـن حيوس شاعر الشام وأنـشده مدائحـه فيـه بـالغ في إكرامـه. ويقـول العـماد الأصـبهاني إنـه أقطعـه الموصـل، غـير أن ابـن حيـوس لم يلبـث أن تـوفي، وخلـف أكثـر مـن عـشرة آلاف دينـار، فحمـل ذلـك إلى خزانـة مـسلم فـرده، وقـال: لا يتحـدث النـاس عنـي أننـي أعطيـت مـالا، ثـم شرهـت فيه وأخذت ه، ويروي أنه لما ملـك حلـب هجـاه بعـض شـعرائها، فـسأل عنـه،فقيل لـه: إنـه مـن أهل قرية المعرة رعيتـك، فقـال: أوصـوا بـه الـوالي ليحـسن إليـه، وحـذروه أن يجنـي عليـه، فهـذا لا يعرفنـا، ولـو لم تكـن لـه شـكاية مـن والينـا مـا قـال هـذا القـول[2]. وفي ذلـك مـا يـدل عـلى حـصافته وبعـد نظـره وحـسن سياسـته وكـان شـاعرا يحـسن صـوغ الـشعر ورصـفه، ولـه

(١) انظرفي ترجمة الخريدة (قسم الشام) ٢/ ٢٥٥ وابن خلكان ٥/ ٢٦٧ والنجوم الزاهرة ٥/ ١١٩.

(٢) الخريدة قسم الشام ٢/ ١٢٨.

مكاتبات شعرية مع منصور بن دبيس المزيدي أمير بوادي الحلة وأنشد له العماد إحدى هذه المكاتبات، كما أنشد له شعرا شيعيا، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية. ويروي له[١]:

وما كنتُ مِجْزاعَ الفؤاد وإنما ... فؤاي على بَيْنِ الحبيب جَزُوْعُ

وكانتْ سليمي للمحبين رَوْضَةً ... ووصل سُلَيْمي روضة وربيعُ

والصورة في البيت الثاني بديعة وتدل على شاعرية جيدة. وكان طموحا كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظا، وله في ذلك مهوانا من أهل عصره ومصغرا:

وإني لأَحْقر هذا الزمانَ ... ولا سيما أهل هذا الزَمَنْ

يُريدون نَيْلَ العلا بالمُنَي ... ونيلُ العُلا برغيب الثَّمنْ

وكانت وقفة العماد عند بني مزيد الأسديين أكثر طولا، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة منصور[٢] بن دبيس الذي خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيليا رافضيا مثل آبائه، وله- كما ذكرنا آنفا- مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفي سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطا أدبيا في بيئتهما، فقصدهما الشعراء بالمديح. وكان منصور يجيد الشعر وله في رثاء صاحب له يكني أبا مالك:

فإنْ كانَ أودِي خِدننا ونَديمنا ... أبو مَالك فالنائباتُ تنوبُ

وكل ابن أُنْثَي لا محالة ميت ... وفي كل حَيٍّ للمنون نصيبُ

ولو ردَّ حزن أو بكاءُ لهالكٍ ... بكيناه ماهَّبت صَبا وجنوبُ

وله فخر جيد. وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة[٣]، وهو الذي بني مدينة الحلة لقبيلته، كي تنتقل من حياة ابنه سيف الدولة صدقة، وهو الذي بني مدينة الحلة لقبيلته، كي تنتقل

---

(١) انظر في هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة في ترجمة مسلم نقلا عن الوافي للصفدي.

(٢) ترجمته في الخريدة (قسم العراق) ٤/ ١/ ١٥٧ وابن خلكان ٢/ ٤٩١ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٢٢.

(٣) انظر في صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) ٤/ ١/ ١٦٣ وابن خلكان ٢/ ٤٩٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٩٦.

من حياة البداوة إلى حياة الحضارة، وفيه يقول العماد: " كان جليل القدر، جميل الذكر. له دار الضيافة التي نفق عليها الأموال الألوف.. المعروف بإسداء المعروف وإغاثة الملهوف " وقد قصده الشعراء من كل فج، وله قدم ابن الهبارية- كما مر بنا- كتابه الصادح والباغم " الذي نظمه في عشر سنوات على غرار كليلة ودمنة. ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقي سنة ٥٠١ وقتل في المعركة، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين في الري خبر موته قال: مات أجل صاحب عمامة. وكان فارسا شجاعا عادلا في رعيته، كما كان محسنا للآداب حافظا أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين. ويقول العماد: كان يقبل على الشعراء، ويمدهم بحسن الإصغاء وجزيل العطاء " وكان يرتب لهم سنويا مكافآت، كل حسب طبقته. واستطاع ابنه دبيس[1] أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته، غير أنه خرج على المسترشد مرارا وتفرق عنه جنده تقرارا إلى أن قتله السلطان المسعودي السلجوقي صبرا سنة ٥٢٩ وهو الذي يشير إليه الحريري- كما مر بنا- في مقامته " العمانية " واصفا كيف أقبل الناس يثنون على أبي زيد، حين سمعوا فصاحته، يقول: " حتى كأنه الأسدي دبيس " في إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته، وكان شاعرا وأنشد له العماد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد:

حُبُّ عليٍّ بن أبي طالبِ ... للناس مقياسٌ ومِعيارُ

يُخْرِج ما في أصلهم مثلما ... تخرج غِشَّ الذهب النارُ

ولم يستقم لآل مزيد بعض دبيس سلطان، وأبدلت العزة بالذلة، كما يقول العماد. ويترجم لأخيه بدران[2]، ويقول إنه تغرب عن الحلة، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفي سنة ٥٣٠ وروي له العماد أشعارا يحن فيها إلى الحلة باكيا مجد آبائه، وأخري غزلية أو شيعية، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله:

---

(١) راجعه في الخريدة ٤/ ١/ ١٧٠ والمنتظم ١٠/ ٥٢ وابن خلكان ٢/ ٢٦٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٦.

(٢) الخريدة ٤/ ١/ ١٧٧ وابن خلكان ٢/ ٢٦٤.

لا والذي قصَد الحجيجُ على ... بُزْلٍ وما يَقْطَعْنَ من جَدَدِ[1]

لا كنتُ بالراضَي بمنَقِصة ... يوما وإلا لستُ من أسدِ

لأقَلْقِلَنَّ العيسَ دامية الـ ... أخفاف من بلد إلى بلدِ[2]

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه. ولا يلقانا بعده شاعر لبني مزيد في الحلة، وأغلب الظن أن قبيلة بني أسد عادت إو عاد معظمها إلى البوادي، وكأنما كان ذلك كله دورا نهضت به وانتهي بانتهاء بني مزيد وانتقاض سلطانهم.

ويترجم العماد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة إذ يطلق عليها اسم تهامة أحيانا، وأول من يترجم لهم شكر بن أبي الفتوح، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخرزي. وتلاه بترجمة لجعفر[3] بن محمد بن إسماعيل الحسنى، وقال إنه كان عارفا بالنحو واللغة، وشاعرا يمدح الأكابر طلبا لرفدهم وعطائهم، وقال نقلا عن السمعاني إنه كانت في رأسه دعاوي عريضة خارجة عن الحد، لا يري أحدا في علم اللغة فوقه. رحل من الحجاز إلى العراق، ثم دخل خراسان وأقام بها، ثم عاد إلى بغداد وألم بواسط والبصرة في سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس، وأنشد له العماد قطعتين: حائية ولامية، ومن قوله في أولاهما:

أما لظلام لَيْلي من صباحِ ... أما للنجم فيه من بَراحِ

كأنَّ الأفق سد فليس يرجي ... له نهجٌ إلى كل النواحي

كأن الصبحَ منفيٌّ طريدٌ ... كأن الليلَ بات صريعَ راح

ويتلوه العماد بأبي عبد الله[4] محمد بن إبراهيم الأسدي الحجازي، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز، وإنه لقي أبا الحسن التهامي شاعر مكة المشهور في صباه، ويبدو أنه عمر

---

(١) البزل: جمع بازل وهو البعير القوي المتين، والجدد: الأرض المستوية.

(٢) العيس: الإبل.

(٣) انظر ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٠ والعقد الثمين ٣/ ٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٦٦.

(٤) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣ والوافي بالوفيات للصفدي ١/ ٣٥٦ والعقد الثمين ٣/ ٣٩٨ والمنتظم لابن

طويلا، إذا يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفي سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزنه، وينسب له البيتان المشهوران:

قلت: ثقلتُ إذا أتيتُ مرارًا ... قال: ثقلتَ كاهلي بالأيادي

قلت: طَوَّلتُ قال: لا بل تطوَّلـ ... ـت، وأبرمت قال: حَبْلَ الودادِ

وتتداول البيتين كتب البلاغة، إذ يصوران من ألوان البديع وقال القول بالموجب، وهو توجيه الكلام في الحوار وجهة طريفة، تنفي ظاهرة المراد، ويترجم العماد عقبه لشاعر يسمي أبا بكر[1] محمد بن عتيق السوارقي الذي توفي بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماد أشعارا منها قوله:

أيا ساكني نجدٍ سلامٌ عليكُم ... وإن كنت لا أرجو إيابا إليكمُ

وإن كان جسمي في خُراسان ثاويا ... فقلبي بنجدٍ لا يزال لديكمُ

ويترجم العماد بعده لشاعر من خدام سدة المصطفى صلى الله عليه وسلم يسمي كافورا لنبوي، ويقول إنه رحل أيضا عن المدينة، وأوغل في رحلته حتى بخاري، وينشد له العماد بعض شعره، ثم يترجم لشريف سليماني هو علي[2] بن عيسى كان أبوه عيسى أميرا على المخلاف السليماني وقتله أخوه أبو غانم يحيي، ففر ابنه على إلى مكة، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماد: " وله تصانيف مفيدة وقريحته في النظم والنثر مجيدة " ويقول القفطي: " لما نزل الزمخشري مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره، ورفع أمره وتتلمذ عليه، ونشطه لتصنيف ما صنف " وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور، وفيه يقول على مادحا ومنوها

جميعُ قُرى الدنيا سوي القرية التي ... تبوَّأها دارًا فداء زَمَخْشَرا

الجوزي ٩/ ١٥٣.

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦.

(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام ٣/ ٣٢ والعقد الثمين ٦/ ٢١٧. ومادة زمخشر في معجم البلدان لياقوت.

وأحر بأن تُزْهي زمخشر بامرئٍ إذا عد في أسد الشَّري زمخ الشَّرا[١]

وينشد له العماد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السوية المونقة، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإباء الضيم ومروءته، ومن قوله في رثاء بعض آبائه:

غاضَ النميرُ العذبُ يا وردا وحالَ عن عهدكَ ذاك الزلالْ

ويترجم العماد عقبه لابن عم له يسمي دهمش[٢] بن وهاس، يظهر أنه فارق المخلاف السليماني مثله وأقام بمكة، فترجم له العماد بين أبنائها، ويقول إنه وفد على صلاح الدين في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وهو على باب حلب، ثم يتلوه بابن الريحاني[٣] علي بن الحسن المكي الذي وفد على صلاح الدين في سنة سبعين، ويذكر له قطعة في مدح أمير المدينة قاسم الحسيني، وفيه يقول:

سَما بكرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صيدٍ ماجدين جَحَاجِحِ

ويلقانا بعد ذلك في مكة القائد سالم بن أبي سليمان، وهو مغربي الأصل، وينشد له العماد قصيدة في المديح لعيسي بن فليتة أمير مكة، تزخر بالعقيدة الزيدية، وسنعرض لها في موضع آخر، حيث نتحدث في الفصل التالي عن شعر العقيدة الزيدية. وينتقل العماد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن، ويترجم لأكثر من أربعين شاعرا منهم، وهم يصورون ما بثت دويلات اليمن من نهضة شعرية في بلدانها، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعرا، ويترجم العماد لأربعة منهم، هم علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، وجياش أمير آل نجاح حكام زبيد وحاتم بن أحمد الهمداني أمير صنعاء والمهدي بن علي بن مهدي أمير زبيد الذي قضى على دولة آل نجاح. ومر بنا حديث عن

---

(١) الشري: مأسدة. زمخ: ترفع عليها وتكبر.

(٢) راجعه في الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٣٥ والعقد الثمين ٤/ ٣٦١.

(٣) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٣٢ والعقد الثمين ٦/ ١٤٩.

الصليحي عند الباخرزي، وكان جياش شاعرا مجيدا، ويرى أن ابن القم شاعر اليمن في عصره أرسل إليه عاتبا[1].

يا أيها الملكُ الذي خَرَّتْ له ... غلبُ الملوك نواكَس الأذقانُ

أترى الذي وَسِعَ الخلائقَ كلَّها ... يا بنَ النصير يضيقُ عن إنسانُ

فأجابه جياش:

لا، والذي أرسَى الجبالَ قواعدًا ... ذي القوَّة الباقي، وكلُّ فانِ

ما إن يضيق بِرَحْبنا لك منزلٌ ... ولو أنَّه في باطن الأجفانِ

ويشيد الشعراء طويلا بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بني زريع والأمراء الزيديين وأئمتهم. وممن ترجم له العماد من شعراء الصليحيين ابن القم وعمارة اليمني وسنخص كلا منهما بكلمة في حديثنا عن شعراء الإسماعيلية. وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلي ثالث من شعراء الصليحيين هو عمر بن يحيي الهيثمي شاعر الداعي على بن محمد الصليحي. ومعروف أن آل زريع حكام عدن خلفوا الصليحين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروي سنة ٥٣٢ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم، كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، ويترجم العماد لشاعرهم أبي بكر العيذي وسنخصه بكلمة بين لشعراء المديح. وشعرا زبيد آل نجاح كثيرون، وعلي رأسهم جياش كما أسلفنا، وله فضل تخليد أسمائهم في كتابه " المفيد في أخبار زبيد " والكتاب مفقود، غير أن عمارة اليمني كتب له مختصرا كما مر بنا هوهو الذي رجع إليه العماد في الترجمة لجمهور شعراء اليمن، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زكري[2] بن شكيل وله مدائح بديعة في جياش، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة وفيه يقول:

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٢٤.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢١٨.

اسْقني الراحَ إنها تجلبُ الرو ... ح وريحانَها إلى الأرواحِ

بَزَلوها فامتدَّ منها لجِّو اللـ ... ـيل نُورٌ أغني عن المصباحِ[1]

ما يُزيل الهمومَ مثل اصطباحٍ ... في صباحٍ لدى وجوهٍ صباحِ

إذ ترى الدِّيك كالبعير، وكالأر ... ضِ والسمواتِ أو فإنك صاحِ

وارعَ عينك في عيونٍ الزهـ ... ـر جلالها نورُ كنورِ الأقاحي

شفتاها نُقْلي وماءُ ثنايا ... ها عُقاري وخَدها تُفاحي[2]

هذه الجنَّةُ التي وعد اللـ ... ـهُ وما عَنْ نعيمها من بَراحِ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير علن الأفواه طيرانا، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابكين في الرحم، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرها أي الوجوه المشرقة المضيئة. وصور خدر الخمر في البيت الرابع تصويرا جيدا، وأحكم مراعاة النظير في البيتين الخامس والسادس، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحي، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح، وسمي ذلك كله الجنة، مبعدا في الخيال. ويلقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضي العثماني[3]، وله في الصليحي حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير، وساق له العماد خمريتين، يتماجن فيهما، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أرنبا، وأما الثانية فيستوفي فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهي عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة، فيقول متماجنا:

قم فاسقِني بالكأس من تلك التي ... أهلُ النُّهي في وَصْفها قد حاروا

واشرب ولا يلحقْك خوفُ عقوبةٍ ... فيها فربُّ حسابِها غفَّارُ

---

(١) بزل الدن: ثقبه.

(٢) العقار: الخمر. النقل: ما يرافق الشراب من المشهيات.

(٣) انظر الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣١ ولعله الشريف العثماني المذكور في طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧.

ويرجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جياش، وأهم من ترجمته ترجماته لبني أبي عقامة قضاة زبيد في عهد آل نجاح، وفي مقدمتهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عقامة الحفائلي[1] الذي قتله علي بن مهدي حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العماد أشعارا رائعة، منها قوله في مديح قوم راحلين:

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارُ	وللعِلا نحوكم حاجٌ وأوطارُ
تشتاقكم. كلُّ أرضٍ تَنزلون بها	كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ
فحيث كنتم فَثْغر الروْضِ مبتسم	وأيم سرتم فدَمْع المزن مدرارُ
لله قوم إذا حَلَوا بمنزلة	حل الندي ويسر الجود إن ساروُا
لا يعجب الناس منكِم في مسيركم	كذلك الفلك العلوي دوارُ
والبدر مذ صِيَغ لا يرضُي بمنزلِة	فيها يخيمُ فهو الدهرُ سيارُ

وهو مديح رائع، فالمجد لا يزال يروي أبخراهم، ولا يزال للعلا منهم أماني موصولة، وكل أرض تشتاقهم وتتلهف عليهم، كأنهم غيث جدبها المحل، وكل مكان ينزلون يصبح روضا مشرقا، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون، بكوا شمائلهم وكرمهم الذي يتبعهم أينما حلوا وساروا، وتصويره في البيتين الأخيرين لهم في رحيلهم بالفلك الدلوار والبدر السيار تصوير دقيق بارع. ومن شعره في الحداثة قوله يصف روضة:

وروضةٍ ما رأي الراءون مُشْبَهها	كأنما سُرِقَتْ سرًّا من الزمَنِ
غيم وظل وروض مونقٌ وهوًى	يجري من الروح مَجْرَى الروح في البدنِ
غَنَّتْ بها الطيرُ ألحانًا وساعدها	رَقْصُ الغصون على إيقاعها الحسن
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ	فيها ولا نغماتُ العود في أذني

(١) راجع في ترجمة محمد بن أبي عقامة الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٤٠. وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٠.

وتصوير فتنته بالروضة تصوير جيد، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدري لما ي ري فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صابحته التي تأسر لبه، ويتخيل الروض كله من حوله يتغني ويرقص، تتغني فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة، وهو مسلوب الحسن فتنة وجمالات، حتى لكأنما هو مشهد غناء ورقص حقيقي. وكل شيء من حوله يأخذ بعقله، ويترجم العماد لابن مكرمان، وهو شاعر زيدي، سنعرض له في حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها، كما يترجم لشاعر خارجي من شعراء على بن مهدي هو ابن الهبيني، وسنلم به في حديثنا عن شعراء الخوارج، ويترجم أيضا لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمنية، وسنتحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء ووارء من سميناهم من شعراء اليمن في الخريدة كثيرون لم نعرض لهم، لن شعرهم متوسط أو دون المتوسط. ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر في أخبار زبيد لعمارة اليمني الذي أشرنا إليه أنفا، لأن الخريدة تستغرقه.

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائهما حتى منتصف القرن السادس الهجري، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منصف هذا لقرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجري كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي وبه شعراء ممن جاوروا بمكة كثيرون ،وبه مكيون، ولدوا في مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية في حكام مكة وأمرائها الزيديين. وتكثر المدائح النبوية في هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو في المدينة، ولهم غ زل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفي. ويلي هذا المصدر في الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة الصعر لابن معصوم، وقد ترجم في مكة لأكثر من ثلاثين شاعرا القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وأكثر أشعارهم مدائحلأمراء مكة، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين النابهين ويلاحظ ذلك ابن معصوم في غيؤر موضوع من كتابه، كما يلاحظ كثيرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ. وتكثر في أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية. ومثلهم شعراء

المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم، وهم أربعة عشر شاعرا وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوبيت. ويلقانا بعض شعراء الحجاز في كتاب ريحانة الألبا للخافجي المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة، وألف ذيلا له المحبي سماه نفحة الريحانة، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبي أيضا كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي وكتاب تاريخ الجبرتي، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بعد من ترجم لهم العماد في خريدته وجدنا توران شاه الأيوبي يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التي تحدثنا عنها آنفا، ويتحول شعراء اليمن على مديحة وفي مقدمتهم أبو بكر العيذي شاعر دولة الزريعيين، ويتولاهها بعده أمراء من أسرته، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفي مقدمتهم أبو الغنائم الشيزري، ولخزانته وباسمه ألف في اليمن كتابه " جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام " وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب، وختم كل كتاب ببعض أشعاره في مديح المسعود. وكان قد حج الأمير المسعود في سنة ٦٢٥ وأناب عنه عمر بن على بن رسول، وتوفي بمكة، فانتهز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بني رسول التي ظل لواؤها مرفوعا على اليمن ممن سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجي تاريخا بديعا لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهي السنة التي توفي فيها السلطان الأشرف، وتاريخه في مجلدين، وهو كما قلنا في غير هذا الموضع تاريخ حضاري وسياسي وأدبي، إذ عني بوصف احتفالات الرسولين وبأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نظم فيها من أشعار، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدئه، فعمر بن على بن رسول الذي تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذي لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائحه، ومع ابنه المظفر شعراؤه: ابن حمير وابن هتيمل وأضرابهما، وبالمثل من خلفهما من السلاطين. ويلقانا بعد الخزرجي وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ابن الديبع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث

مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغروي، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامرا وقتلوه وقتلوا أخاه، وفي رثائهما يقول عبد الرحمن الديبع:

أخلاَّي ضاع الدِّينُ من بعد عامرٍ وبعد أخيه أعدلِ الناسِ بالناسِ

وينزلها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظلون بها نحو قرن. وتتحول اليمن إلى الرسيين أصحاب صعدة، وينزلها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م ويظلون بها حتى سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م. وكل المصادر العامة التي ذكرناها للشعراء في الحجاز تفرد فصولا طويلة لشعراء اليمن، ومر بنا ذكر كتاب " نسمة السحر فيمن تشيع وشعر " وهو كتاب نفيس غير أنه لم يطبع. ومن الكتب التي تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء في اليمن كتاب سلافة العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحبي وكتاب البدر الطالب للشوكاني وكتاب نشر العرب لنبلاء اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م لابن زبارة الصنعاني وكتاب المخلاف السليماني لمحمد بن هتيمل وديوان البرعي وديوان مدائح إلهية لمحمد بن إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل.

ولحضرموت نشاط شعري غزير. وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف كتابا من ثلاثة أجزاء في تاريخ الشعراء الحضرميين، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر الذي نؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعرا، ويقول في مقدمته: " لا أكتم أنشعراء حضرموت ليسوا في رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلقين.. ولما كانت حضرموت تسودها الروح الصوفية والنزعة الفقهية فإنك تري على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية، ومع هذا الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء، وإن لم يكونوا من المجيدين غالبا ". ولعل السيد السقاف بالغ في حكمه حين جعله عاما، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يعدوا في رتبة المجيدين، مثل أبي بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفي العيدروس المتصوفين، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين في الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وسنترجم له بين شعراء المديح.

ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضي الخارجي في حضرموت، ومن أهمهم أبو إسحق الهمداني وس نترجم له في الحديث عن شعراء الإباضية.

ولم يكن للشعر في عمان هذا النشاط جميعه الذي رأيناه في حضرموت، ولكن لا ريب في أن الشعراء كانوا كثيرين في هذا الإقليم كثرتهم في الأقاليم الأخرى، وممن يلقانا منهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أبو على أبزون المجوسي الملقب بالكافي العماني، وقد ترجم له الباخرزي في دمية القصر[1]، وأنشد طائفة جيدة من شعره، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله:

وصَحراءَ ردَّتها الظِّباءُ حَفائرا ... بأظلافها أَحْببْ بها من حَفائِر

فهَّبتْ رياحُ للصَّبا فملأنها ... بمسكٍ فعادتْ نُزْهةً للنواظِر

وقد عني نور الدين السالمي في كتباه تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر. وكان للخوارج في نزوي شعراؤهم وأيضا للدول السنية حين كانت قائمة في عمان ومسقط شعراؤهم،فقد شجع بنو مركم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء، واشتهر للأخيرين شاعر عني بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصي الستالي وسنترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من زمنها شعار هو سليمان النبهاني، وسنترجم له بين شعراء الفخر، ومن شعراء الخوارج الحبسي شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضي (١١٠٤- ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذي خلف الإمام السابق، ومن شعره[2]:

ولما بلوتُ الناسَ لم أر صاحبًا ... أخا ثقةٍ في النائبات العظائمِ

---

(١) دمية القصر ١/ ٩٨.

(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم إطفيش الجزائري ٢/ ٩٣.

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلصوها من أيدي اليعاربة سنة ١١٥٤هـ وظلوا في دست الحكم إلى اليوم، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان، وكان شاعرا مجيدا وله يتغزل[1]:

يا من هواه أعزَّه وأذلني	كيف السبيلُ إلى وصالك لدني
وتركني حيرانَ صبا هائمًا	أَرْعَي النجوم وأنت في نومٍ هني
عاهدتَني أن لا تميلْ عن الهوَى	وحلفت لي يا غصن أن لا تنثني
جاد الزمان وأنت ما واصلتني	يا باخلاً بالوصل أنت قتلتني
واصلتني حتى ملكت حُشَاشتي	ورجَعِت من بعد الوِصَال هجرتني
لما مَلكتَ قِياد سَري بالهوى	وعلمت أني عاشِقٌ لك خُنْتَني

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتعانق في خفة والمقابلات بارعة، والصور دقيقة، وقد أكمل صورة الغصن بانثنائة كناية عن جفاء صاحبته وإقبالها على غيره. وهو يأسي لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه، وإنه ليتعثر في شباك حبها، بينما اصنرفت عنه إلى غير مآب، وعلي هذا النحو كان الشعر ناشطا في عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفي سعيد بن مسلم.

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر، ومن أوائل من نلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذي ولي أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومر بنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية، وكان شاعرا مجيدا، ومن شعره قوله:

إني امرؤ ليس من شأني ولا أدبي	طَبْلٌ يَرُّن ولا نايٌ ولا عودُ
ولا اعتكافُ على خمرٍ ومخمرةٍ	وذات دَل لها بالدَّل تأويدُ[2]

(١) التحفة ٢/ ١٦٦.

(٢) تأويد: انعطاف. وانظر في الأعصم وشعره ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٨/ ٦١٤ وما بعدها.

وتوفي بالرملة في فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر[1] بن أبي الفتح كشاجم كتابا بين يديه، وكان شاعرا محسنا، وأنشد له الثعالبي في اليتيمة طائفة من أشعاره في الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره، ومن قوله في وصف كتاب:

وصاحبٍ مؤنسٍ إذا حَضَرا ... جالسَني بالملوك والكُبَرا

جسمُ مواتٌ تحيا النفوس به ... يَجلُّ معنى وإن دَنَا خَطرا

أظلَ منه في مجلسٍ حفل ... بالناس طُرا ولا أري بشرا

وسرعان ما انتهي عصر القرامطة وخلفهم بنو الأصفر، ولا يظلون طويلا، ويعقبهم بنو العيوني منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علميا وأدبيا، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو علي بن مقرب العيوني، وسنترجم له بين شعراء المديح. ويحلف العيونيين- كما مر بنا- بنو عصفور وبنو جبر العقيليون، وتظل النهضة العشرية مستمرة ويستولي البرتغاليون بأخرة على البلاد من سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون في سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر في كتب التراجم الأدبية التي كرناها في حديثنا عن شعراء الحجاز، وخاصة في " سلافة العصر " و " نفحة الريحانة ". ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظلون يحكون الأحساء حتى يستولي عليها السعوديون في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، ومن الكتب التي تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر بعد الفتاح الحلو، وقد أنشد شعرا كثيرا من منظومات لهم نحوية وفقهية. ومن الشعراء في أواخر العصر على نقي الأحسائي وهو شيعي إمامي وله ديوان مطبوع ومؤلفات ختلفة في العقيدة الإمامية.

---

(١) انظر ترجمته في اليتيمة ١/ ٢٨٥.

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في جميع أقاليم الجزيرة، وقد عرض الباخرزي في دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد في الوزير نظام الملك السلجوقي، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلبا للنوال، وخاصة من هذا الوزير الذي غمر الشعراء بجوائزه وعطاياه، ولهذاب بن دهثم الشيباني من قصيدة في مديحه[١]:

ما خلق الله تعالى وجَلْ ... مثل وزيرِ الوزراء الأجَلْ

أروعُ كانصلْ ولكنَّه ... أمضي من النَّصْل إذا ما يسل

وقد بعث بنو عقيل في الموصل وبواديها حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم، مما جعل شعراء إقليمهم يدبجون القصائد في مديحهم، وقصدهم الشعراء من العراق والشام، وفي مقدمتهم أبو على بن الشبل البغدادي وما دح قرواش والمششيد بنصره على الغز بمثل قوله[٢]:

نَزَّهت أرضَك عن قبور جُسومهم ... فغدتْ قبورهمُ بطونَ الأنْسُر

ومن شعراء قرواش الطاهر[٣] الجزري. وكان مسلم بن قريش- ابن أخيه- ينثر الأموال نثرا على الشعراء فجاءوه من كل فج وفي مقدمتهم ابن حيوس شاعر الشام، وبلغ من إعجابه بمدائحه فيه أن أقطعه- فيما قيل- الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وله يقول من قصيدة طويلة[٤]:

ولقد جِمُعت فضِائلا ما استجِّمعت ... يفَني الزمانُ وذكرُها لم يهرمُ

---

(١) دمية القصر ١/ ٦٠.

(٢) ابن خلكان ٥/ ٢٦٣- ٢٦٤.

(٣) انظره في دمية القصر ١/ ١٢٦.

(٤) خريدة القصر للعماد (قسم الشام) ٢/ ٢٥٧.

كرمًا يبيح حمَي الغنيَ ومآثرا وُضُحا تبيح بلاغة للمفْحم

ولم يكن بنو مزيد الأسديون في الحلة وبواديها أقل اهتماما بالأدب والأدباء من بني عقيل في الموصل وبواديه، وكانوا قريبين من بغداد، فكثر إلمام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزه، غير من كانوا ينشئون بينهم وفي مقدمتهم على[١] بن أفلح العبسي الشاعر، ويقال إنه كتب بين يدي دبيس بن مزيد من شبيبته. وكان ابنه منصور ممدحا، ومن مداحه النبدنيجي[٢] الشاعر البغدادي، ومحمد[٣] بن خليفة أبو عبد الله السنبسي، وكان ابنه سيف الدولة صدقة مفزعا للشعراء، وكان السنبسي شاعره الأسير وله فيه مدائح مختلفة، ومن مداحه أيضا المطاميري[٤] وأبو طاهر[٥] البغدادي وابن أبي الجبر[٦]. وممن زار الحلة عاصمة المزيديين ومدح أمراءها الأبيوردي الشاعر الإيراني المشهور. ويغمر نجدا وراء دولتي المزيديين والعقيليين الظل، فلا نكاد نتبين شيئا من أخبار شعرائها، حتى تلقانا دعوة محمد بن عبد الوهاب وأصداؤها في الشعر والشعراء.

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح في سلافة العصر لابن معصوم و "نفحة الريحانة" وفي كتب التراجم المتأخرة، وكانت الإمارة في مكة زيدية شيعية وفي المدينة إسماعيلية على الأقل في الحقب الأولى وسنفرد لشعراء هاتين النحلتين في الجزيرة دراسة خاصة في الفصل التالي:

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر، وكان لتنافس الإمارات والديولات الكثيرة في أوائله أثر بعيد في ذلك، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء

---

(١) انظره في الخريدة القسم العرقي ٢/ ٥٢.

(٢) الخريدة، الجزء الرابع، المجلد الأول ص ١٣٣.

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩.

(٤) الخريدة، القسم العراقي ٢/ ١٩٥.

(٥) نفس المصدر ص٢٢٠.

(٦) نفس المصدر ٤/ ٢/ ٥٢٥.

ليكونوا دعاة لها، وفي سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم في الطاء، وتلقانا فيه إمارة الزيديين في صعدة، وسنتحدث عن شعرائها في الفصل التالي. وبالمثل إمارة الصليحيين الإسماعيلية كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم في الفصل التالي أيضا. وقل ذلك نفسه في إمارة بني مهدي الخوارج فسنتحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم. وربما كانت أهم إمارة عنيت بالشعر في القرن الخامس إمارة آل نجاح في زبيد، وكان جياش (٤٨٢- ٤٩٨ هـ) أهم أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه " المفيد " الذي مر بنا ذكره، وبذكر عمارة في المختصر الذي صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخم وعدة مجلدات تجمع نثرا ونظما، ومن أهم شعرائه زكري بن شكيل المار ذكره، وفيه يقول من محدة طويلة[1]:

المُشْتري حلل الثَناء بما حوَّت ... كفاهُ والحامِي لها أن تُشْتَرِي

والموقدُ النارِين: نارَا للوغَي ... لا تنْطَفي أبدًا ونارًا للقرا

وكان بنو زريع في عدن موردا عذبا للشعراء، وكانوا إسماعيلية، وكان كل من تولي منهم يسمي نفسه الداعي أي للمهذب الفاطمي، لذلك سنوجز شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء المذهب الإسماعيلي في اليمن. وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلو عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن علي بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبي بكر العيذي يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول[2]:

أعساكرًا سَيَّرتها وجنودا ... أم نجُما اطُّلْعَتُهنَّ سعودا

أم تلك ماضيةُ العزائم أرهفتْ ... بالرأي منك وجُرِّدَتْ تجريدا

أم تلك أقدارُ الإله ونصره ... رفعتْ عليك لواءَها المعقودا

---

(١) الخريدة قسم الشام ٣/ ٢١٩.

(٢) تاريخ ثغر عدن لبامخرمة ٢/ ٣٧.

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود، وهو آخر من حكمها منهم، وكان يصحبه أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزي وصنف له كتابه " جمهرة الإسلام ذات النشر والنام " كما مر، وهو منتخبات شعرية ونثرية، وكان شاعرا، ويؤسس نور الدين عمر بن علي بن رسول منذ سنة ٦٢٦ دولة اسرته الرسولية، ويبعث هو وأسرته في اليمن نهضة شعرية، بجانب ما بعثوا من النهضة العلمية على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. ويكثر ما دحوه في الشعراء في الأعياد وفي المناسبات المختلفة حين ينتصر في بعض المعارك، وحين يفضي إلى بعض مجالس انسه وشرابه، ولأبي الغنائم الشيزري فيه مديح[1] يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير عنده محمد[2] بن حمير، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين ديبه بعض مدائحه من مثل قوله[3]:

قد قيل جاوْر- لتغني- البحرَ أو ملكا ... أنت المليكُ أنت البحرُ يا عمرُ

ما حاز ما حُزْتَ لا عُرْبٌ ولا عجم ... ما شاد ما شِدْتَ لاجن ولا بشرُ

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شَرفوا ... أو فاخروا فبِك الأجداد تفتخر

عَزُّوا بِعزك أولاهم وآخرهم ... كما بأحمدَ عَزَّت كلها مضر

ويقول الخزرجي: كان ابن حمير أوحد شعراء عصره وقد توفي سنة ٦٥١ وبذلك لحق عصر المظفر الرسولي (٦٤٧- ٦٩٤ هـ) وشاعره غير مدافع القاسم بن هتيمل، وسنخصه بكلمة، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم ب عد أبيه، وكان كلما أهل عليه عيد أو انتصر في موقعة حربية أكثروا من كمديحه تهنئاته، ومن المحقق أن كثيرين مهم كانوا ي رددون معاني الشعراء العباسيين النابهين من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي، ومن الطريف في هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين- وهو ابن دعاس- كان معاصروه من أهل زبيد يرمونه بسرقة الشعر، ويقولون- متندرين عليه- إذا حوسب

---

(١) العقود اللؤلؤية ١/ ٣٦.

(٢) الخزرجي ١/ ١١٠ وفي مواضع متفرقة.

(٣) الخزرجي ١/ ٨٧.

الشعراء يوم القيامة يؤتي بابن دعاس للحساب، فيعترف بسرقاته من سابقيه، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر لفلان وهذا العجز لفلان، وبذلك يخرج بريئا. ويذكر له الخزرجي مدحة في المظفر يصفها بأنها باهرة، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله:

ليس في قدرةٍ ولا إمكانِ نَيْلُ ما نلت يا مليكَ الزمانِ

ويقول إنه لابن الحجاج البغدادي[١]، ويعرض الخزرجي في أثناء حديثه عن السلطان المؤيد (٦٩٦- ٧٢١ هـ) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه، وفي مقدمتهم العنسي والعفيف عبد الله بن جعفر من مثل قوله الأخير[٢]:

ساد الملوكَ فلا تكون مثالَهُ ابدَ الزمان ولا يكونُ مثالَها

وحوى الخلافَة لم تَكُنْ إلا له طولَ الزمان ولم يكنْ إلا لها

ومن الرسوليين الممدحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨- ٨٠٣ هـ) ومن مداحه الخزرجي صاحب العقود اللؤلؤية، وله فيه مدحتان أولهما في بيان[٣] ازدهار الدراسات الدينية التي أقامها السلطان الأشرف في الجامع المبارك الأشرفي، وقد مضي الخزرجي يسمي القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب والجبر، والثانية[٤] في وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته وأمجاده. ونمضي إلى عصر بني طاهر غير أنهم لا يعنون بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعني الرسوليون، وبانتهاء دولتهم يظل اليمن حكم الزيديين أصحاب صعدة، وسنخصهم بحديث مستقل.

---

(١) الخزرجي ١/ ٢٨٣.

(٢) الخزرجي ١/ ٣٣٤.

(٣) الخزرجي ٢/ ٢٠٢.

(٤) الخزرجي ٢/ ٢٣٦.

وتكثر في حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعي لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء، ويمتلي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوي في شيخه محمد بن عبد الرحمن الأسقع[١]:

فقيهُ شريفُ حاز فَضْلا ورفعةً ... له نِسْبُة تَعْلُو على كل نسبةِ

وأكبر الشعراء المداحين في حضرموت عبد الصمن بن عبد الله باكثير، وسنخصه بكلمة. ويكثر شعراء المديح أيضا في عمان ودائما يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين، وسنقف قليلا عند شاعرهم الستالي. وبالمثل كان الشعراء في البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفي مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع على بن مقرب العيوني:

وواضح مما سبق أننا نسقف قليلا عند أربعة من شعراء المديح في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن في بلدانهم في حقب مختلفة، وهم القاسم بن هتيمل اليمني وأحمد بن سعيد الخروصي الستالي العماني وعلي بن مقرب العيوني البحراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الخصرمي.

القاسم بن هتيمل[٢]

هو القاسم بن على بن هتيمل أكبرشعراء اليمن في القرن السابع الهجري، وهو من نجران بوادي ضمد في المخلاف السليماني وهو غير ندران المشهورة وبها نشأ. وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السليماني وكانوا يتبعون الدولة الرسولية، كما وجهه إلى الرسوليين وأمرائهم وولاتهم وإلي الأمراء الزيديين في جهة صنعاء وصعدة. ولا تعرف سنة ميلاده، والمظنون أنه ولد في العقد الثاني أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع، وإن كان هناك

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ٤٤.

(٢) راجع في ترجمة ابن هتيمل مقدمة تحقيق ديوانه لمحمد بن أحمد عيسى العقيلي، وانظر العقود اللؤلؤية للخزرجي في مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٦١.

من يظن أنه ولد في أوائل هذا القرن، غير أننا لا نجد له شعرا في السلطان عمر بن على بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينا يعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧- ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤- ٩٦٩ هـ). ويبدوا أنه توفي لزمنه إذ لا نجد له مديحا في أخيه المؤيد (٦٩٦- ٧٢١ هـ) الذي استولى على صولجان الحكم بعده. وكان يتخذ شعره متجرا، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله، كما يمدح أمراء المخلاف السليماني وأعيانه، والأئمة الزيديين وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين، وأمراء ظفار، وأمراء قبائل حلي بن يعقوب، ويروي أنه قال في أميرهم أحمد بن على الحرامي الكناني في مدحة طويلة:

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً ... قطعًا وكلُّ ملوكٍ بعدهم سُوَقُ

والسوق جمع سوقة وهي الرعية وبلغت المدحة سمع المظفر الرسولي، فاستشاط غضبا حين سمع هذا البيت وطلب ابن هتيمل ليطير به طيرة بطيئا سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده البيت حنقا، وتخلص تخلصا لطيفا، قائلا: أطال الله عمر السلطان! إنما قلت: "وكل ملوك غيرهم سبق" فاستحسن تخلصه[1]، وله فيه كثير من المدائح البديعة من مثل قوله:

أغرُّ رسوليٌّ يَزُرُّ قميصَهُ ... على القمر التِّمِّ الخضمِّ الغضنفر

أعم سماحا من سماحةِ حاتمٍ ... وأعظم باسًا من بسالةُ عنَتْرَ

وقوله[2]:

هديُ كهدي رسول الله مُتَبعُ ... ما سار آلُ رسول الله في السِّير

وعزمةٌ كل حد من صَرامتها ... أمضي من الموت أو أمضي من القدَر

لو أن هَيْبته أو بعضَ هيبتهِ ... تُلقي على الفلك الدوَّار لم يَدُر

---

(١) انظر في هذا الخبر مقدمة الديوان.

(٢) الخزرجي ١/ ١٥٩.

ونسيجه اللفظي متين قوي، وكلماته تروق السمع جرسها وبحسن انتقائها، إذ كان يعرف كيف يصطفي لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذك الأذن حين تصيخ إليها وتلذ اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر. وممدوحه الثاني بعد المظفر في ديوانه الإمام الزيدي أحمد بن الحسين، وفيه يقول في إحدى مدائحه[1]:

حفظ الله أحمدًا حيثما كا ... ن وجادتْه ديمةٌ مدرارُ

الشريف الشريفُ الجوهرُ الجهو ... هر والخالص النُّضَار النُّضارُ

سَيُد أمه البتولُ وجدَا ... هُ المُثني وأحمد المختارُ

والبتول: السيدة فاطمة الزهراء، والمثني: الحسن بن الحسن بن على جد الممدوح وأحمد المختار الرسول صلى الله عليه وسلم، وواضح ما في لفظ ابن هتيمل من سهولة وعذوبة، وهو عادة يقدم لمجائحه بغزليات تسيل رقة وخفة، كقوله في مقدمات هذه القصيدة:

يا قضيبًا من فضَّةٍ يُقْطَفُ النر ... جسُ من وَجْنَتَيْهِ والجُلَّنارُ

قمر طَوْقُه الهلالُ ومن شمـ ... ـس الدياجي في ساعديه سوارُ

عجبا منكِ تحت بُرقعك النا ... ر وفيه الجنات والزهارُ

والليالي الطوالُ تنحتُ من جسـ ... ـمَي ما أبقت الليالي القصارُ

وبين ما يتضمن هذا الغزل من روعة التصاوير، فالقد الرشيق لصاحبته قضيب أو غصن من فضة يقطف منه النرجس والجلنار إشارة إلى جمال عينيها وخدودها، وقلادة الفضة تطوق جيدها، بينما نور الشمس يلتف حول ساعديها سوارا، ويعجب أن تتوهج النار نار وجنتيها تحت برقعها بينما بجانب الجنات من النرجس والجلنار والأزهار، وتطول به الليالي سهرا وسهادا، حتى لتضنيه، بل حتى كأنما تنحت جسمه، مخلفة له الألم والشحوب. ودائما يلقانا هذا الغزل والنسب الرائع في مقدماته لمدائحه على شاكلة قوله في استهلال مدحة ثانية لحمد بن الحسين:

---

(١) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد عبده غانم ص ١٧٩.

إذ جئتَ الغَضَا- ولك السلامَه فصارِحْ بالتحية رِيمَ رامَه[1]

وقل للوائلية هل لروحي وما أتلفتِ من جسدي غَرامه

حَللتِ تهامةً وحللتُ نجدا فأينَ وأين نجدٌ من تِهامَهْ

وسارت القصيدة مسيرة أختها السابقة وعرضها كثير من الشعراء، ولا ريب في أنه كان يغني بها كما كان يغني بأختها الرائية السالفة. ومن طريف نسيبه:

أراك تروحُ ما ودَّعت نجْدا ولا أحدثتَ بالعَلَمْين عَهْدا

ولا صافحتَ أهل الرَّمْل كفا فكفا فيه أو خدا فخدَّا

ضلال ما أتيت من التجافي ألا بعدا لما أضمرت بُعْدا

وكيف سلوتَ عن أرضٍ بأرضٍ يَفُوحُ تُرابُها مِسْكًا ونَدَّا[2]

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، ويروي أن بعض الوهاجء في اليمن جاءه طلب عاجل من أحد الأمراء بأن يفد عليه لأمر مهم، وكانت زوجته اتخذت زينتها له أو شيئا من زينتها، فلما رأته يهم بالخروج تعرضت له منشدة قول ابن هتيمل:

أراك تروح ما ودَّعت نجدَا ولا جَددَّت بالعَلَميْن عَهْدا

فابتسم الزوج وأجل زيارة الأمير[3]. وفي هذا الخير ما يشير بوضوح إلى أن أهل اليمن رجالا ونساء كانوا يتداولون شعرا ابن هتيمل في حياته وبعد مماته. وكان المغنون يتغنون في بعض أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذيع من ثناء ومجيحه. وله مراث لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسي واللوعة الممضة كقوله في أخ وأخت لخ ماتا في أسبوع واحد:

مضتْ ما ابيضَّت الضَّفِراتُ منها ومات وما بدا شَعَرُ العِذارِ

---

(١) الغضا: من شجر نجد وبواديها. الريم: الظباء ورامة: موضع بنجد.

(٢) الند: عود يتطيب به، طيب الرائحة.

(٣) مقدمة الديوان ص ٨.

فأيُّهما على الخلوات أَبْكي أبدر التِّمِّ أم شمسُ والنهارِ

وفي الحق أن ابن هتيمل كان شاعرا مجيدا سواء في مراثيه أو في غزله ونسيبه أو في مدائحه، وهو في المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية، وخاصة حروب السلطان المظفر، مما جعل الخزرجي ينشد كثيرا من أشعاره في العقود اللؤلؤية.

أحمد بن سعيد الخروصيّ الستالي[١]

عُماني من وادي خَروص، ومن قرية منه تسمي ستال، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفي هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كان منتشرة في كل ركن من أركان الجزيرة، بل في كل قرية، ومثلها الثقافة الإسلامية، فقد كان الناشئة يبدؤون بحفظ القرآن، ويقعدون في حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشيء من التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية. ولما شب الستالي عن الطوق غادر قريته إلى عُمان، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء في عصره. وحين أنس من نفسه تدبيج المدائح قصد بها حكام عمان السنيين من بني نبهان، ويسجل شعره كثيرًا من أحداث زمنه، وخاصة ما كان بني نبهان وبين الفرس من حروب، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم، غير أنهم كانوا يعودون دائمًا مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالي في مديحه للأمير النبهاني كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك في مديحه للأمير النبهاني عُمر بن نبهان بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماؤهم في مدائحه ومراثيه في الديوان، ومن ذلك قوله في أبي القاسم على مادحًا ومهنئًا بالعيد:

أبا القاسم الميمونَ أوتيتَ في الدُّنَى من الفضل ما لم يُؤتَ عُجْمٌ ولا عُرْبُ[٢]

لك الشِّيَمُ الغَرّاءُ والهمم العُلا وأنت السِّنانُ الصَّدْقُ والمُرْهَفُ العَضْب[٣]

---

(١) انظره في تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمي ١/ ٣٠٣ وراجع مقدمة ديوانه.

(٢) الدُّنَى: جمع دنيا.

(٣) المرهف: السيف. العضب: القاطع.

أبا القاسم اسْلَمْ وابْقَ للمجد وادعًا ... وحَلَّ بشانيك المخافةُ والرُّعْب

وعَيِّدْ سعيدًا في علاءٍ ورفعةٍ ... وطول يدٍ ما لاحتِ السَّبْعَة الشُّهْب[1]

وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة، وفيه استواء وتناسق وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكم كلمة ويصوغها صياغة جيدة دون أي نبوٍّ والتواء، وله يمدح نبهان بن عمر من قصيدة طويلة:

أنبهانُ إنك من عصبةٍ ... نَماها إلى المجد قَحْطانُها

همُ العين في يَعْرُبٍ كلِّها ... وأنت من العَيْن إنْسانُها

إذا طُلِبَتْ مكْرُمات العلا ... بدا في جَبينك عُنْوانُها

فعشتَ وبُلِّغْتَ من سَيِّدٍ ... مُناكَ وسَرَّك لُقْيانها

ولا زال يغدوك في نعمةٍ ... شبابُ الحياة ورَيْعانُها

والأبيات تصافح الآذان في خفة، وهي تموج بالحركة، وكأنما أعدَّها لكي تغنِّي وتملأ الحلوق بحلاوة رناتها، وانظر إلى تكملة البيت الرابع: " وسرَّك لقيانها ": فإنك تحس القدرة على تكملة البيت بقافية تروعك، إذ لم تكن تتوقعها، وكنت تحار كيف يأتي بها.

ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل تكريت وهيت والجزيرة، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرقي تنزانيا، ونراه يمدح سَبَّخْت وغيره من أعيانها وفيه يقول:

إذا أنت أبصرتَ في الدَّسْتِ سَبَّخْـ ... ـتَ كالشمس أنكرتَ خلقَ العبادِ

سما بمعالٍ وفضلِ كمالٍ ... وحُسْنِ فعالٍ وصَفْوِ اعتقاد

جريءُ القتال غداةَ النِّزالِ ... ببيض النِّصال وسُمْرِ الصِّعاد[2]

---

(١) السبعة الشهب: الكواكب السبعة السيارة.

(٢) الصعاد: جمع صعدة وهي القناة.

ويكثر من تقديمه لمدائحه بالنسيب، وهو- كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن، وكيف يشغفن القلوب، وخاصة حين يرحلن، فتتبعهن الأفئدة، من مثل قوله:

لمن الظعائنُ ظُلَّعُ الأحْداجِ ... وقفتْ لشأنٍ وانثنتْ لمعاجِ[1]

رفعوا هوادجَ كالسَّفين وكِلَّةً ... محفوفةً بالوشْيِ والدِّيباج[2]

فيهن كلُّ معيدةٍ عُلَقَ الهوى ... بجمالها ودلالها الخَلاَّج[3]

وهو يبدئ ويعيد في وصف هذا الترحال الذي يقف أسباب المودة والحب، والذي يملأ قلوبَ العشاق في البوادي فتنة وإغراء وصبابة، ويذيبها أسي وحسرة، فتذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمي، وقد غابت الأقمار وأظلمت الدنيا، وعم المحبين اليأس وتعمقهم الحزن، وقد يجعل الستالي المقدمة لقاء بهيجًا على شاكلة قوله:

قَصَرْن الخُطا وهَزَزْنَ الغُصونا ... وَرَقْرَقْنَ تحت النِّقاب العُيونا

ووشَّيْنَ بالتِّبْر بيضَ التراقي ... وغَشَّيْنَ سودَ الفروع المتونا

وأقبلن يَخْطِرْنَ مَشْيَ الهُوَيْنَي ... ويُبْدين من كل حسنٍ فنونا

فلما عَرَضْنَ لنا سافراتٍ ... أَعَدْنَ الهوى وبَعثْنَ الشُّجونا

والأبيات تصور فرحة الستالي باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبها، وقد ترقرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبدين زينتهن، ويخطرن دلالاً ويسفرن عن وجوههن، فتتلألأ الدنيا بجمالهن من حول التسالي، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلاتًا منه ولا خلاصًا. وللستالي خمريات، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله:

---

(١) الأحداج: الهوادج. معاج: انعطاف.

(٢) الكلة: ستارة الهودج.

(٣) علق: جمع علقة وهي التعلق. الخلاج: الخلاب.

هاتِ اسقني الرّاحَ في راووقِها عَلَلا ... وعاطِني في الحديث اللَّهوَ والغزلا

أما تري نفحاتِ الصيف قد نشرتْ ... من النبات على وَجْه الثَّرى حُلَلا

والروضُ يختال في زَهْر البهاء وقد ... غدا الثَّرى بفنون الوَشْي مشتملا

وشادنٍ يتهادى في الصِّبا غَيَدًا ... مَيْسَ القضيب تثنَّى ثُمَّت اعتدلا[1]

يَسْعَى علينا بنورٍ في زجاجته ... لولا حدوثُ مزاجِ الماء لاشتعلا

وقينةٍ أنطقتْ صوتَ الكِران وقد ... غنَّت بَسِيطًا على الأوتار أو رمَلاَ[2]

والشَّرْبُ قد مزجوا صَفْوًا خلائقهَم ... كما مزجتَ بماء المُزْنة العَسلا

ونحس بروح أبي نواس تطلّ علينا من خلال هذه الخمرية التي تصور مجلس أنس في بستان وساقية تتثنى جمالاً، تسعى على الشَّرْب بِدَنٍّ الخمر أو دنانها، وقينة تشدُّ أوتار العود وتغني عليه ألوانًا من الغناء، وكأننا في مجلس من مجالس أبي نواس التي كانت تزخر باللهو والقصف. وهذا الجانب في ديوان الشاعر يلتقي بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة، ويتضح ذلك في مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء،وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل.

وتكثر في أشعاره الحكم وربما كان يأتسي فيها وفي غزله بالأعرابيات البدويات بالمتنبي وربما كان يأتسي به أيضا في شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّه عليه وعلي الناس من فواجع وكوارث. وفي ديوانه بعض مخمسات طريفة، وله لامية كثير ما يلتزم في نهايتها أو قافيتها اللام قبل التاء، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعًا في أشعاره ولا متكلفًا، وكأن ما وُهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعًا إلى أن تكون أشعاره سلسلة سائغة.

---

(١) غيدا: لينا وتثنيا. ميس: تمايل.

(٢) الكران: من أدوات الطرب ويسمي به العود والصنج. والبسيط والرمل من أوزان الشعر.

عليّ بن المقرّب العُيوني[١]

شاعر من أسرة العُيونيِّين حكام الأَحْساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عامًا إذ توفي سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية وإسلامية، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية، إذ كثيرًا ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم وملوكهم وملوك الفرس الأولين. ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته لقصائد المتنبي والشريف الرضي ومهيار، مما يؤكِّد أنه أكبَّ على دواوين الشعراء النابهين وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلَّق فيها. ويبدو أن الشعر جرى على لسانه في باكورة حياته، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبي الحسين (٥٨٤- ٦٠٣) وهو أهم أمراء أسرة العيونية جميعًا، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء وجزرها مثل أُوال التي يطلق عليها الآن اسم البحرين. ودانت له قبائل نجد الشرقية، ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥- ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج من العراق إلى مكة ذهابًا وإيابًا مع رسمٍ سَنِيٍّ فَرضَه له. وفيه يقول على بن المقرب:

رِماحُ الأعادي عن حِماك قصارُ ... وفي حَدِّها عما تروم عِثارُ

وكلُّ امرئٍ ليستْ له منك ذِمَّةٌ ... يُضامُ على رَغْمٍ له ويُضار

فَعِشْ في عظيم الملك ما لاح كوكبٌ ... وأظلم ليلٌ أو أضاء نهار

ويحدث أن تفكر طيئ في قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً شديدًا، ويشيد ابن المقرب ببسالته في الحرب وانتصاره. وتضع بعض قبائل الشام يدها في يد طيئ وتحاول الإغارة على الحجاج، فيمزقهم محمد بن أبي الحسين شر ممزق. ويعم الأمن ربوع

---

١ انظر ترجمته في ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ومقدمتات طبعات ديوانه وقد طبع في الهند ودمشق والقاهرة. وراجع مقالا لنا عنه في مجلة مجتمع اللغة العربية القاهرة، الجزء الثامن والثلاثين.

البحرين ونجد الشرقية جميعًا، غير أن يدًا آثمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع، فتغتاله، ويبكيه شاعره ويندبه ندبًا حارًّا بمثل قوله:

لِيَبْكِ العُلا والمجد والبأسُ والنَّدَى ... لقد صَلَّ واديها وَجَفَّتْ مسايلُه[1]

وتَنْدُبه البيض الصوارمُ والقَنا ... لما أنهلتْها كفُّه وأنامِلُهْ

لقد مُنِيَتْ منه الأعادي بثائرٍ ... هُمامٍ أبَى أن يَحْمل الضَّيْمَ كاهلُه

وطبيعي أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه في دست الحكم لابن المقرَّب، بل لقد زَجُّوا به في السجن واصدروا أمواله، ورُدَّت إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى العراق، ونزل البصرة ومدحها حاكمها باتكين بن عبد الله الرومي في سنة ٦٠٥ ودخل بغداد ومدح الخليفة الناصر، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها. ورأي العودة إلى موطنه وأن يمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتجار فيها. وألمَّ بواسط في طريقه فطالبه ابن الدبيثي ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته، فصبَّ عليه جام هجائه بمثل قوله:

يا بن الدَّبيثيِّ اللعين لقد ... رمتَ المحال فغُصتَ في بَحْرِ

خُنْتَ الخليفةَ في رعيَّته ... وعَصَيْته في السرِّ والجَهْر

ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب، أو بالضريبة المقررة، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة، وينشده مدحة طويلة يقول فيها:

يا شمسَ دينِ الله كم لك من يدٍ ... يُثْنِي بها بادٍ ويشهد حاضرُ

ادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنْعمًا ... عَنِّي فمالُك للعُفاةِ ذَخائر

ويعود إلى موطنه ويقدم مجائحه إلى أمي الأحساء محمد بن علي بن عبد الله الذي ردَّ إليه حريته، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه، ولكنه لا يرد عليه شيئًا. ويحدث أن ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبي الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتلته، ويصبح الحاكم العام

---

(١) صل: أجدب.

للبحرين،ويقدِّم إليه على بن المقرب مدائح كثيرة، ولا يَحْظَى منه بشيء أو بما كان يأمله. وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه على بن ماجد، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين، مع تقديم خمسمائة دينار له سنويًّا، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج في على بن ماجد مدائح كثيرة من مثل قوله:

أضحتْ بِك الأحساءُ ساكنةً وقد ... رجفتْ بمن فيها وكادتْ تُقْلَبُ

وملأَتَها عدْلاً وكانت عُمِّمَتْ ... جَوْرًا تغورُ به الدِّيار وتَخْرَب

ويثور مقدم بن غَرير العيوني، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية. ويئس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم، فأبناء الأسرة يتحاربون، والحكم يفسد ويضعف. ويولِّي وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والي البصرة والخليفة ببغداد في سنتي ٦١٣ و٦١٤. ويعود إلى موطنه، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذي تحولت إليه مقاليد الأمور بعده، بمثل قوله:

رفعتَ عمادَ المجد من بعد ما وَهَى ... ورَثَّ وأضحى رُكْنُهُ وهْوَ مائلُ

وقمتَ بأحكام الشريعة فاستوتْ ... لديك ذوو الأجبال: طَيٌّ ووائل

ويترك البحرين إلى العراق في سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين في طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر، ويوغل في رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدبِّرَ الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه، وفيه يقول:

أرسي قواعدَ ملكٍ لو يدبِّرهُ ... كسري وإسكندرٌ أعيتْهما الحِيَلُ

ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي صاحب حَرّان وديار الجزيرة، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل في قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقًا ذريعًا حين أغاروا عليها في السنوات ٦١٥- ٦١٨ وفيه يقوله من مدحة طويلة:

سل الكُفْرَ من أَوْهَى بدمياطَ كفرُه ... وقصَّر أَعْلَى فرعه وهْو باسقُ

وقد جاءت الإفرنجُ من كلِّ وِجْهةٍ كأنَّ تَداعيها السيولُ الدوافق

فولَّوا فمكبوبٌ على أمِّ رأسِهِ لَدُنْ ذاكَ لم يَنْفُقْ وآخر نافق[1]

ويعود ابن المقرب إلى موطنه، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بني عُقَيل، فأفسدوا زرعها وثمارها، حتى أصبح البستان الذي تبلغ قيمته مائتي دينار يباع بدينار واحد أو بثوب أو بشاة، ويأسى لذلك في شعره أسي عميقًا. وشعر ابن المقرَّب يعدُّ بحق سجلاً تاريخيًّا لأسرته وحكمها البحرين، فكل من عاصرهم صوَّر حكمهم وأحوال البلاد في أيامهم،وله قصيدة ميمية سجَّل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه، مفاخرًا مباهيًا، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن علي قضى على القرامطة وما أذاعوا في البلاد من عقيدتهم الفاسدة، يقول:

سَلِ القرامطَ من شَظَّى جَماجمهم فَلْقًا وغادرهم بعد العُلا خَدَما[2]

ويسترسل مبينًا أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد، فطهر البلاد منهم، ويمضي في القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان. والديوان يمتلئ بفخر عنيف. وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضًا جوانب من أعمال الخليفة الناصر، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله:

بنى بالبصرة الفَيْحاءِ سُورًا يُضاهي السَّدَّ سَبْكًا وانعقادا

وزيّنها بأسواقٍ أرانا بها كلَّ البلاد لها سوادا[3]

وكم من مشهدٍ ورباط زُهدٍ ومدرسةٍ بَنَى وهُدًى أفادا

---

(١) ينفق: يهلك.

(٢) شظى: حطم.

(٣) السواد: الريف بزروعه وقراه.

ويرد في مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة في تاريخ عصره، ولا نبعد إذا قلنا إنها هي الوثائق الوحيدة في تاريخ الدولة العيونية، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون.

عبد الصمد بن عبد الله باكثير[١]

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجري، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فمن شعراء القرن الحادي عشر وهو حضرمي، ولد في تَرِيس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفي بحَضْرَموت في سنة ١٠٢٥. تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، واختلف إلى العلماء في المدن الحضرمية. وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولا اتجاهًا صوفيًّا على عادة أهل إقليمه، وأخذ يستغله في مديح بعض الحكام والأعيان، حتى إذا تحول صولجان الحكم في حضرموت إلى عمر بن بدر أبي طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل، وليس ذلك فقط؛ بل أصبح أيضا منشئ الرسائل في عهده، وكذلك في عهد ابنه عبد الله (١٠٢١- ١٠٢٤). حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل، ولم يكد يدور العام حتى لبى نداء ربه. وجمهور مدائحه في عمر بن بدر من مثل قوله:

عُمَرُ الذي أَحْيا المكارمَ وابْتَنَى ... للمجد بيتًا دونه الجوزاءُ

فبِه الزمانُ تفاخرتْ أيامُه ... وتعطَّرتْ بوجوده الأحياء

ملكٌ تفجَّر من منابع مجدِهِ ... كرمٌ وحلمٌ واسعٌ ووَفاء

وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحه وخاصة في أعياده وفي الاحتفال بانتصاراته، مرددًا دائمًا الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه، ومن مدحة له فيه:

---

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٤١٨ وكتابه نفحة الريحانة ٣/ ٥٤٦ وملحق البدر الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ حضرموت السياسي ١/ ١٣٣، و٢ / ١٧١ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع.

إذا نابني خَطْبُ الزمان فإنني ... إلى عُمر الخيرات بي ينتهي السَّيْرُ

مواهبُه موصولةٌ بمواهبٍ ... إذا ضنَّتِ الأنواءُ واحتبَس القَطْرُ[١]

له في النَّدا أيدٍ تَسُحُّ بَنانُها ... لُجَيْنًا وإبْريزًا ونائلُه غَمْرُ[٢]

ومن مدحه الرصين في عمر بن بدر تهنئة له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلي حكمه، وفيها يقول مهنئًا:

نصرٌ عزيزٌ من الرحمن قارنَه ... فَتْحٌ وطالِعُه بالسَّعْد يَبْتَدرُ

من كان معتصمًا بالله كان له ... عَوْنًا وسار بما يختاره القَدَر

لما تألَّبتِ الأعداءُ واعتصموا ... بِحَبْل غدرهمُ باءوا بما غدروا

فأمكن الله منهم فانثنَوْا هَرَبًا ... كمثل ما نفرتْ من قَسْوَرٍ حُمُرُ[٣]

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصًا مصفى، ولذلك أكثر من مديحه، حتى إذا توفي أحسن بحزن بالغ ولوعة ممضَّة، ومما جعله يرثيه مراثي حارة يبكي فيها خصاله الكريمة وما فقدته رعيته فيه ومحبوه من جود وعون عفو عند المقدرة من مثل قوله:

هَوَى من سماء المجد كوكبُها القُطْبُ ... فأظلمَ في أقطارنا الشَّرْقُ والغربُ

تضعضَع طَوْدُ المجد وانهدَّ ركْنُه ... فيالك رُكْنًا قد تضمَّنه التُّرْب

ثَوَى عُمَرُ الخيرات أكرمُ من سعى ... إلى ساحِهِ تَطْوِي سَباسِبها النُّجْب[٤]

لقد كان للعافين ظِلاًّ وملجأً ... وللجاهل الإغضاءُ والصَّفْحُ والعَتْب[٥]

---

(١) الأنواء: الأمطار.

(٢) تسح: تهطل. اللجين: الفضة ويريد الدراهم. الإبريز: الذهب، ويريد الدنانير، والنائل: العطاء. غمر: كثير.

(٣) قسور: أسد الحمر: حمر الوحش.

(٤) ساح: جمع ساحة. السباسب: المفاوز. النجب: الإبل الكريمة.

(٥) العافون: طلاب المعروف.

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته. وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة، تدل على أنه كان يجد أحيانًا وجدًا شديدًا، حتى ليقع في شباك بعض النساء ويطول تعثره فيها، وقد انقطعت به الحِيل في الخلاص فيفزع إلى دموعه، على شاكلة قوله:

يا ظَبْيَ وادي الأَجْرَعِ ... رِفْقًا بصبٍّ مولَعِ

يبكي أسًى وصَبابةً ... بكآبةٍ وتوجُّع

ودموعُه فوق المحا ... جِر كالغيوث الهُمَّع[1]

ويقول من وجدٍ ومن ... كمَدٍ بقلبٍ موجَع

حَيّا المرابعَ والرُّبا ... غيثٌ كفائض أدمعي

يَهْمِي على تلك الدِّيا ... رِ بوابلٍ لا يُقْلِع

فهو يبكي بدموع غزار لا تزال تنهمي كأنها أمطار، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة، كلها أوجاع وأوصاب وآلام. ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله:

ولى من العُرْبِ ظَبْيٌ ما رأى بصَرِي ... شِبْها له في الورى بَدْوًا ولا حَضَرا

الوردُ في خَدِّه المحمرِّ من خَجَلٍ ... يدعو إلى حُسْنه الفتّانِ مَنْ نظَرا

كم ليلةٍ زارني فيها على وَجَلٍ ... مستعجلاً خائفًا مستوفزًا حَذِرا[2]

وتصويره لخوف المحبوبة في البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع، فهي عجلة حذرة لا تكاد تطمئن، اختار بدقة شاعريته كلمة " مستوفزًا " ليصور فيها هذه الحركة النفسية، فكأنها دائمًا مستوفزة تتهيأ لفراقه وتتأهب لوداعه. وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب،مصورًا بذلك بعض مجالس أنسه كقوله:

تلاعبتْ مَرَحًا في روضها القُضُبُ ... كشاربي خَنْدَريسٍ هزَّهم طَرَبُ[3]

---

(١) الهمع: الهاطلة السائلة.

(٢) مستوفزا: متحفزا للقيام.

(٣) القضب: الأغصان. الخندريس: الخمر.

قُمْ يا نديمي فقد نادي الهَزارُ إلى ... صَهْبا مُشَعْشَعةٍ تُجْلَى بها الكُرَب[١]

يديرها رَشَأٌ كالشمس طَلْعَتُهُ ... وكفُّه بِدَمِ الصَّهْباء مختضِب

في روضةٍ أخذتْ بالزَّهْر زُخْرُفَها ... وازَّيَّنَتْ وتَجلَّت كلّها عجَب

ولم يكن اللهو غالبًا على حياته، فمثل هذه الخمرية وَميضٌ كان يلمع حينًا في سمائها وسرعان ما يخبو، وقد أمضى شطرًا كبيرًا من حياته بائسًا يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره، ولذلك نجد عنده قطعًا يشكو فيها من حظه العاثر، نذكر منها قوله:

أراني إذا ما الليلُ جاشتْ كتائبُهْ ... أبيتُ وقلبي حائرُ الفكر ذاهبُهْ

تبيتُ أفاعي الهم في غَيْهب الدُّجَى ... تُساوِرُ قلبي بالعَنا وتُواثِبُه[٢]

ومالِيَ فيما قد دهانيَ حيلةٌ ... أُداري بها دهري إذا ازورَّ جانبه[٣]

فيا ربِّ يا ذا المَنِّ والفضل والعَطا ... أغثْني فموجُ الهمِّ فاضتْ غَواربُه[٤]

وتصوير عبد الصمد الهم بأفاع لا تزال تواثبه طوال الليل تصوير طريف، وشعره فيه سهولة وعذوبة ويجنح كثيرا إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره، وكان يستخدم الموشحات أحيانًا فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته.

---

(١) الهزار: طائر صغير الحجم حسن الصوت، الصهباء: الخمر. المشعشعة: الممزوجة بالماء.

(٢) تساور: توائب.

(٣) ازور: مال وانحرف.

(٤) غواربه: أعاليه.

٤

شعراء المراثي

بجانب مجرى المديح الذي كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفع مجري الرثاء، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا ولا قاض في أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبينًا يفيض بالأسى والحزن، وكثُر في هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين، يؤبنهم تلاميذهم وزملاؤهم ويبكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكِّن القرشي الفهري لشيخه نجم الدين الطبري قاضي مكة وفيه يقول[1]:

ما للجفون بها التَّسْهِيدُ قد نزلا ... وما لطيب الكَرَى عن مُقْلتي رَحلا

ما بالُ قلبي بتَذْكار الهموم له ... شُغْلٌ ودمعيَ إن كَفَفْتُه هَملا

نجمٌ أضاء علينا صُبْحُ طُرَّتِه ... حتى إذا ما انجلتْ أيامه أفَلا

مفتاحُ كنزِ علوم الدين كم فُتِحَت ... بهِ بصائرُ قومٍ للوَرَى ذُلُلا

ووراء مراثي الشيوخ والعلماء في الحجاز مراث كثيرة في أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم، وبالمثل تلقانا مراثٍ كثيرة للأئمة الزيديين في اليمن، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع، وسنعرض لها في حديثنا عن شعراء الدعوة الإسماعيلية.

وفي كل زمن وكل دولة تلقانا مراثي الشعراء، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مراثي كثيرة على نحو ما نجد في ديوان ابن هُتَيْمل ففيه باب خاص بالمراثي، وهي تردد عنده بين الندب والتأبين، أما الندب فعلي أبنائه وإخوته، وزوجته وقد بكاه في مرثيتين، يقول في إحداهما[2]:

---

(١) العقد الثمين ٣/ ٣٢.

(٢) الديوان ص ٨٣.

يعزّ عليّ أنْ عَظُمَ المصابُ ... ولا صَبْرٌ لديَّ ولا احتسابُ

بنفسي عَصْرَ يومِ السَّبْت نَعْشٌ ... تداولهُ المناكبُ والرقاب

من الخَفِرات يُخْفِي الليلُ منها ... إذا ما جَنَّ ما لا يُسْتَراب

تكفَّنُ في الثياب فليت جلْدي ... لها كَفَنٌ وليت دمي خِضاب

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة، مشاعر شخص اكتوي قلبه بالحزن على زوجته، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعارًا تعبر عن لوعته ما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصبابة. وله تأبين لبعض أمراء المخلاف السليماني وحكام مسقط رأسه "نَجْران" بوادي "ضِمْد" من ذلك تأبينه لحاكمها "سلطان" صاحب ضِمْد جميعها بمثل قوله[1]:

الرُّزْءُ أكبر أن يقوم بيومه ... جَزَعُ الرجال وَرَنَّةُ النسْوانِ

ويلٌ لأمِّ الأرض ماذا ضُمِّنتْ ... من أَعْظُمٍ أُدْرِجْنَ في الأكفان

ذات النَّدى والبَأْسُ بين حَفِيرةٍ ... أطباقُها طُوِيَتْ على ثَهْلان

إن التمسُّك بالسماح وبالوَفا ... من بعده ضَرْبٌ من الهَذَيان

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسولين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به في دولته، وربما بالغوا في بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه، على شاكلة افتتاح الخزرجي لرثائه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول[2]:

بكتِ الخلافةُ والمقامُ الأعظم ... والمُلْك والدِّين الحنيفُ القَيِّمُ

والشمسُ والقمر المنير كلاهما ... والأرضُ تبكي والسَّما والأنجم

---

(١) الديوان ص ٩٧.

(٢) العقود اللؤلؤية ٢/ ١٦٠.

والبَيْتُ والحرَمُ الشريف بمكةٍ ... والحِجْرُ والحَجَرُ اليماني الأَسْحم[١]

ومدارسُ العلم الشريف وأهْلُه ... والمسلمون فصيحُهم والأعجَم

فالعالم كله يبكي الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه. ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذي عمَّ به رعيته. ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة تنوح وتلطم والأرض راجعفة تميد وتهتز والجو مغبرًّا مظلما وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل بيت مأتم. وكل هذا إسراف في التأبين ومبالغات مفرطة.ويتولى الحكم بعده ابنه الأشرف، وله مآثر كثيرة، وتتوفى زوجه في سنة ٧٩٦ فيرثيها جماعة من الشعراء، وهي ظاهرة كانت تشيع في اليمن منذ عصر الصليحيين، إذ تؤبَّن سيدات الأمراء، وتُعْقد لتأبينها الاحتفالات، ويتبارى الشعراء في وصف فضائلها وبكائها وندبها ندبًا حارًّا، بمثل قول الخزرجي[٢]:

بكتْها السما والأرضُ يومَ وفاتها ... وأمسى سحابُ الأفْق أدمعُه تَسْري

على وجهكِ الميمون حيًّا وميِّتا ... سلامٌ يزيد العِطْرَ عطرًا إلى العطر

سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ ... على شخصك المدفون في ذلك القبر

ويتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبي بكر المقرئ فيه مرثية بديعة[٣]. ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة، وهي تتردد بين الندب والتأبين والعزاء، أما الندب فإننا نجد في الكتاب شعراء كثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم وعلمهم الفياض، كقول محمد بن عبد العليم الخولاني في رثاء والده[٤]:

تبكي عليه منابرٌ ومَحابرٌ ... تبكي عليه محاجِرٌ بدماءِ

---

(١) الحجر بكسر الحاء: ما حواه الحطيم بالكعبة. الأسحم: الأسود.

(٢) العقود اللؤلؤية ٢/ ٢٥٤.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٣١٨.

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ٢/ ١٤٤.

فالله يُسْكنه الجِنانَ بفضله ويعمُّه بسوابغ النَّعْماء

وقد أطال في وصف خسارة العلماء بفقده، إذ يجعله مفسرًا كالواحدي وقتادة وعطاء بن أبي رباح، ومتصوفًا كمكي والغزالي، ومحدثًا يدرس لطلابه صحيحي البخاري مسلم وموطأ مالك، وفقيهًا شافعيا يتقن درس أمهات الشافعي من مثل الوسيط في المذهب للغزالي والمهذب للشيرازي والروضة للنووي. ويكثر تأبين التلاميذ لشيوخهم من الفقهاء والمتصوفة، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوي في شيخ عبد الله بن أبي بكر باحسن[1]:

خطبٌ ألمَّ وهولٌ هائلٌ وردا ونازلٌ فتَّتَ الأحشاء والكَبِدا

وقد شُغفنا بدارٍ لا وفاء لها وشَمْلُ سكانها أضحي بها بَدَدا[2]

والمرء فيها كظلٍّ زائلٍ نَسَخَت أفياءَه ظلماتُ الليل إذ وفدا[3]

والطَّرْف باكٍ وإن الأرض تبكي أسًى كلاهما يَنْدُبان السيِّد السَّنَدا

تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنْصره لمطلب المجد في الآفاق كم وردا

نَسْلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل كنزُ الأماثل خيرُ الأكرمين نَدا

وللشاعر نفسه مرثية ثانية في شيخ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا دار زوال وانتقال، والأيام تمضي بالناس جميعًا إلى وادي الفناء والعدم، والسعيد من سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته. وهذه الصورة من المراثي كانت تعم في كل مكان: في عمان والبحرين ونجد، فالمراثي دائما ندب أو تأبين أو عزاء، وقد تمتزج الصور الثلاثة، ومن طريف ما نقرؤه للستالي شاعر عمان من رثاء قوله في أبي محمد بن نبهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبنه:

---

(١) نفس المصدر ٢/ ١١٣.

(٢) بددا: متفرقًا.

(٣) أفياءه: ظلاله.

رُزِئْنا هُمامًا يَعْلم الأزدُ أنه ... إذا خطرتْ صِيدُ الملوك خَطِيرُها[١]

تبوَّأ من قحطانَ بَيْتًا تُقِلُّهُ ... قواعدُ بنيانِ العَتيك وسورُها[٢]

فطال به أَصْلُ المعالي وفَرْعها ... وطاب له خَيْرُ المساعي وخِيرُها[٣]

ولابن المقرب العيوني مراثٍ مختلفة في بعض القضاة وبعض أهله، ولعل من الخير أن نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثي هما: محمد بن على التهامي وجعفر الخَطِّي البَحْراني.

---

(١) الصيد: السادة.

(٢) العتيك: عشيرة ابن نبهان الأزدية.

(٣) خيرها بكسر الخاء: خيارها.

التِّهامي[١]

هو أبو الحسن علي بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامي أي المكي، إذ تسمى مكة باسم تهامة. ولذلك يقال الرسول صلى الله عليه وسلم تهامي، لأنه من مكة. وتطلق تهامة على الساحل الممتد على طول الجزيرة شرقي الحجاز بين مكة واليمن، ولكن نسبة الشاعر إنما هي إلى مكة إذ ينسب نفسه إليها في بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن في آخر حياته كما سيأتي قائلاً عن نفسه:

وهذا التهاميُّ من مكةٍ برجليه يَسْعَى إلى حَتْفِهِ

ولا يُعْرَفُ زمن مولده، وتدل مدائحه في الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق والموصل وديار بكر، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد ومَيّا فارقين وآمِد ونَصيبين، وأيضًا بينه قِرْواش (٣٩١-٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه. ويلاحظ أن ديوانه يخلو من مدائح أمراء مكة، مما يدل على أنه غادرها مبكرًا. ويبدو أنه بارح كل تلك الأنحاء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر، وبها ألقي عصاه في الرملة عند آل الجراح أمراء طيئ، وقد عينوه خطيبًا لبلدتهم. وفي ديوانه مدائح مختلفة لأميرهم المفُرّج دَغْفل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين، وعاش في رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤-٤٦٧ هـ). وكانت نفسه حدثته بالشغب على الفاطميين- على عادة آبائه- فرأى أن يرسل التهامي إلى بني قُرّة في صعيد مصر كي يحدثوا شغبًا عليهم، وأرسل معه كتبًا كثيرة إليهم. فقدم القاهرة مستخفيًا في سنة ٤١٦ غير أن الفاطميين ظفروا به، فاعتقلوه في سجن خزانة البنود في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وظل به إلى أن توفي- أو قتل- في تاسع جمادى الأولى من نفس السنة.

والتهامي يُعَدّ في الذروة من شعراء الجزيرة في هذا العصر، وفيه يقول صاحبالدمية: " له شعر أدقُّ من دين الفاسق، وأرقُّ من دمع العاشق، كأنما رُوِّح بالشَّمال (الريح) أو عُلِّلَ

---

١ انظر ترجمة التهامي في تتمة اليتيمة ١/ ٣٧ ودمية القصر ١/ ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٦٣ وشذرات الذهب ٣/ ٢٠٤ وابن خلكان ٣/ ٣٧٨ وعبر الذهبي ٣/ ١٢٢ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية سنة ١٨٩٣.

بالشَّمول (الخمر) فجاء كنَيْل البغية ودرك المأمول " وقال ابن تغري بردي: "كان من الشعراء المجيدين وشعره في غاية الحسن " ونقل ابن خلكان عن ابن بسام قوله عنه في كتابه الذخيرة: " كان مشتهر الإحسان، ذرب اللسان، مخلًّى بينه وبين ضروب البيان، يدل شعره على فوز القِدْح، دلالة بَرْد النسيم على الصبح، ويُعْرب عن مكانه من العلوم، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم ". وقد اشتهر بمرثيات له في ابنه أبي الفضل الذي هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه، وأهم تلك المراثي رائيته، وهو يستهلها واعظًا، بقوله:

حُكْمُ المنيَّة في البَرِيَّة جاري ... ما هذه الدنيا بدارِ قَرارِ

طُبِعَتْ على كدَرٍ وأنت تريدها ... صَفْوًا من الأقْذاء والأكدار

ومكلِّفُ الأيام ضِدَّ طباعها ... متطلِّبٌ في الماء جذوة نار

والعيشُ نَوْمٌ والمنيَّة يَقْظَةٌ ... والمرءُ بينهما خيالٌ ساري

فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما ... أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفار

ليس الزمانُ وإن حَرصْتَ مسالمًا ... خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرار

وبمثل هذه العظات التي تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس يفتتح التهامي مرثيته لفلذة كبده، مصورًا الدنيا وكئوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التي تدني الآجال وتقطع الآمال، وتجعل الإنسان دائمًا بين يومين: يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقي لا يدري الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستنقطع دون غايته، فتَخْرج منه النَّفْس ويحل في الرَّمْس ويتجه بعد هذا العزاء الذي يذيب فؤاده حسرات إلى بكاء ابنه الذي اختطفه الموت منه وهو لا يزال غَضًّا في كِمِّه:

يا كوكبًا ما كان أقصرَ عمرَه ... وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ

وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ ... بَدْرًا ولم يَمْهَلْ لوقت سِرار[1]

---

(١) السرار: ليالي آخر الشهر التي لا يظهر فيها القمر.

جاورتُ أعدائي وجاور ربّه ... شتّانَ بين جِواره وجِواري

أُخْفي من الرُّقباء نارًا مثلما ... يُخْفي من النار الزِّنادُ الواري

وتلهُّبُ الأحشاءِ شَيَّبَ مَفْرِقي ... هذا الضياءُ شعاعُ تلك النار

ويمضي في وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضًّا، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته كل ما أمكن من أذى وآلام، وإن ذكرى ابنه لهي نفس هذا الآلام الثقال، وإنه ليحس إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده. والمرثية تمتد إلى مائة بيت، ومثلها في الطول مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتًا وفيها يقول محزونًا:

محاكَ الرَّدَى من رَأْيِ عيني وما محا ... خيالَك من قلبي وذكرَك من ذكري

وهو من شعراء المديح المبدعين، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه، وهو فيه طويل النفس، ومن خير مدائحه ما قدمه للمفرِّج الطائي وابنه حسان، وفيه يقول:

فَتًى جُبِلَتْ يداه على العطايا ... كما جُبِل اللِّسانُ على الكلامِ

ويُسْراهُ لنَيْلٍ أو عِنانٍ ... ويُمْناه لرُمْحٍ أو حُسام[1]

لقد أحيا المكارمَ بعد موتٍ ... وشادَ بناءها بعد انهدام

بصَفْحة خَدِّه للبِشْر ماءٌ ... كمثل الماء في صَفْحِ الحُسام[2]

سواءٌ عنده قولُ المنادي ... هَلُمَّ إلى الطِّعان أو الطعام

وواضح في مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطْلق نفسه على سجيتها، فيأتي بكثير من المعاني الطريفة والصور البديعة، على نحو ما يلاحظ في صورة البيت الأول، فهي صورة بسيطة،فالعطايا في يد مفرج كالكلام في لسانه لا يزال يرسلها، ومثل هذه الصورة في

---

(١) النيل: العطاء. والعنان: عنان الفرس.

(٢) الماء هنا: الرونق.

الطرافة صورة البيت الأخير، فممدوحه لا يزال في حشد من جوده وباسه على طعامه وطعانه، وفيه يقول في مدحه ثانية:

هو السالبُ الأعداء الوغَى ... ويَسْلُبه في ساعة السِّلْم زائرُهْ

يخبِّرنا عن جوده بِشْرُ وَجهِهِ ... وقبلَ انصداع الفَجْر تبدو بشائره

ويَصدُق فيه المَدْحُ حتى كأنما ... يسبِّح مِنْ صِدْق المقالة شاعرُهْ

والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التي أشرنا إليها آنفًا وهي سهولة كلمه مع طرافة صوره، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر، ومن قوله في مديح حسان بن المفرج من مدحة طويلة:

هو المَلْك يُبْلي بُسْطَهُ قبْل وقتها ... سجودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها

بعيدٌ مَداه ليس تَأْلف كفُّه ... من المرمات الغُرِّ إلا جِسامُها

ولو أن للأقمار ضوءَ جَبينه ... لما زال عنها نُورها وتمامُها

وليس بمشغولِ البَنان عن النَّدَى ... إذا شَغَلَ الكفَّ اليمينَ حُسامُها

وواضح تخلصه في البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائمًا بالسيف، فتُشْغَلَ عن العطايا والكرم، وتكثر في أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة، وله نسيب بالديار وغزل رقيقان، وكثير منهما يقدِّم به مدائحه، على شاكلة قوله في إحدى مقدمات مدحه دالية:

أتروم تغطيةَ الهوى بجحودِهِ ... ونحولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ

كم قلتُ إياك الحجازَ فإنَّه ... ضَرِيَتْ جآذرُهُ بِصَيْد أسوده

وأردتَ صَيْدَ مَها الحجازِ فلم يُسا ... عدك القضاءُ فصرتَ بعض صُيودِه

أُخْفي هواه وهْو نارٌ مثلما ... يُخْفي الزنادُ ضِرامه في عوده

والصورة في البيت الثاني بديعة فظباء الحجاز أو جآذره تصيد أسوده، ويحاول صيد المها فيصبح من صيودها، ونار الحب كامنة في فؤاده كمون نار الزناد في عوده. ونحس دائما بأن الصور والمعاني طبيعية، وكذلك الألفاظ فهي سلسلة سائغة عذبة وفي أشعاره حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعبها، ومن طريف حكمه قوله:

وإذا جفاك الدَّهْرُ وهْو أبو الوَرَى ... طُرًّا فلا تَعْتِبْ على أولادِهِ

فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغي أن لا ينزل جام غضبه على الناس، لأن ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه والحق أنه كان شاعرًا مبدعًا، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره.

جعفر الخَطِّيّ[١]

من قبيلة عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقَطيف وبواديها منذ العصر الجاهلي، والخَطِّيّ نسبة إلى الخَطِّ وكان يطلق على مدينة القَطيف وعلي ساحل الإقليم كله، ولا يُعْرفُ زمن مولده،ويدو أنه نشأ في القطيف، وفيها حفظ القرآن وتلقَّن على الشيوخ مبادئ الكتابة والقراءة والعربية، وسال ينبوع الشعر على لسانه، واتخذ- مثل لداته- حرفة يكتسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجري ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة أُوال التي تسمي في عصرنا باسم البحرين، حاملاً مدائحه إلى بعض أمرائها وقضاتها وعلمائها، واستقبلوه استقبالاً حسنًا، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم، وخاصة وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيه عبد الرءوف البحراني. ولا توافي سنة ١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلي إيران وينزل شيراز، ويتردد بينها وبين أصفهان، ويلتقي في الأخيرة ببهاء الدين العاملي صاحب كتاب الكشكول، ويعارض بعض قصائده ويعجب بهاء الدين به وبشعره، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له في العطاء مما جعله

---

(١) انظر في ترجمة جعفر الخطي سلافة العصر لابن معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ١/ ٤٨٣ ونفحة الريحانة ٣/ ٢٠٤ وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥ وديوانه طبع في إيران سنة ١٣٧٣ هـ.

يفضل الإقامة في إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة. وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم في كتابه " سلافة العصر " قائلا في نعته: " البديع الأثر والعيان، الحكيم الشعر الساحر البيان، أتى بكل مبتدع مطرب، ومخترع في حسنه مغرب. وقد وقفت على فرائده التي لمعت، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت " ومن محاسن مراثيه مرثيته في الشيخ أبي محمد حسين البحراني سنة إحدى وألف، ويقول:

جَذَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فانْجذما ... وهدَّ شامخَ دين الله فانهدما

نبكي فَتًى لم يحلَّ الضَّيْمُ ساحته ... ولا أباحَ له غَيْرُ الحِمام حِمَى

ذا منظرٍ يُبْصر العمي برؤيتهِ ... هُدًى وذا منطقٍ يستنطق البُكما

لو علَّم الوحشَ ما يُنْشيه من حكمٍ ... لراحتِ الوحشُ من تعليمه عُلَما

ما راح حتى حَشا أسْماعنا دُرَرًا ... من لفظه وسَقى أذهاننا حِكَما

والتكلف في هذا الرثاء واضح، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى في البيت الأول والثالث والرابع، وكان يكفي الشاعر أن يعلِّم صاحبه الناس فيصبحوا علماء،أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه، فهذه مبالغة مفرطة. ويتوفَّى في نفس السنة الشيخ أبو على عبد الله بن ناصر الخطي، فيشيِّعه بمرثية، يقول في تضاعيفها:

فتًى كرمتْ آباؤه وجُدودهُ ... وطابتْ مساعيه فتمَّ له الفَخْرُ

جوادٌ له في كلِّ أُنْمُلةٍ مجدٌ ... بصيرٌ له في كلِّ جارحةٍ فكْر

ويا بلدَ الخَطِّ اعتراك لفقده ... مدى الدهر كَسْرٌ لا يُرامُ له جَبْر

من الآن بَدْءُ الشرِّ فيك وإنه ... لمتصلٌ باقٍ وآخر الحَشْر

ولو خلَّد المعروفُ في الناس واحدا ... لخلَّد عبدَ الله نائلُه الغَمْر

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من معان وصور، فهنا طواعية ومرونة في التعبير، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع في الأفكار والأخيلة، وقد يكون السبب في ذلك أن الشاعر لم يصدر في المرثية الأولى عن تأثر

حقيقي بخلاف الثانية التي رثى فيها مواطنه الخطي. وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره مدائح، مثله في ذلك مثل عاصرين ومن سلفوا قبلهم، ومن ذلك قوله في وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها في سنة إحدى وألف للهجرة.

ملكٌ رَقَى دَرَجَ الفخار فلم يَدَعْ ... فيها لراقٍ بعده من مَطْمَعِ

وتناولتْ كفّاه أشرفَ رتبةٍ ... لو قام يلمِسُها السُّها لَم يَسْطَع[1]

أَندى من الغيث الملثِّ إذا اجْتُدِي ... أحمَى من اللَّيْث الهِزبْر إذا دُعي[2]

حُيِّيتَ يا كسْرى الملوك تحيَّةً ... تُرْبِي على كسرى الملوك وتُبَّع

والتكلف واضح في هذا المديح، وتبدو في الأسلوب رقع غير ملائمة، ككلمة " قام يلمسها " وكلمة " اجْتُدي " أي طُلبت جداوه وفائدته، بالإضافة إلى كلمة "كسرى " المكررة في البيت الأخير. وهو يستهل هذا المديح بنغمة أبي نواس المعروفة من الدعوة إلى الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر، وله بعض خمريات. لعل أطرافها خمرية حائية يقول فيها:

عاطِنِيها قبل ابتسام الصباحِ ... فَهْي تُغْنيكَ عن سَنا المصباحِ

أنت تدري أن المُدامةَ نارٌ ... فاقتدحْها بالصبِّ في الأقداح

فَهْيَ تمحو بضوئها صِبْغَةَ الليـ ... ـل فيغدو وَجْهُ الدُّجى وهْو ضاح

أرْسِلَنْها وَردِيَّةً كدمِ الكَبْـ ... ـشِ أسالتْه مُدْيَةُ الذَّباح

وواضح أن التكلف يسري في هذه الأبيات، وأن كلمة: " أنت تدري " في البيت الثاني أفسدت النَّسقَ فيه. والشطر الثاني في البيت الثالث تكرار للشطر الأول، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكبش ولا يضيف كلمة " أسالته مدية الذباح ". ومع ذلك كله يعد جعفر

---

(١) السها: كوكب صغير من نبات نعش الصغرى.

(٢) الملث: الدائم الملح. الهزبر: الأسد الضخم القوي.

الخَطِّي أهم شاعر ظهر في زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم في سلافة الصعر والمحبي في نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنيه.

٥

شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين في هذا العصر نشاطهما في العصور السابقة، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء، ومرَّ بنا أن الطاهر الجزري كان من شعراء قِرْواش صاحب الموصل وبواديه، وله ثلاث أبيات يصف في أولها وثانيها الليل وظلماته في الثالث فرسه، واستطرد في كل بيت إلى هجاء شخص يقول[١]:

وليلٍ كوجه البَرْقَعِيديِّ ظُلْمَةً ... وبَرْدٍ أغانيه وطولِ قُرونهِ[٢]

قطعتُ دَياجيهِ بنومٍ مشَّردٍ ... كعقل سليمانَ بنِ فَهْدٍ ودِينه

على أَوْلَقٍ فِيهِ التفاتٌ كأنه ... أبو جابرٍ في خَبْطه وجُنونه[٣]

ويبدو أن البرقعيدي كان مغنيًا ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قوادًا، والهجاء في البيتين التاليين مقذع كما هو واضح. ومن الهجّائين المقذعين القاضي العثماني اليمني وله مدائح في أمراء زَبيد آل نجاح وفي غيرهم من أمراء الدول المنية، ومن أقذع هجائه قصيدته في الداعي على بن محمد الصليحي حين قتله سعيد بن نجاح أمير زَبيد، وفيها يصف مظلته التي كان يحتمي بها من حرارة الشمس، وكيف أن سعيدًا رفع على عمودها رأسه يقول[٤]:

بكرتْ مِظلَّتهُ عليه فلم تَرُحْ ... إلا على الملك الأجلِّ سعيدِها

ما كان أقبحَ شخصَه في ظلِّها ... ما كان أحسنَ رأسَه في عودها

وأرادَ مُلْك الأَرض قاطبةً فلم ... يَظفَرْ بغير الباع من مَلْحودها

---

(١) الدمية ١/ ١٢٨.

(٢) البرقعيدي: نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل.

(٣) الفرس الأولق: شديد السرعة إلى درجة الجنون.

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣٣، ٣٧٧.

سودُ الأراقم قاتلتْ أُسْدَ الشَّرَى يا رحمةً لأسُودها من سُودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا، ولذلك كني عنهم بسود الأراقم أي الأفاعي، والقصيدة مليئة بالتشفي من الصليحي وبهجاء مرير. وللشيخ محمد بن سعيد المكي في هجاء أهل عصره[١]:

اترُكِ العُجْبَ فما أنت سوى رجلٍ إما لضحْكٍ أو لغمّ
كغُراب السوء يَمْشِي مَرِحًا مُعْجَبًا وهْو أخو الشُّؤْمِ الأذَمّ
يَغْسِلُ الثَّوْبَ وفي أكتافهِ وسَخُ العِرْض وآلاتُ التُّهَمْ

ويلقانا الفخر في كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء، ومر بنا فخر عارم لقِرْواش أمير الموصل وبواديه، ولبهاء الدولة منصور بن دبيس المزيدي (٤٧٤-٤٧٩هـ) أمير بوادي الحِلَّة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله[٢]:

أولئك قومي إن أعُدَّ الذي لهم أُكَرَّمْ وإنْ أفخرْ بهم لا أُكَذَّبِ
همُ ملجأ الجاني إذا كان خائفا ومأوى الضَّرِيك والفقير المعصَّب[٣]
بِطاءٌ عن الفحشاء لا يحضرونها سِراعٌ إلى داعي الصَّباح المثوِّب[٤]
منا عيشُ للمولى مَساميحُ بالقِرَى مَصاليتُ تحت العارض المتلهِّب[٥]

وهو يفتخر بقومه ويقول إنهم ملجأ الجاني يلوذ بحماهم، فلا تمتد إليه يد، ومأوى الفقراء والبؤساء، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها، ومع مسارعة إلى الصلاة في الفجر

---

(١) سلافة العصر ص ٢٢٥.

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤/ ١/ ١٥٨.

(٣) الضريك: البائس. المعصب: الذي لا يجد قوته.

(٤) داعي الصباح: المؤذن. المثوب: الداعي إلى الفرائض والنوافل.

(٥) مناعيش: يمنعون من الهلاك، القرى: الضيافة. مصاليت: نافذون في الأمور.

وطوال النهار، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ في الشدائد. ومن طريف ما للرسوليين من فخرٍ موشحٌ للسلطان المجاهد السروي يستهله بقوله[١]:

نلت أنا العزَّ بأطراف القَنا

ليس بالعجز المعالي تُجْتَنَى

نحن بالسيف ملكن اليَمنا

كلُّ فخر تَدّعي الناسُ لنا أعرق العالم في المُلْك أنا

وهو يفاخر بأسرته فخرًا شديدًا، ويمضي فيسمي آباءه متحدثًا أو مفاخرًا بشجاعته وجوده وبذله للمال وانتجاع العُفاة السائلين له وصَفْحه الجميل وعفوه. والفخر كثير في اليمن، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يموج بالفخر من مثل قوله[٢]:

إني امرؤٌ عَفُّ الإزار عن الخَنا لم أَغْشَ مُنْذ نشأتُ بابَ المنكَرِ

إني على كَسْب العلوم مخيَّمٌ وبُكايَ في طلب العُلا وتحسُّري

إني من العَرب الذين نِجارُهم من خالصِ العِقْيان لبِّ الجَوْهَر

وتخذتُ أصحابًا إذا نادمتهم لم أَخْشَ منهم من يَنُمُّ ويَفْتَرِي

عِلْمي وحِلْميَ والحصانُ وصارمي ونَدَى يميني والعفافُ ودفتري

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلي بالعلم فهو حِبُّه الذي يقف نفسه عليه ويبكيه بكاء المحيين لصواحبهم، ويفاخر بأصله العربي، ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود العفاف ودفاتر الدراسة، ويطيل في الفخر بقومه من خَوْلان وكَهْلان وكندة وملوكها الأقدمين. ويكتظ ديوان ابن مقرب العيوني بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من

---

(١) الخزرجي ٢/ ١٢٤.

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ٦٧ وتاريخ حضرموت السياسي ٢/ ١٦٩.

أمجاد ومآثر، ويفخر كثيرا بنفسه وبشعره، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر، على شاكلة قوله:

تجاهلَ هذا الدهرُ بي فتكتَّبتْ ... عليَّ بأنواع البَلايا كتائبُهْ

وإني وإن أبْدَى اصْعِرارًا بخدِّهِ ... وأوْجَفَ بي وازورَّ للبغض جانبه[1]

لأُغضِي على بغضائِه وازْورارِهِ ... وأعجبُ من حُرٍّ كريمٍ يعاتبه

واستقبل الخطبَ الجليل بثاقبٍ ... من العزم يعلو لاهبَ النار لاهبُهْ

وكأنه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مهما ألح عليه ببلاياه أن ينال منه شيئًا، مهما أبْدَى من تكبر واستعلاء ومهما عدا عليه بكوارثه، ومهما انحرف عنه وأظهر من بغضائه، وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلو ناره على نيرانه وتخمدها فلا تشتعل ضده أبدًا. ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء، هما نَشْوان بن سعيد الحميري وسليمان النَّبهاني والعُماني.

نشوان بن سعيد الحِمْيَرِيّ[2]

من أهل جبلٍ شامخٍ مطلٍّ على "تعِزّ" اسمه صَبِر، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها، وكان ملوكها يسمون بالأقيال والأذواء، ونراه ينسب نفسه في قصيدته الحميرية إلى قَيْل يُدْعَى ذا سَحر، يقول:

أو ذو مراشدَ جَدُّنا القَيْل ابن ذي ... سَحَرٍ أبو الأذواء رَحْبُ الساحِ

ويبدو أنه أكبَّ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها، حتى أصبح علمًا في اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام، وينص من ترجموا له على

---

(١) اصعرارا نجده: ميلا، كناية عن الكبر. أوجف بالخيل: عدا بها للقتال. ازور: مال وانحرف.

٢ انظر في ترجمة نشوان معجم الأدباء ١٩/ ٢١٧ وإنباه الرواة للقفطي ٣/ ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦٨ و٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطي ومقدمات محققي كتبه ومقالة المستشرق سترستين عنه في الجزء الأول من كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) ص ٧٥.

أنه كان معتزليا. وذكروا أنه اشتغل باقضاء في بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له في الفرائض (المواريث) وقسمتها يد. وله مصنفات مختلفة، أشهرها " شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم " في نحو ثمانية مجلدات، وذكرنا في الفصل الثاني أنه معجم لغوي، وهو فيه لا يكتفي بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة. وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف الثاء في ليدن، ثم طبع من جزآن في القاهرة إلى آخر حرف الشين، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين. وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة. وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمي " خلاصة " السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة، وهي في أكثر من مائة وثلاثين بيتًا، استهللها بقوله:

الأمرُ جِدٌّ وهْو غيرُ مزاحِ ... فاعْمَلْ لنفسك صالحًا يا صاحِ

ومضى قليلاً في الوعظ ثم خرجَ إلى تعداد ملوك التبابعة والأقيال والأذواء، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمي التاريخي، وقد نال شهرة مدوية في وطنه لعصره، لمعارفه الواسعة، ويبدو أنه لم يكتف بالمجد العلمي فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبِر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكًا بصولجان الحكم فيه حتت وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة ، وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه اعتزازًا لا حدَّ له بقحطانيته. وهو يسوق أشعاره جميعها في هذه العصبية المغرقة لقحطان من مثل قوله:

منا التَّبابعةُ اليمانون الأُلَى ... ملكوا البَسِيطَة، سَلْ بذلك تُخْبَرِ

من كلِّ مرهوبِ اللقاء مُعَصَّبٍ ... بالتاج غازٍ بالجيوش مظفَّر

تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحِهِ ... بعد السجود لتاجه والمِغْفَر[1]

---

(١) تعنو: تنقاد. المغفر: زرد يضعه المحارب تحت القلنسوة.

فافخَرْ بقحطانٍ على كل الوَرَى ... فالناس من صَدَفٍ وهم من جَوْهَر

وإذا غَضبنا غضبةً يمنيَّةً ... قطرتْ صَوارِمُنا بموتٍ أحمر

فغَدَتْ وِهادُ الأَرْض مُتْرَعةً دمًا ... وغدتْ سِباعًا جائعاتُ الأَنْسُر

والأبيات تحمل عصبية عنيفة، وهي عصبية لايشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه، بل أيضا لا تزال الحماسة تشتد به وتتأجج في صدره، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعا، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم، فهم من جوهر والناس من صدف، ولا كغضبهم، فغضبهم يملأ الوهاد دمًا وأشلاء ما تزال تحط عليها النسور والصقور، تملأ بطونها الجائعة. ولم يكتف بهذه العصبية الجامحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه، فقد اندفع في نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدة، وشاع أنه قال:

أما الحسينُ فقد حواه المُلْحَدُ ... واغتاله الزمنُ الخئونُ الأنْكَدُ

فتبصَّروا يا غافلين فإنه ... في ذي عَرارٍ وَيْحَكم مُسْتَشْهَد[1]

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرَّسِّيِّين غضبوا غضبًا شديدًا، وعظم هياجهم، وردوا عليه بعنف، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدي:

أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ ... وجَزاك منا ذابِلٌ ومهنَّدُ[2]

في قصيدة طويلة. ووصلت أسماع نشوان،فلم يخلد إلى الصمت والسكوت، بل مضى يرد بقصيدة دالية يقول فيها:

من أين يأْتيني الفسادُ وليس لي ... نسبٌ خبيثٌ في الأعاجم يوجَدُ

لا في علوج الروم جَدٌّ أزرقٌ ... أبدًا ولا في السُّود خالٌ أسود

ومضى يتنصَّل من البيتين السالفين. غير أنه ساق تنصله في تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه، قائلاً:

---

(١) العرار: زهر بدوي ويقصد بذي العرار أن الحسن استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية.

(٢) ذابل: رمح. مهند: سيف.

فدَعِ التهدُّدَ بالحسام جهالةً ... فحُسامُك القَطّاع ليس له يَدُ

من قد تركتَ به قتيلاً؟! أنْبِني ... ممن توعَّدُه ومن تتهدَّد

إن لم أمتْ إلا بسيفك إنني ... لقَرِيرُ عينٍ بالبقاء مخلَّد

وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان في سبيل دفاعه عن نفسه، ولكنه لم يلبث أن وصم جبينه وصمة لا تمحي بالأبيات التالية:

مُوتِي قريشُ فكلُّ حَيٍّ ميِّتٌ ... للموت منا كلُّ حَيٍّ يولَدُ

قلتم لكم إرْثُ النُّبُوَّة دوننا ... أزعمتمُ أن النبوةَ سَرْمَد

منكم نبيٌّ قد مَضَى لسبيلِهِ ... قِدْما فهل منكم نبيٌّ يُعْبَد

وهذه سفاهة وخُرْق وحماقة، ويقول العماد الأصبهاني تعليقًا على هذه الأبيات: "قاتله الله ولعنه وأخزاه، ما أشد افتراه على الله وأجراه، وأيه فضيحةٍ فوق هذا ولولا النبي المصطفى الذي اختاره الله واجتباه، وجعله الوسيلة إلى نَيْل رضاه، صلوات الله عليه وسلامه،وما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا" وحقًا إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزي وبوار، ولو أن الشاعر وجَّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى.

سليمان النبهاني[1]

آخر سلاطين بني نبهان العُمانيين ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته في الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزْوَى، منها وقعة " حَمت " بينه وبين خوارج نزوي لعهد إمامهم عمر بن الخطاب، وفيها انهزم عمر،ودارت الأيام وانتصر عمر عليه، وسرعان ما توفي فتنفَّس سليمان الصعداء عاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخارج المقيمين بها.وحاربه الخوارج في " واقعة أزكي "

(١) انظر في ترجمة سليمان النبهاني تحفة الأعيان لنور الدين السالمي ١/ ٣٢١ وما بعدها ومقدمة محقق ديوانه عز الدين التنوخي، وهي مقدمة بديعة، والديوان مطبوع بدمشق.

ودارت الدوائر عليه. وما زال به أبو الحسن بن عبد السلام الذي ولي أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز في أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه، غير أن العمانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة ، وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضي عليها قضاء نهائيا. وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة، وهي ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابغة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذي الرمة وكثيِّر وقَطريّ بن الفُجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري وابن دريد والمتنبي وأبي العلاء. وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخي ذكره للمواطن والأماكن التي نثرها امرؤ القيس في أشعاره، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة في معلقته وعمرو بن معهد يكرب في داليته وابن دريد في مقصورته وأبي نواس في خمرياته وما تطوي من معان وصور وأوزان وقواف، ولاحظ معارضته لأبي العلاء في قصيدته (ألا في سبيل المجد) وأنه استعار منه المعاني وكثيرًا من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية، على شاكلة قوله:

ألا في سبيل المجْدِ ما أنا صانعُ ... نَفُوعٌ وضَرّارٌ ومُعْطٍ ومانعُ

وإني لذو طَعْمين شَهْدٌ يشوبه ... رحيقٌ وسمٌّ دونه السُّمُّ ناقع

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة في ديوانه وإغاراته على معاني الأسلام وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رَصْف الكلم.والموضوع الأساسي في ديوانه هو الفخر، وهو شيء طبيعي، لأنه كان سلطانًا وصاحب دولة ومن فخره الذي يصور فيه بسالته وشجاعته:

يمينًا بالصَّوارم والحِرابِ ... وبالخيل المسوَّمةِ العِرابِ[1]

---

(١) المسوَّمة: المعلمة: العراب: الجيدة.

وكُلِّ مُفاضةٍ كالنَّهْيِ سَرْدٍ ... تَرَدُّ العَضْبَ مفلولَ الذُّباب[١]

أنا ابنُ السابقين إلى المعالي ... ورغمُ الصِّيد والشُّوسِ الغِضاب[٢]

أنا الملكُ الذي ساد البَرايا ... مَقَرُّ الفخر والحسب اللُّباب

ولي يومان من نُعْمَى وبُؤْسَى ... ولي طعمان من أَرْيٍ وصاب[٣]

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته في الفخر، فهو يُقْسم بأدوات الحرب والبأس أنه سليل السابقين إلى الشرف: شرف النسب وشرف الفعال، ويتمدح بأنه كالمنذر بن ماء السماء الذي كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم بؤسى وأن له طعمين حلوًا ومرًّا. وهو يلتقي مع نشوان بن سعيد في الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقيالها بمثل قوله:

ونحن ملكنا الجنَّتينِ بمأربٍ ... ودُسْنا برغمٍ أَنْفَ كِسْرَى وقَيْصَرِ

ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان، وإن كنا نحس عنده أيضًا نغمة الفخر على نزار حين يردِّد ما قدمه الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم وما أدوه من جهاد في سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والموال، على نحو ما نري في قوله:

ولولا الملوك الصِّيدُ قوميَ لم يُقِمْ ... لعمريَ قومٌ قِبْلَةَ الصَّلواتِ

ضَرَبْنا على الإسلام أبناءَ هاجرٍ ... فدانوا وأدّوا واجبَ الزَّكوات

ويقصد بأبناء هاجر قريشًا، وهي أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف. وكثيرا ما يبالغ مبالغات مفرطة في فخره تتجاوز الحدود كقوله:

---

(١) المافضة: الدرع. النهي: الغدير. والشعراء يشبهون الدروع وغضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح فتحدث فيها حركات وغضونا. سرد منسوجة. العضب: السيف. الذباب: حده.

(٢) الصيد: السادة.الشوس: جمع أشوس وهو المتعاظم الذي يتيه بنفسه زهوًا.

(٣) الأري: عسل النحل. الصاب: المر.

وهبَ الإلهُ ليَ الفضائلَ مثلما أعطي الكليمَ الصُّحْفَ والأَلْواحا

والكليم هو موسى عليه السلام، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة، ويُكثر في ديوانه من ذكر الأطلال والغزل، وهو فيها مقلد يحتذي على معاني الإسلام وصورهم. ويتعرض كثيرًا لوصف الناقة، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه، غير أنه لا يأتي في الوصفين بجديد، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعي لأمير يجد فراغًا كثيرًا. وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتنه ومسيرته معها في الصحراء بحثًا عن ماء حتى إذا ألمَّ به أرسل عليه وعلي الأتن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه، فأخطأت الصيد ومضي الحمار وأتنه عبر الصحراء. ويتلو هذا المشهد بمشهد ثان لمعركة بين ثور وكلاب صائد، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب، فقتل منها اثنين، ومضى يشق طريقه في الفلوات مثيرًا للغبار من حوله. والمشهدان منقولان حرفيًّا من بائية ذي الرمة المشهورة التي عرضنا لها في كتابنا " التطور والتجديد في الشعر الأموي " ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب، بل التمس أيضًا بعض عباراته ومعانيه، حتى وصف ذي الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجد عند النبهاني إذ يقول:

واعتاده أَنَفُ الكريـ ـمِ فكرَّ كالبطل المحامي

وللخمر حَيِّز كبير في الديوان، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخي أنه كان يطلق لنفسه العنان في مطالع حياته، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبي نواس، ويبين مدي إغارته على معانيها وصورها وعلي الوزن والقافية، ومن شعره في الخمر قوله:

وكم جَنَّةٍ في الأرض دانٍ قطُوفُها بها غُرُفاتٌ أيّما غُرْفاتِ

قضينا بها أيامنا بمُدامةٍ لدى قاصرات الطَّرْفِ بين سُقاةِ

وحُورٍ كأمثال الدُّمَى وبَراغزٍ يُطَرِّبْنَنا بالنّايِ والنَّغمات

وواضح أنه لكي يجمِّل صورة الجناة جاء بقاصرات الطرف اللائي يقصرن عيونهن على صواحبهن ولا يلتفتن إلى غيرهم، كما جاء بالحور العين وأضاف إليهن أولادهن من

البراغز وهـن يطـرِّبنهم بالـضرب والعـزف والغنـاء عـلى الآلات الموسـيقية. ويبـدو أنـه كثـيرًا مـا كان يفكر في الدنيا ونوائبهـا إذ نـري لـه بعـض مـواعظ في ديوانـه- ولـه رثـاء حـار لأخ ثـار عليـه وقتلـه- ولعـل مـن الطريـف أن نجـده يخـتم بعـض قـصائده بالـصلاة عـلى الرسـول صـلى الله عليه وسلم،على شاكلة قوله في خاتمة إحدى قصائده:

وأختمُ شعري بذكر الرسولِ نبيِّ البريَّة نورِ الظلامِ

وفي الحق أنـه كـان شـاعرًا مجيـدًا، وتكثـر معارضـاته واقتباسـاته مـن الـشعراء الـسابقين، غـير أن ملكته الشعرية كان ملكة خصبة.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية في الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذي ينسب إليه القرامطة، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة في سواد الكوفة والبصرة ، وأرسل أحد دعاته المسمي أبا سعيد الحسن بن برام الجنّابي إلى البحرين، فنشر الدعوة فيها واستطاع في سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع.وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائيا- ودخلوا في طاعة الخيلفة العباسي وخطبوا له على المنابر، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين- كما مرَّ بنا- تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠. وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعاته إلى اليمن أحدهما يمني هو علي بن الفضل والثاني كوفي هو منصور بن حوشب، واستطاع عليّ أن يستولي على صنعاء، كما مر بنا في غير هذا الموضع، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن، فأخذ يدعو لنفسه، وزعم لأتباعه أنه نبي وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج، ويروى أنه صعد يومًا المنبر وأنشد له أو لبعض شعرائه[1].

خُذي العودَ يا هذِه واضْرِبي ... نُقيمُ شرائعَ هذا النَّبي

تولَّى نبيٌّ بني هاشمٍ ... وجاء نبيٌّ بني يَعْرُب

أحلَّ البناتِ مع الأمهاتِ ... ومن فضله زادَ حِلُّ الصَّبِي

---

(١) المخلاف السليماني ١/ ١٤٢.

وقد حطَّ عنا فروضَ الصلاةِ وحَطَّ الصيامَ فلم نتعب

ولا تطلب السَّعْيَ عند الصَّفا ولا زورةَ القَبْرِ في يَثْرِب

فهي نبيٌّ يَعْرُب أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا. ولم يلبث عدو الله والإسلام أن لقي حتفه- كما مرَّ بنا- في سنة ٣٠٣ بمشرط حَسَنيّ متطبب ظل يترصد حتى وجد الفرصة سانحة. أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة بالفاطميين حين كانوا لا يزالون في المهدية بالقرب من تونس، واتخذوه داعية لهم في اليمن فاستولى على بعض الحصون، وتوفي سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة. وتوفي وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون، وتولاها الداعي الكبير علي بن محمد الصُّلَيْحي (٤٣٩- ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا وكان قد تتلمذ على داع فاطمي يمني يسمى سليمان بن عبد الله الزواحي، حتى إذا مات خلفه عليها، وكان يستغل الحج إلى البيت الحرام وسيلة لنشر دعوته في اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء مختلفة. وبايعه رؤساء قبيلة هَمْدان على نصرته، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم على صنعاء وعدن وزَبيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت، وكان شاعرًا، وتنسب إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين في مستهل حديثنا عن كثيرة الشعراء في الفصل الماضي، ويشك بعض القدماء فيما ينسب غليه من شعر أحيانا، ويقولون إنه كان ينظمه بعض الشعراء على لسانه[1]. ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر الفاطمي من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديدًا ووعيدًا، وكان مما أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذره فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضًا، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه[2]:

دَمُ الأبطال في اليوم العَبوسِ مُدامي لا شرابُ الخَنْدَرِيسِ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٢٦.

(٢) المخلاف السليماني ٢/ ٢٧.

وكم ملكٍ أسرتُ وكم خميسٍ أباد سَراتَهُ قَتْلاً خَمِيسي[١]

وكان الهيثمي ما ينى يشيد بعلي الصليحي وحروبه وما سجَّل فيها من انتصارات. وكان لا ينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه، من ذلك أنه لما عزم على الحج في سنة ٤٥٩ وأناب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمي ينشد[٢]:

إنَّ سَيْفَ الإمامِ كالبَحْر ذي المو جِ له في البلاد مَدٌّ وجَزْرُ

ولئن ساءَنا فراقُ عليٍّ فبِحَمْدِ ابنه لنا ما يَسُرُّ

ولم تكتب لعلي العودة إلى عاصمته وديارة من الحج، إذ كان قد استولى من آل نجاح زَبيد، فرصده سعيد بن نجاح- وكان معه أخوه جياش- في عودته، وكانت برفقته زوجته أسماء، فاغتاله، واقتاد زوجته أسيرة، وأخذ الشعراء يعزون فيه ابنه المكرَّم ويرثونه، من ذلك قوله الهيثمي[٣]:

وأنشأَ الحجَّ إلى مكَّةٍ ينبغي رضا الله وأجرًا جزيلْ

وارتجَّت الأرضُ له هيبةً بمن بها بين فُراتٍ ونِيل

فإن يكن نِيلَ على غِرَّةٍ فالبدرُ لابُدَّ له من أفول

وظلت السيدة اسماء في الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرَّم في سنةؤ ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها، وفي العام التالي فتك بسعيد وهرب أخوه جَيّاش إلى الهند. وكانت للسيدة أسماء أعمال برٍّ كثيرة، وكان يُخْطَبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصُّلَيْحي[٤]، وفيها يقول الهيثمي[٥]:

---

(١) الخميس: الجيش. السراة: السادة.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٢٧.

(٣) الهمداني ص ١٠٣ والمخلاف السليماني ٢/ ٣٢.

(٤) الهمداني ص ٦٧.

(٥) تاريخ اليمن لعمارة طبعة كاي ١٦ والشاعر يسمي فيه خطأ أسعد بن يحيى. انظر الهمداني ص ٦٧.

رسمتْ في السماح سُنَّةَ جودٍ ... لم تَدَعْ من معالم البُخْل رَسْمَا

قلتُ إذ عظَّموا لبلقيسَ عَرْشًا ... دَسْتُ أسماءَ من ذُرَى النَّجْم أَسْمَى

وكانت السيدة أروي بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لا تقلّ عنها فضلا، وقد نشأت في حجر السيدة أسماء وعُنيت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كي يعلِّموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية. وتوفّى زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدبير شئون الدولة الصليحية، فكان يُخْطَبُ لها على منابر اليمن. واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانه على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحي ووزيره علي بن القِمّ، ويقال إن ابن القِمّ أحسن استقبال جَيّاش حين دخل زبيد، وتزوجت السيدة أروي بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأشركته معها في الحكم وكان شاعرًا جوادًا، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة[1]:

ولما مدحتُ الهبْرِزِيَّ ابن أحمدٍ ... أجاز وكافاني على المَدْح بالمدحِ

فعوَّضني شعرا بشعرٍ وزادني ... عطاءً فهذا رأْسُ مالي وذا رِبْحي

وتوفي سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمَّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢، وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية، وتزعَّم الدعوة في اليمن بعدها آل زُرَيْع أصحاب عدن وكانوا يُجْزلون العطايا للشعراء، حتى عُدُّوا عند بعض أمرائهم بالعشرات، وأكبر شعرائهم غير منازع أبو بكر العَيْذي. وله مدائح طنانة في الداعي الزرعي عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله[2]:

ما إن تَخُطُّ يَدُ العُلَى أَوْصافَهُ ... إلا بِسُمْر الخطِّ لا بيراعِ[3]

لو أن تُبَّعَ كان أدرك عصرَهُ ... أضحى له من جُمْلة الأتباع

---

١ ابن خلكان (طبع دار الثقافة ببيروت) ٢/ ٣٣٧ والهبرزي: الأسد

٢ الخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٨٢

٣ سمر الخط: الرماح. اليراع: القلم.

خضعتْ له غُلْبُ الملوكِ وإنما ... خضعتْ لضَرّارٍ لها نَفّاع

وعنتْ لعالي القَدْر منه مؤيَّدٍ ... ماضي الأوامر في الزمان مطاع

والمالُ مقتَسَمٌ مُشاعٌ عنده ... بِيَدِ النَّدى والمجدُ غيرُ مشاع

وروي لـه العـماد الخريـدة مـدائح كثـيرة مُعْجَبًـا بهـا، وذكـر أنـه كـان وزيـر الدولـة الزريعيـة وصاحب ديوان الإنشاء بها، وينقـل عـن عـمارة اليمنـي إشـادة قويـة ببيانـه وبلاغتـه. ومـع كثـيرة مـا أنـشده العـماد مـن مدائحـه للـداعي الزُّرَيْعـي لا نجـد فيهـا إشـارات للمـذهب الإسـماعيلي، وبالمثـل مـا أنـشده لـشعراء الـصليحيين، والعـماد في خريدتـه يتحاشـى مثـل هـذه الإشـارات إلا مـا جـاء عفـوا عـلى نحـو مـا يلاحـظ في القـسم الخـاص بـشعراء الفاطميـة في مـصر، واتخـذتْ موقفه أكثر كتب التراجم في عـصره وبعـد عـصره، وحـري بنـا أن نقـف عنـد ثلاثـة مـن الـشعراء الإسماعيليين اليمنيين في العصر، وهم ابن القم، والسلطان الخطاب، وعُمارة اليمني.

ابن القمّ[1]

هو أبو عبد الله الحسين بن عـلى بـن القـم، وُلـد بزَبيـد، وبهـا نـشأ وتلقـى معارفـه، واسـتيقظت مهبتـه الأدبيـة مبكـرة عـلى مـا يظهـر، وكـان أبـوه عـلي مـن أنـصار عـلي بـن محمـد الـصليحي وشـيعته، فحـين ولَّى الأسـعد بـن شـهاب عـلى زبيـد وتهامـة بعـد اسـتيلائه عليهما سـنة ٤٥٢ جعلـه وزيـره. ويبـدو أن الأب ألحـق ابنـه بـدواوين عـلى الـصليحي في صـنعاء منـذ سـنة ٤٥٨ عـلى الأقـل إذ نجـده يهنـئ المكـرم ابنـه بزواجـه مـن الـسيدة أروى الملقبـة بالملكـة الحـرَّة في هـذه السنة منشدًا:

وكريمةِ الحَسَبَيْنِ تَكْنفُ قَصْرَها ... أُسْدٌ تخاف الأُسْدُ مِن صَوْلاتِها

ظفرتْ يداك بها فَبخٍّ إنما ... لك تَذْخَرُ العلياءُ مَضْنوناتها

---

(١) انظر ترجمته وأشعاره في الخريدة وأشعاره في الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٧٤ ومعجم الأدبـاء ١٠/ ١٣٢ وفـوات الوفيـات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١/ ٢٧٨ ومعجم البلدان: مادة أشيح وكتاب " الصليحيون للهمداني في صـفحات مختلفـة (انظر الفهرس) والمخلاف السليماني ٢/ ٤١. وراجع أيضا في ترجمته وشعره المفيد في أخبار صنعاء وزبيـد لعـمارة اليمنـي تحقيق محمد بن على الأكوع.

ولما توفي على الصليحي رثاه على لسان أخته السيدة تحفة، وسرعان ما أخذ الشعراء يحرِّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبْشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا. وانبرى الحسين بن على بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلي الصليحي بمثل قوله:

أقَحْطانُ هُزِّي البيضَ واعتقلي السُّمْرا ... ورُدِّي العَوالي من دماء العِدا حُمْرا[1]

ولا تُهْدِري ثأرَ المظفَّر إنَّهُ ... بَنى لكمُ مجدًا وشاد لكم فخرا[2]

وليس في المصادر التي بين أيدينا مدائح له في المكرم، ولكن أُثرت له بعض رسائل وجَّهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمي، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء في عهده، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب في زَبيد، كلما أسلفنا، ويبدو أنه استقبل جَيّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زبيد، وربما كان من أسباب استيلائه على زبيد. وأكبر الظن أن الحسين لم يَشْرك أباه في خروجه على الصليحيين، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أرْوَى وزوجها سبأ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول في تضاعيفها:

أعلمتَ أن من الرماح قُدُودَا ... ومن الصِّفاح محاجرًا ونُهُودا

أَعْلى الأَنام أَبًا وأكرمُ طِينةً ... وأتمّ أعراقا وأصلبُ عودا

لو كان يُعْبَدُ للجلالة في الوَرَى ... بَشر لكانتْ ذلك المعبودا

هي نعمةُ الله التي ما ماؤها ... ثَمْدًا ولا معروفُها مجحودا[3]

والبيت الأول رائع في تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب،إنها ذات بأس وجلال وجمال، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان

---

(١) البيض: السيوف. السمر: الرماح. العوالي: أسنة السيوف والرماح.

(٢) المظفر: لقب على الصليحي.

(٣) ثمدًا: قليلاً.

المكرم[1] وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفي سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه في حصن أشْيح حتى وفاته، وفيه يقول من مدحة بائية:

إن ضامَك الدهرُ فاستعصمْ بأَشْيَحَ أو ... أَزْرَى بك الفقرُ فاستمطرْ بنانَ سَبَا

تَخالُ صارمَه يوم الوَغَى نَهَرًا ... تَضَرَّمتْ حافَتاهُ من دمٍ لهبا

والصورة في البيت الثاني طريفة، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعاني، مع جزالة الأسلوب ونصاعته، وفي سبأ يقول من قصيدة ثانية:

كريمٌ إذا جادتْ فواضلُ كفِّهِ ... تيقَّنتَ أن البُخْلَ ما تَفْعَلُ السُّحْبُ

وما كنت أدري قبل قَطْعِ هباتهِ ... إلَيَّ الفيافي أَنَّ أَنْعُمَهُ ركْب

والصورتان طريفتان، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجي معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد-نقلا عن نجم الدين بن مَصال- وقد أحسن صياغة مغزاه، وهو:

طويتُ إليك الباخلين كأنني ... سَرَيْتُ إلى شمس الضُّحَى في الغَياهبِ

وهو بيت من قصيدة له في ناصر الدولة أبي علي بن ناصر الدولة بن حمدان، فأعجب به إعجابًا شديدًا وقال: والله لآخذن هذا البيت منه، وما هي إلا أن مدح سبأ ابن أحمد فقال فيه:

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأيتهُ ... فكنتُ كمن شَقَّ الظلامَ إلى الصُّبْحِ

يقول العماد: " ولم يقصِّر في هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه " وربما لم تعجبه كلمة " لفظت " عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى في بيت ابن سنان على الصبح في بيت ابن القم، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغي، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع. ولاحظ الدكتور شكري فيصل في تعليقاته على أبياته في الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر، ومن ذلك أنه ردَّ قوله في جَيّاش بن نجاح:

---

(١) في المفيد لعمارة أنه (كان شاعرًا ومترسلاً يكتب عن السيدة الحرة إلى الديار المصرية).

وما أنت إلا البدرُ أظلم مَنْزلي وكلُّ مكانٍ نورُه فيه ساطعُ

إلى قول البحتري في مديح الفتح بن خاقان:

وبدرٌ أضاء الأرض شَرْقًا ومغربا وموضعُ رجْلي منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا في الصورة بحيث تُنْسب إليه، ويدل هذا البيت في قصيدة في عتاب جياش وقصائد أخرى في عتابه على أنه حاول الاتصال- أو اتصل- به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط عليه، وكأنما انضم ذلك على صنيع أبيه الذي أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد معتذرا مستعطفا. ويرد الدكتور شكري فيصل أيضًا أبياتا مختلفة له في مدحة ميمية على المتنبي، من ذلك قوله فيها:

كأن مَواضيه طُبِعْنَ من الشَّجا فهنَّ من الأعداء بين الغَلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قوله المتنبي في مديح على بن إبراهيم التنوخي:

وقد صُغْتَ الأسنة من همومٍ فما يَخْطرن إلا في الفُؤادِ

وبيت المتنبي أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعنق بينما موضعها القلب والفؤاد. وردَّ قوله في نفس القصيدة يصف الإبل التي ركبوها إلى الممدوح:

قصَدْن بنا مَنْ لو تجنَّبْنَ قَصْدَهُ سَرَتْ نحونا جَدْواه مَسْرى الغَمائمِ

إلى قول أبي تمام:

كالغيث إن جئتهَ وافاك ريِّقُهُ وإن ترحَّلتَ عنه لَجَّ في الطَّلَبِ

وأيضا بيت أبي تمام أكثر روعة. وقد ردَّ العماد قديما قوله في تصوير بأس البطل المحارب الذي يبلغ من شجاعته أن يُشْغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبِّله، ولا يزال يعانقه:

يظن هِنْدِيَّه هِنْدًا فَيَلْثِمهُ فما يزال بليلٍ مُعْرِس الضَّرَبِ[1]

إلى قول أبي العلاء في تصويره البطولة:

يقبِّل الرُّمْحَ حُبًّا للطعان بهِ كأنما هو مجموعٌ من اللَّعَسِ[2]

وبيت أبي العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق ما بين كبار الشعراء وشاعر مثل ابن القمّ: وبدون شك يُشْكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة. وله أشعار مختلفة في الهجاء والرثاء والغزل، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليين في تحمل مشقات الحب والمتاع بلذاته:

تشكَّى المحبون الصبابة ليتني تحملتُ ما يلقون من بَيْنهم وَحْدِي

فكانتْ لنفسي لذة الحب كلُّها فلم يَدْرِها قبلي محبٌّ ولا بَعْدي

ولا يُعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، زعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفي سنة ٥٨١ وهو خطأ واضح، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجري لا القرن السادس، وقد أنشدنا له أشعارا نظمها في سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩١، وربما رجع إلى مسقط رأسه زبيد بعد وفاة سبأ، وقد حاول أن ينال شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخريدة، والجزء الأخير من حياته أو قل نهايته أو بعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح، وربما أدرك أوائل القرن السادس.

---

(١) هنديه: سيفه. الضرب: عسل النحل.

(٢) اللعس: سمرة في الشفة.

السلطان الخطّاب[١]

هو الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجْوِيري الهَمْداني، كان أبوه الحسن حاكما لوادي الجُرَيب ومدينته في إقليم الحجور، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطاب كان أخا في الرضاعة للملكة الحرة أروى. وتوفي الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان في حكم الجريب، ودان له أخوه الخطاب بالطاعة، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين، ونشبت بينهما حروب انتهت في سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه،بفضل مساعدة الملكة أرْوَى له. وظل الخطاب يستدرج أخاه، حتى أمن جانبه وعاد إليه، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهله القدر طويلا، فقد عاجلته المنية في سنة ٥٣٣. وكان الأخوان شاعرين، ولكل منهما ديوان، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثاني وهو الخطاب فاطميا إسماعيليا، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعي اليمن الفاطمي في عصره الذُّؤَيْب بن إسماعيل، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا في نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن. وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أو كما يقولون علم الحقائق. وحدث أن قتل الآمر الخليفة الفاطمي في سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد، أحد أبناء الأسرة، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ،وأحدث ذلك انقساما، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة في إمامته وخلافته ابنه الأكبر،وكانت زوجة الآمر حاملا،فرأى بعض المنتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الآمر. وأعلنت الملكة الحرة أَرْوَى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور، وبذلك انفصلت الدعوى الفاطمية في اليمن عن مركزها في مصر، وانفصل معها داعيها الذُّويب ونائبه السلطان الخطاب حاكم الجريب.

---

(١) انظر في ترجمة السلطان الخطاب الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٠٧ وكتاب " الصليحيون " للهمداني ومقدمة إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية.

وقد نشر إسماعيل قربنا حسين ديوان السلطان الخطاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراته للعقيدة الفاطمية، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمي وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية في أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر وسنقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية في الديوان من خلال مديح السلطان الخطاب للآمر الخليفة الفاطمي، من ذلك قوله في قصيدته الأولى التي يمدح بها الآمر:

يا مَنْ أسمِّيه بالألفاظ معترفًا ... أنَّ المعانيَ فيها عَنْه تَقْصِيرُ

وما ظهرتَ من النّاسُوت أنت بِهِ ... تجلِّيًا لهُدانا فهْو مشكور

صَفْوٌ من الصَّفْوِ شَفّافٌ تَقدَّسَ أَنْ ... يَشُوبَ جوهَره الشفّافَ تكدير

وهو يصرح في الأبيات بأن الآمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر، ويقول إنه في الظاهر ناسوتٌ أي جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس جسما ماديا، وهو شبح يكمن فيه اللاهوت وهو الجانب النوراني. وفكرة الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين في المسيح. ويقول الخطاب عن الآمر إنه صفو شفاف لا تشوبه الأكدار أي أنه نوراني خالص. ونمضي معه إلى القصيدة الثالثة، وهي أيضا في الآمر:

يا مَنْ نسمِّيه تعريفا نقرِّرُهُ ... بشَخْصه في نفوس القوم تقريرا

لو نشاءُ لقلنا في النداء له ... بالصِّدْقِ يا حَيُّ يا قيُّوم مشهورا

يا عالِمَ الغَيب منا والشهادةِ يا ... باري البريَّة تركيبًا وتصويرا

شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ صَمَدٌ ... شهادةً لم تكن مَيْنًا ولا زُورا

والخطاب يشير في الأبيات إلى ما زعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لا يجوز أن يسمي باسم لنه اسمي من كل اسم، ومن ثَمَّ يُضْفُون أسماءه الحسنى في القرآن الكريم على

أئمتهم، غلوا مذموما، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته، على نحو ما نرى الآن عند الخطاب، إذ لا يجد بأسا من أن ي نادي على الآمر بأنه الحي القيوم وأنه الفرد الواحد الصمد، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين،ويزعم أنه عالم الغيب والشهادة، ويمضي في هذا الغلو الشنيع قائلا للآمر:

أنت الذي كلُّ شيءٍ نحن نعلَمُه ... فانٍ سوى وَجْهه عكسًا وتغييرا

أنت الذي فَطَر الأشياء قاطبةً ... خلْقًا وأمْرا وإيمارًا ومأمورا

أنت الذي سَمَك السَّبْع الشِّداد على ... علمٍ أدار بها الأفلاكَ تَدْويرا

أنت الذي سَطح الأرضَ المِهادَ لنا ... فَرْشا وقدَّر فيها الرزْقَ تقديرا

وهو يزعم أن الآمر سرمدي الحياة، لا يلحقه فناء، وكأنه إلهي الذات، ويشير في البيت الثاني إلى وصف القرآن للذات العلية في مثل قوله: (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ويجعله في البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبِّر الأفلاك فيها. والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) وقوله: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ). ويقول أيضا في مديح الآمر:

يا عِلَّةً لوجود الشيء من عَدَمِ ... وكاشفًا عنه بالأنوار للظُّلَمِ

وعالمًا بخفيّات الأمور غَدَا ... للناس أشهَر من نارٍ على عَلَم

شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتْ ... بفضلهِ سُوَرُ القرآن عن أمَم

وجَّهْتُ وجهيَ في سِرِّي وفي عَلنِي ... إليك إذْ أنتَ مَعْنَى البَيْتِ والحَرَم

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثول العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه، بحيث يصبح العقل الكلي وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات، فهو العلة الأولى،علة لوجود كل ما سواه. ويزعم الخطاب أنه: (يعلم السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أمم أي قريب، يشير إلى مثل قوله تعلي: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). وكلمة

"البيت والحرم" مصطلحان إسماعيليان، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته. وأما الحرم فهو حِمى الإمام وعقيدته الفاطمية. وللخطاب رثاء في الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله:

أمولاتنا يا مَنْ بباهرِ نورها	تجلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
ويا حجَّة المَوْلَى التي ببيانها	هَدَى الله مَنْ حَيَّرْنَهُ الشبهات
أُجلُّكِ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ	وأنت لأرواح الأنام حَياةُ

وهو يصفها في البيت الثاني بأنها حُجَّة الإمام، والحجة في الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلي مرتبة داعي الدعاة في المركز الأم مصر، وصاحبها يتولى الدعوة في إقليمه والنيابة عن الإمام. وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والآمر في اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها. ويزعم الخطاب في البيت الأخير أنها لم تمت، وكأن حياتها سرمدية كحياة الأئمة، وكل ما قدمنا غلو ومروق واضح. ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله، وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر،وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى. وجعله تعمقه في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة في بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكيلة، وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف.

عمارة اليمني[١]

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني، من أهل الجبال في تهامة. ومن قرية يقال لها مُرْطان في وادي وَساع، وهو قطحاني مَذْحجي من سلالة الحكم بن سعد العشيرة. ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تهتم بالعلم والثقافة، ولم تكد توافي سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زبيد فثقف فيها الفقه الشافعي، وقُرئ عليه مدة، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن واتصل بآل نجاح حكام زَبيد ووزرائهم،كما اتصل بآل زُرَيع حكام عدن وبعلي بن مهدي الذي خلف آل نجاح على زَبيد، وكان الأولون سُنِّيِّين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا. حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فُليتة الزيدي، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفائز الفاطمي،فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز في قاعة الذهب بقصر الخلافة، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول في تضاعيفها:

قد رُحْتُ من كَعْبة البَطْحاءِ والحَرَمِ ... وَفْدًا إلى كَعْبة المعروف والكرمِ

فهل دَرَى البيت أني بعد فُرْقته ... ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَم

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أُفيضت عليه الخلع، وأَغْدق عليه طلائع خمسمائة دينار. وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ. وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار. وقفل راجعا إلى مكة، فإلى زَبيد.و عاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته، وبالغ طلائع وبنوه في إكرامه، وله فيهم مدائح كثيرة. وقُتل طلائع بعد قدومه الثاني بأربع سنوات سنة ٥٥٦.

---

(١) انظر في عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٠١ وابن خلكان ٣/ ٤٣١ والروضتين ١/ ٢/ ٥٧٢ ومفرج الكروب ١/ ٢١٢، ٢٣٨ والسلوك للمقريزي ١/ ١/ ٥٣ والنجوم الزاهرة ٦/ ٧٠ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وتاريخ ثغر عدن لبامخرمة والشذرات ٤/ ٢٣٤ وتاريخ ابن الأثير ١١/ ٣٩٨ وصبح الأعشى ٣/ ٥٢٦ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، وذيل النكت وبه ديوانه.

وحظي بعده بجوائز الوزيرين شاور وضرغام، وله في شاور وطلائع مراث بديعة، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه، فلما وزر أعرض عنه،فعاتبه عتابا رقيقا. وما زالت العطايا تُسْبغ عليه، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته، وخاصة توران شاه الأيوبي، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها:

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ وشَفْرَةُ السيف تَسْتغني عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان أنه كان فقيها شافعيا شديد التعصب للسنة، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعي في زبيد. أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بآل زُرَيع الإسماعيليين وبأمير مكة الزيدي. ولعل السبب في أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعمَّمه أنه وجده في كتابه " النكت العصرية " يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزِّيك عرض عليه أن يدخل في العقيدة الإسماعيلية، فأجابه بأن يمنَّ عليه بسدِّ هذا الباب. ولكن كتاب النكت–فيما يبدو– أُلِّف في عصر الأيوبيين،فكان طبيعيا أن يُخْفي إسماعيليته أو تشيعه، وأن يعلن براءته في تصانيفه وقصائده من التشيع وآله. ونراه في قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها "شكاية المتظلم ونكاية المتألم " يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفائز والعاضد ووزرائهما بمثل قوله:

مذاهبهم في الجود مذهبُ سُنَّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيُّعِ

وهذا وأمثاله كان– في رأينا– سبب ضلال بن خلطان في الحكم عليه، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائحه في الخليفة الفاطمي العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لا يشك في أنه اعتنق المذهب الفاطمي الإسماعيلي، من ذلك قوله في قصيدة في مديح العاضد وطلائع:

لا يبلغ البلغاء وَصْفَ مناقِبٍ أَثْنى على إحسانها التنزيلُ

شِيَمٌ لكم غُرٌّ أتي بمديحها الـ ـفُرْقان والتَّوْراةُ والإنجيل

سِيَرٌ نَسَخْناها من السُّوَرِ التي ما شانها نَسْخٌ ولا تَبْديل

وهو يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسي، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته، وقد جاء في سورة الصف على لسان عيسى: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وهذه الفكرة التي تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين في التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب في الخليفة الآمر:

هو الذي كَنَتِ التَّوْرَاةُ عَنْهُ وفي ... الإنْجيل ما ضُمِّنَتْ فيه المزاميرُ

ودائمًا يقرِّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول في نفس اللامية السالفة، ونراه يقول في دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزِّيك:

أغني عن التَّقْليد نَصُّ إمامةٍ ... والنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْليدُ

ولا شيء من حَلٍّ وعَقْدٍ في الوَرَى ... إلا إلى تدبيره مردودُ

ملكٌ أغاثَ المسلمين وحاطَهُمْ ... منه وُجودٌ في الزمان وَجود

وهو يردِّد ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة في الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق، فهي ليست مفوضة للأمة،بل هي من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف. ويشير عمارة في البيت الثاني إلى نظرية العقل الفعال التي يمثِّلها الإمام والتي تجعله- كما مر بنا عند السلطان الخطاب- يدبِّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حَلٍّ وعَقْد. أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفيض الأفلاطوني المعروفة عند الإسماعيليين والتي تجعل الأئمة مائلين في كل وجود إنساني. ويوقل في مديح العضد من قصيدة طويلة:

كم آيةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارُها ... آلَ الوَصيِّ وللوَرَى إعلانُها

فكأنما تأويلُكم أرواحُها ... وكأنما تفسيركم أبْدانُها

وكأنَّ عِلْمَ الكائنات وديعةٌ ... مخزونةٌ وصدوركم خُزّانُها

وهو هنا يردِّد ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا والباطن لا يعلمه إلا الأئمة، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا. وليس ذلك فحسب،بل هم يعلمون كل علم، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم: علم الحاضر وعلم الغيب. وكل هذه الشواهد بينة على أن عمارة تحول في مصر فاطميا إسماعيليا. وكان حزنه لا يُحَدّ ولا يوصف حين دالتْ دولة الفاطميين، وبثَّ هذا الحزنَ الغاضب غضبا عنيفا في لامية له مشهورة استهلّها بقوله:

رميتَ- يا دهرُ- كفَّ المجدِ بالشَّللِ ... وجِيدَه بعد حُسْن الحَلْيِ بالعَطَلِ

هَدَّمْتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ ... سُقِيتَ مُهْلاً أما تمشي على مَهَل

يا عاذلي في هوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لك الملامةُ إنْ قصَّرتَ في عَذلي

وهو في هذا الاستهلال متاع لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية، وإنه ليسبُّ الدهر الذي أطاح بها ويدعو عليه أن يُسْقَى المُهْل شراب أهل الجحيم. ويدعو عُذّاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا في عذلهم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغليل نفسه. ويمضي فيدعو رفيقه أن يبكي معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل، وكأن النكبة هنا أكثر أسي وفجيعة، ويقول إن الجرح الذي أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم في الدين، ويقول:

لربَّما عادتِ الدُّنيا لمَعْقِلِها ... منكمْ وأضحت بكم محلولةَ العُقُلِ[1]

والله لا فازَ يومَ الحَشْر مُبْغضكم ... ولا نجا من عذاب النار غَيْرُ وَلِي

وهو في البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم في هذا المعقل كانت قد فسدت

(١) العقل: جمع عقال.

فسادًا لا حدَّ له، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة. وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُرَدّ القَوْسُ إلى باريها، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمي إلى الأبد. وكأنما أصابت العقيدة بَصَرَ عُمارة بغشاوة، فلم ير الحقيقة، وقد مضى يتوعَّد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير، وتمادى في هذا الغيّ والضلال ملوِّحًا بيده في وجه صلاح الدين زاعمًا أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبهم أصل الدين،يقول:

أئمةٌ خُلقوا نورا فنورهُمُ ... من نور خالصِ نور الله لم يَفِلِ[1]

والله لا زُلْتُ عن حُبِّي لهم أبدا ... ما أخَّر الله لي في مدَّة الأجَل

فالأئمة الفاطميون نور خالص، نور شفاف، وهو فيض من نور الله، لا تشوبه أي مادة، وهو غلو واضح في تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم. وكُتب لعمارة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوِّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين، في مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكاتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا، وعُرفت نيتهم ومؤامرتهم، فأحيط بهم، وأُعدموا في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة. وكان لابد لعمارة أن ينتهي هذه النهاية المفجعة بعد أن كان لدولة صلاح الدين بلسانه وهمَّ أن يكيد بيده، وكأنما غطَّى القدر- كما يقول العماد- على بصره. وقد طُبعت له مصنفات مختلفة، منها أخبار اليمن نشر كاي، ومنها مختصر المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، ومنها النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية.

---

(١) يفل: يأفل: يغرب.

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا في الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا،وهي تُنْسَبُ إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذي ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا زيديين، إذ لا تعرف نحلتهم التستر والتخفي للإمام في الدعوة، وهي لا تشارك نحلتي الإسماعيلية والإمامية في العلم الباطني، ولا تتغلغل في فكرة العقل الفعال التي مرت بنا عند الإسماعيلية والتي تعطي الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتي تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه. وهي لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة، بل يكفي أن يكون الإمام الكفء الداعي لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشريعة ورعا شجاعا جوادا، وتجوِّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وبذلك صحَّحت خلافة أبي بكر وعمر مع وجود على، ولم تجوِّز القَدْحَ فيهما كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية. وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذًا لواصل بن عطاء، وقوي هذا الارتباط مع الزمن. وإذا كانت ثورات الزيديين في الحجاز والعراق وإيران أخفقت في القرن الثاني للهجرة فإنها نجحت في المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التي أسسها غدريس بن عبد الله الحسني بفاس في عهد الرشيد، وظلت نحو مائة وأربعين عاما. ونجحت كذلك في طبرستان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة، فقامت هناك دولة يدية ظلت نحو سبعين عاما. واستطاعت أسرة بني سليمان أو بني موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم في مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وظلت فيهم حتى اضطرهم الهواشم من أسرتهم أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليماني، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب في دولة الرسوليين، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسنى عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية.

وقامت في صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين،إذ أسسها هناك الإمام الهادي إلى الحق يحيي بن الحسين بن القاسم في سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولي على

صنعاء في حقب كثيرة، حتى إذا كان القرن العاشر الهجري أنضوي اليمن جميعه تحت لوائها، وإذن كانت للزيدية في الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز، هي مكة والمخلاف السليماني وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها. وعني الأمراء والأئمة في كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه، لأنهم أقلام الدعاية للدولة، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعيا أن يعنوا بالشعر والشعراء. وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتا طريفة في غير هذا الموضع، وكان عيسى بن فُلَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعراءه وفي مقدمتهم قائده النوبي الأصل سالم بن أبي سليمان، وفيه يقول من مدحه طويلة[1]:

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادهِ ... فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ

لله يأمر باطنا أو ظاهرًا ... فتصرُّفُ الأقدار كيف يشاء

يوماه يومٌ للنَّوال وآخَرٌ ... تُرْدَى بسَطْوة بأسهِ الأعداء

إن الثناء عليك من ربِّ السَّما ... أغناك عما قالت الشعراء

وهو يغلو في مديحه لهذا الإمام الزيدي، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو في مديح الأمر الخليفة الفاطمي، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله، وهو الحجة القائمة على رعيته، وتجري الأقدار بما يشاء وكيف يشاء، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت في القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا، ومن قوله[2]:

وأَذَّنْتُ حين تجلَّى الصباحُ ... بحيَّ على خَيْر هذا العمَلْ

وكان الزيدية في الجزيرة بمكة وفي اليمن والمخلاف السليماني ينادون في الآذان: بحيَّ على خير العمل ". ويمتلئ كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة، ويكفي أن نستشهد

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٤٦.

(٢) العقد الثمين ٤/ ١٦٢.

بـبعض الأمثلـة، فمـن ذلـك قـول موفـق الـدين عـلى بـن محمـد الحنْدِيـدي في حُمَيْـضة أمـير مكـة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة[١]:

خليفةٌ لا يُخْلف الوَعْدَ ولا ... يَضَنُّ عن سائله بما اقتنَى

إمام حَقٍّ جَدَّ في الله فما ... في الله مُذْ جَدَّ وهَى ولا وَنَى

أخاف في الله تعالى مَنْ بَغَى ... وأَمَّن الخائفَ حتى أمِنَا

هو ابنُ مَنْ أَسْرَى به الله ومَنْ ... مِنْ قابِ قوسين تدلَّى ودَنا

وليس في مديحه غلـو، بـل هـو مـديح لإمـام زيـدي بـالكرم والتقـوى والعـدل ورفـع البغـي والظلـم ونـشر الأمـن، ويـشير في البيـت الأخـير إلى الإسراء بالرسـول ومعراجـه إلى الـسموات وما جاء في سورة الـنجم: (ثُـمَّ دَنَـا فَتَـدَلَّى فَكَـانَ قَـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَـى). وللحَنديـدي في مـديح أخيه رُميثة أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة[٢]:

نَسَبٌ كمشتقِّ الشموس ومفخرٌ ... باعُ الكواكب قاصرٌ عن طولهِ

أما الفروعُ فليس مثلُ فروعهِ ... وكذا الأصولُ فليس مثلُ أصوله

يا بنَ المظلَّل بالغمامة والذي ... قد أُنْزِل القرآن في تفضيله

ماذا عَسَى مَدْحي وقد نَزل الثَّنا ... فيكم من الرَّحمن في تنزيله

ووراء الحنديـدي كثـيرون مـن الـشعراء كـانوا يمـدحون أمـراء مكـة الزيـديين لا في زمنـه فحـسب، بـل في جميـع الأزمنـة، وفي سـلافة العـصر لابـن معـصوم ونفحـة الريحانـة للمحبـي طائفة كبيرة مـن مـدائح الـشعراء لهـؤلاء الأمـراء في القـرن العـاشر الهجـري،من ذلـك قـول عبـد الـرحمن بـن وجيـه الـدين المتـوفى سـنة ١٠٣٧ للهجـرة في حـسن بـن أبي تُمَـيّ أمـير مكـة مدحـة طويلة، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة[٣]:

---

(١) العقد الثمين ٤/ ٢٤٨.

(٢) العقد الثمين ٤/ ٤١٩

(٣) سلافة العصر ص ٧٩.

ملكٌ إذا ما جال يومَ كريهةٍ ... لم تَلْقَ غير مُجَدَّلٍ ومُعَفَّر

ملكٌ نَداه البَحْرُ إلا أنه ... عَذْبٌ أهذا البحرُ نهرُ الكوثَرِ

ذو الهمة العَلْيا قد نال ما ... عنه تقصِّر همَّة الإسْكندر

أعْظِمْ بها من نِسْبةٍ نبويَّةٍ ... عَلَوِيَّةٍ تَنْمِي لأصلٍ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السليماني وأشرافه كانوا شعراء مثل ابن وهّاس ودَهْمش وهما شاعران مجيدان، ومن أمرائهم الممدّحين غانم بن يحيي بن حمزة السليماني المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مَكْرَمان مدحه بقصيدة لامية أعطاه عليها ألف دينار، وفيها يقول[١]:

علويٌّ متوّجَ هاشِميٌّ ... حسنيٌّ نوالُه مبذولُ

يا سليلَ البَطينِ والحرّةِ الزّهْـ ... ـرا هيَ الطُّهْر والحَصانُ البَتُول[٢]

خمسةٌ خصَّهم بتخصيصه الخا ... لقُ ربِّي وهْو اللطيف الجليل

ما لهم سادسٌ غداةَ الذي مَـ ... ـدَّ عليهم كساءه جِبْريل

وهو يشير في البيتين الثالث والرابع ما تذكره الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ألقي عليه وعلى عليٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال: نحن أهل البيت إيماء على قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). ومعروف أن المخلاف السليماني أصبح جزءا من ارض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليمانيين، وكانوا يصلون الشعراء، ويقدمون لهم مدائحهم، على نحو ما نجد عند ابن هُتَيْمل في مديحه للأمير قاسم بن على صاحب صُبيا، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله[٣]:

حسنيٌّ للسائلين ولِلْمحْـ ... ـروم فيما حوتْ يداه نَصيبُ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٦٢ وما بعدها.

(٢) الحصان البتول: العفيفة الطاهرة.

(٣) ديوان ابن هتيمل ص ٣٥.

ساحةٌ لا يزال فيها رئيسٌ ... مستجيرٌ وسائلٌ لا يَخِيب

عزّ في ظلِّ رمحك القاسميّو ... نَ ومنهم قبائلٌ وشُعُوب

وسِنانُ القناة لولاه في طَـ ... ـيِّ العَوالي لم ينفع الأُنْبُوب[1]

والمركز الثالث للزيدية في الجزيرة أهم مراكزهم، وكانت صَعْدة نقطة الدائرة فيه، فمنها انبعثت النحلة، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجري تحت رايتها. ومؤسس هذه الإمامة الزيدية- كما أسلفنا- يحيى بن الحسن بن القاسم، وله مصنفات مختلفة في الفقه والعقيدة والتفسير،ويقول فيه ابن حزم: " له رأي في الفقه وقد رأيته، ولم يبعد فيه عن الجماعة " وكان شاعرا، وله وصية شعرية ذكرها في كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد، ومن شعره[2]:

بني حَسَنٍ إني نهضتُ بثأركمْ ... وثأرِ كتابِ الله والحقِّ والسُّنَنْ

وصيَّرتُ نفسي للحوادثِ عُرْضَةً ... وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطن

ويتوالى أبناؤه على صَعْدة من بعده، حتى يقدم أبو الفتح الديلمي الحسنى في القرن الخامس فينتزعها منهم، وينسحبون على جبل قطابة، وتتوالى أئمتهم هناك، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة. ومن أهم أئمتهم وأشهرهم في القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢- ٥٦٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميري الذي مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها[3]:

دعيني أُطْفي عَبْرتي ما بدا ليا ... وأبْكي ذُنوبي اليوم إن كنتُ باكيا

---

(١) العوالِي: جمع عالية وهي النصف الذي يلي السنان من القناة. الأنبوب ما بين الكعبين من القناة.

(٢) صبح الأعشى ٥/ ٤٧.

(٣) انظر في هذا البيت والبيتين التاليين الجرافي ص ١١٥.

واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم، ولم يكد يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظية مطلعها:

ذكرتَ ديارًا دارِساتٍ خَواليا رُسُومًا عَفَتْ عن أهلها ومغانيا

وهي قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية، ومما كتبه إلى المتوكل قوله أبيات:

وأنت تصلح للرّايات تَعْقِدُها وفي المواكب تُحْيِي الدِّينَ والسُّنَنا

ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بني أيوب في اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة. أما في عهد الرسوليين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين المكني بأبي طير (٦٤٦- ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولي، انتهت بمقتله في معركة الحُصَبات. وكان أحمد بن الحسين جوادا، مدحه كثير من الشعراء، وفي مقدمتهم ابن هُتَيْمل، ويقال أنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا، وقد عرضنا في ترجمته طرفا من مجائحه الرائعة فيه، ومن أشهر الأئمة الزيدية في عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢- ٩٦٥هـ)، وهو ممدوح موسى بن يحيي بهران، وسنترجم له. أما أئمتهم في عهد الاحتلال العثماني الأول (٩٤٥- ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩- ١٠٥٤) وهو الذي قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد، ولشاعره محمد بن على بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته، مطلعها[1]:

بلغتْ بنو الزَّهْرا بك المأمولا وبطولِ سَيْف عُلاك زادوا طولا

(١) الجرافي ص ١٤٨.

وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظَفار ودانت له جميع الديار اليمنية، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهتدي من ميمية طويلة[١]:

إمامٌ عظيمُ السرِّ أمّا نهارُهُ ... فصومٌ وأمّا لَيْلُه فقِيامُ

رياضُ الأماني في حِماه نَضِيرَةٌ ... وسُحْبُ النَّدى من راحَتَيْهِ سِجامُ[٢]

تحمَّل سِرُّ المصطفى بسريرةٍ ... وسيرةِ عَدْلٍ لا تكاد تُرام

تدفَّق بَحْرُ العلم في طيِّ صَدْرِه ... أواذيّ لُجٍّ دُرُّهُنَّ تُؤام[٣]

ويموج كتاب " نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف " وهو في مجلدين ضخمين بشعر زيدي كثير. واشتهرت قصيدة تاريخية في نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمني المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمي البسامة، وعرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف لها ذيول كثيرة تشير إلى الأئمة التالين في اليمن[٤]، وحري بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية، أحدهم مكي هو يحيي بن يوسف الملقب بالنشْو، والآخران يمنيان، هما موسى ابن يحيي بهران وعلي بن محمد العَنْسي الصنعاني.

يحيي بن يوسف النَّشْو[٥]

مكي مولدا ومنشأ وحياة، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبي العباس النحوي وأخذ كل ما عنده،

---

(١) سلافة العصر ص ٤٧٩.

(٢) سجام: سائلة كثيرة الانصباب.

(٣) أواذي: أمواج. تؤام: مزدوج.

(٤) انظر في البسَّلمة وذيولها نشر العرف لزيارة ٢/ ١١٣ وما بعدها.

(٥) راجع في ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٧/ ٤٥٢ وكذلك ترجمة عطيفة في ٦/ ١٠٢ وابنه مبارك في ٧/ ١٢٤ وابنه محمد في ٢/ ١٤٤ وابن أخيه عجلان في ٦/ ٧٢.

واستمع إلى غير محدِّث، ونال في الحديث إجازات مختلفة. وعُني بالشعر والرسائل،فكتب الإنشاء لأمراء مكة في زمنه: عُطَيفة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمهما عجلان بن رُمَيثة.و كانت ملكته الشعرية خصبة، ويقول مترجموه: " له شعر كثير سائر مدح وهجا به جماعة من الأعيان " وتوفي سنة ٧٨٢. ونجده يكثر من مدائح أمراء مكة الزيديين وفي مقدمتهم من سميناهم آنفا، وفي عُطَيْفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول في بعض مدائحه له:

له هِمّةٌ تَسْمو إلى كلِّ غايةٍ	هو الطّاهِرُ الأنْسابِ والعَلَمُ الفَرْدُ
هو الملكُ الماحي لمن كان قبله	فما في ملوك الأرض طُرًّا لَهُ نِدُّ
هو المنعم المُولى الجميلَ تفضلاً	فمن سَيْبه قد أوْرَقَ الحَجَرُ الصَلْدُ[1]
تَخِرُّ له كلُّ الملوكِ مهابةً	وتَخْرَسُ من إجْلاله الأَلْسُنُ اللُّدُّ[2]

وواضح أنه يبالغ في مديح عطيفة، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجري بما يشاء، وينعته بالكرم والعدل، ويشيد بنسبه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو فخر ما وراءه فخر، ويمدح ابنه مباركا المتوفَّى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة، وفيه يقول:

ورثَ الفخرَ عن جدودٍ كرامٍ	قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالهْ
شَرَفٌ ما استفاده من بعيدٍ	مَلِكٌ أرْفعُ الملوك جَلاله
نَسَبٌ بين أحمدٍ وعليٍّ	فَهُوَ من خير [آلِ] تلك السُّلالَه
وهْوَ كالشمس مُدْركٌ آمالَهْ	وجميعُ البلاد تَهْوى وِصاله

وواضح أنه سلس اللغة، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان، وهي شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب، وله من قصيدة في محمد بن عطيفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة:

إمامٌ له فَضْلٌ عظيمٌ على الوَرَى	كريمُ الأيادي بالسَّماحة أَوْحَدُ

---

(١) السيب: العطاء: الصلد: الصلب.

(٢) اللد: شديدة العداوة.

يجودُ بما تَحْوِي يداه تكرُّمًا ... ويعلَمُ أن المال ليس يُخَلَّد

فتى لم يَرَ الراءون مثلَ صفاتِه ... إذا قيل هذا حاتمٌ فَهْو أجود

أجلُّ الوَرَى جاهًا وقَدْرًا ورفعةً ... وأكرمُ مَنْ يُرْجَى عَطاهُ ويُقْصَد

وعلي هذا النحو يشيع الانسجام في كلماته، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا، وإنما تجد صفاء في الجرس، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما في هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما في الأبيات السالفة. ومن قوله في مديح عجلان بن رُميثة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة:

ماذا يقولُ المدحُ فيه وما عسى ... إذ كان يخدم جَدَّهُ جِبْرِيلُهُ

أما الملوك فكلُّهم من دونِه ... كالبدر في أفق السماء حُلولُهُ

سلطانُ مكةَ والمشاعرِ والصَّفا ... منْ لا يخاف من الزمان نزِيلُهُ

لو حاول النَّجْمَ العظيمَ لنالَهُ ... تُنْبيك عنه رِماحُهُ ونُصُولُهُ

سكنتْ محبَّتُه القلوبَ جميعَها ... لما تقارنَ سَعْدُهُ وقَبُولُه

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسنيين من آبائه وأقاربه يحِبُّ أهل السنة وينصرهم على الشيعة، ويقال إنه كان شافعي المذهب[1] وقصيدة النَّشو فيه بديعة، وقد افتتحها بغزل رائع، إذ يقول:

لولا الغرامُ ووَجْدُهُ ونُحولُهُ ... ما كنت تَرْحمه وأنت عَذُولُهُ

إن كنتَ تنكره فسَلْ عن حالِهِ ... فالحبُّ داءٌ لا يُفيق عَليلهُ

يا مَنْ يلومُ على الهَوَى أهلَ الهَوَى ... دَعْ لَوْمَهُمْ فالصَّبْرُ مات جَمِيلُهُ

وأنشد صاحب العقد الثمين في ترجمته للنشو مدائح له جيدة في الشريف طُفَيْل بن منصور الحسيني أمير المدينة، استهلها بغزل بديع، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد

---

(١) النجوم الزاهرة ١١/ ١٣٩.

بمحبوبته وجدا لا يشبه وجد، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأدوية والتلال، ولكن من أضلعه،ومن غزله الرقيق:

أين المفرُّ لمن هواك طَلِيبُهُ ... وسِهامُ لَحْظِكَ بالسَّقام تُصِيبُهُ

يشكو ولا أحدٌ يرقُّ لما بِهِ ... وارحمتاهُ لمن جفاهُ حَبِيبُهُ

وجميعُ ما في القلب منك عرفْته ... أتكون ساكنَه وأنت تُذيبُه

حَنَّ العذولُ عليه حين هَجرْتَه ... ورَنا له الواشي ورقَّ رقيبُهُ

يا وَيْحَ من يَرْثى له أعداؤه ... فشُجونُه لا تنقضي ونحيبُه

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام، غزل يترقرق فيه الشوق واللهفة والحنان، حتى ليحنّ على المحب العذولُ والواشي الرقيق، فكلهم يأسى له، وهو يلتاع بحبه وشجونه، ولا يكفُّ عن النحيب، إذ يحب صاحبته كما لم يحب فتاة قط، ويحتمل في ذلك آلاما ثقالا.

وله مدائح نبوية كثيرة بديعة، يستهلها بنسيب رائع،من مثل قوله:

عَرِّجْ بمُنْعَرَجِ اللِّوى والمُنْحَنَى ... فعساك تَظْفَرُ مِنْ لِقاهم بالمُنَى

أهواهُمُ وهواهُمُ لا ينقضي ... أبدًا وإن شَطَّ التباعُد بيننا

فلئن ظفِرتُ بزورةٍ أَحْيا بها ... فليَ السعادَةُ والمسرَّة والهَنا

يا أهلَ طَيْبَةَ إنَّ لي في حَيِّكم ... قمرًا له كلُّ المحاسن والسَّنا

أنوارُهُ منها الدَّياجي أشرقتْ ... بَدْرٌ به قد نَوَّرتْ كلُّ الدُّنا

ولهُ الفضائِل والمآثرُ والعُلا ... وله المفاخرُ والمحامد والثَّنا

والنسيب كالمديح النبوي يذوب رقة وخفة ورشاقة، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافي واصطفاه الألفاظ إحسانا بعيدا.

موسى بان يحيي بَهْران[١]

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢-٩٦٥ هـ) وليس بَيْنَ أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته.و كان شرف الدين مَدَّ يده إلى المصريين مُعينا حين أرسل قانصوه الغوري طائفة من الجراكسة في سنة ٩٢١ إلى جنوبي البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت في جزيرة كَمَران، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بني طاهر أن يعينها ضدهم،ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من العون والمؤن، وشكا من السلطان عامر، فتعاون قائدها معه على حربه و قضيا عليه وعلي حكم أسرته سنة ٩٢. ودخل شرف الدين صنعاء، ودخلت البلاد جميعها في طاعته وأكثرت الشعراء من تهنئته بهذا النصر المبين، وفي مقدمتهم موسى بن يحيي بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة، وفيها يقول:

خليفةُ الرحمن في أرضهِ ... مبارَكُ الوَجْه كريمُ الجدُودْ

بَرٌّ كريمٌ من بني المُصْطفى ... إمامُ حَقٍّ ساعدتْه الجُدود

قالتْ له الأيام إذ أقبلتْ ... ما أحسنَ الوَصْلَ عقيبَ الصُّدود

وأهلَك الباغين حتى ثَوَوْا ... واستبدلوا بعدَ القصور اللُّحود

واستبشرَ العدلُ بأيامهِ ... فامتلأ الغَوْرُ به والنُّجُود

وأصبحتْ صنعاءُ من عُجْبِها ... ترفُل في مُستحسنات البُرود

وقد ورَّى الشاعر في البيت الثاني بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما في البيت الأول- وكما قد يتبادر- وإنما يريد بها الحظوظ. وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء. ولا يلبث أن

---

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيي بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ١٨٤-١٩٩،١٨٧-٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة السلفية) ص ٤٩، وللشاعر ص ٤٩، وللشاعر ديوان نظمه في مديح الإمام شرف الدين.

يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله في كل مكان للعدل الذي لا تصلح حياة الأمم بدونه، ويشير في البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا. ويسترسل في القصيدة منشدا:

يا شرفَ الدين وُقِيتَ الرَّدَى ودمتَ تَحْمي بالحِداد الحدودْ

لا غَرْوَ أنْ سُدْتَ جميعَ الوَرَى مثلُك يا بَحْرَ النَّدَى مَنْ يسود

علمُك بحرٌ ماله ساحلٌ زَنْدُكَ أَوْرَى من جميع الزنود[1]

وجودُ كفَّيك إذا ما همَى غيثٌ مُغِيثٌ ما له منْ رعُود

وفي البيت الأول جناس واضح بين الحداد أي السيوف والحدود. ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس في شعر اليمنيين، وقد مضوا أيضا يكثرون من التورية محاكاة للمصريين. والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشريعة. وفي الأبيات السالفة مدحه بالعدل. وكل هذه مبادئ أساسية في الإمامة الزيدية كما مر بنا في صدر هذا الكلام. ومضى في القصيدة مبالغا في مديحه خاتما لها بالدعاء له. ولموسى قصدية بائية بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر، وفيها يقول:

حَوى شرفُ الهدى والدين مَجدًا رفيعًا وابْتَنَى شَرَفًا عَلِيًّا

بَراه إلهُنا بَرًّا صَفِيًّا ولم يخلقه جَبّارًا عَصِيًّا

سَرى سِرُّ النبوَّة فيه حتى حكي عن جَدِّه خُلُقًا سَنِيًّا

حَوَى علمَ الذين مضوا جميعًا وأصبح وارثا لهمُ وليًّا

تأزَّرَ وارتدى بالحكْم كَهْلا وأُوتِيَ حُكْمَ خالقِه صَبيًّا

وواضح أن قوافي الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم، وأن الشاعر لم يكتف بذلك، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء في السورة من نعوت للنبي

---

(١) أورى: من ورى الزند إذا خرجت ناره.

يحيي، وقارن بين البيت الثاني وقوله تعالى في نعت يحيي بن زكريا: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا). ويشير الشاعر في البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التي جاءت في السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا). ويكمل الفكرة في البيت الرابع. ولا يلبث أن يسلك في البيت الخيرة نهاية الآية الكريمة: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا). وهو غلو واضح. ويمضي في القصيدة قائلاً:

وقُلْ يا بن الأكارمِ من قريشٍ ... وأَحْسَنَهم- إذا ذُكِرُوا- نَدِيَّا

ومن دَنَتِ الملوك له وذلَّتْ ... وخرَّت من مهابته جِثيَّا

بفضلك تُتَّقَى نُوَبُ الليالي ... فكُنْ في النائبات بنا حَفِيَّا

والشطر الثاني في البيت الأول مستمد من قوله تعالى في السورة: (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) أي مجلسا وجماعة. والبيت الثاني يستضيء بالفاصلة (جِثِيًّا) الواردة في السورة أي تَخِرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيئبة له وإجلالا. وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم في السورة لأبيه: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) أي رءوفًا يرعاني. ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول:

عليك سلامُ رَبك ما تَغَنَّتْ ... حَمامُ الأَيْك صُبْحا أو عَشِيّا

وصلَّى الله خالقُنا على مَنْ ... تَخَيَّره نَبِيًّا هاشميّا

محمدٍ المشفَّعِ في البَرايا ... صلاة تُبْلغ الأمدَ القَصِيّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة في القرون الأخيرة من هذا العصر، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله لأمته يوم القيامة. ولهذه القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان، ومن قوله في مقدمة القصيدة الأولى:

لمقلتي في خَدِّهِ جَنَّةٌ ... محفوفةٌ بالنّار ذات الوَقُودْ

له سيوفٌ طالما سَلَّها ... من لَحْظه يَحْمي ورودَ الخدود

سبحانَ من صوَّره فتنةً ... لخلقهِ وهو الرحيمُ الوَدُود

لم أدْرِ أين الثَّغْرُ مِنْ عِقْدِهِ ... لما تساوى ثَغْرُهُ والعقود

في المَها ضِدّان لم يَبْرحا ... قساوةُ القَلْبِ ولِينُ القُدود

والأبيات تكتظ بالصور وبعنصر المفاجأة الذي يجعلها طريقة كل الطرافة، فالورود في خَدِّ صاحبته جنة محفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية، وما لحظها إلا حامٍ بسيوفه لورود الخدود، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة. ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة، فلا يدري أين ثغرها ولآلئ أسنانها وأين العقود ولآلئها فقد اختلط عليه الأمر. ويخالها تحمل من المَها قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته. أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الأبيات:

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ ... أتفقدُ من جِنان الخُلْد شَيَّا

فقال وقد تعجَّب من مقالي ... جِنانُ الخُلْد قد جُمِعَتْ لدَيَّا

فقلت: فسِحْرُ بابلَ أين أَضْحَى ... فقال: أما تَراه بِمُقْلتيَّا

فقلتُ: الورْد أين يكون ؟ قل لي ... فقال: أما تراه بوَجْنَتَيَّا

فقلت الشَّهْد أين ؟ فقال: هَذِي ... شِفاهي قد حوتْ شَهْدَا جَنِيّا

ويستمر في حواره مع صاحبته سائلا عن البرق، فتذكر له أن يطلّ من مبسمها الوضيء ويسألها عن المرآة وجيد الغزال والثريا فتبدي له خدّها الباهي وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة. ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه، وفي الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونعمه الموسيقي المصفَّى، ولعل ذلك ما دفع المغنين في اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين، وخاصة بمقدمتيهما، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين.

علي بن محمد العَنْسيّ[١]

يمني صنعاني، نشأ بمدينة صنعاء في بيت علم وفضل، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق. حتى إذا تزود من كل ذلك زادا كافيا قُلِّد القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدي محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧- ١١٢٨ هـ) وما زال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدي التالي المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨- ١١٣٩ هـ) بالقضاء في بلاده وفي وصاب غربي زَبيد. وفي سنة ١١٣٦ وُشي إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة: " سماعا عبادَ الله أهلَ البصائرِ " وهي قصيدة تصور ظلمته وتدعو للثورة عليه. وفقبض عليه القاسم وألقي به في غياهب السجون، وأخذ العَنْسيّ يرسل إليه قصائد مستعطفا بمثل قوله:

إمامَ الوَرَى عَطْفًا على خائفٍ عَطْفا ... بحق الذي أبقاك في خَلْقِه كَهْفا

فوالله مالي قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُه ... وهذا الذي أُبْدِي ولله ما يخفى

إمامَ الهدى هَبْنِي جنيتُ جنايةً ... فهبني لأطفالٍ كطير القَطا ضَعْفا

وتحقق القاسم من براءته، فردَّ إليه حريته، وعينه حاكما بالحَيْمَة من بلاد صنعاء، وظل بها إلى أن لبَّى نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٦ م. ويكتظ كتاب نشر العرب بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء في ترجمته وتراجمهم. وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث في عهد المتوكل القاسم بن الحسين، ومن ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب البحة في صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها:

أما قيل في البستان وهْو بأهلِهِ ... وبالمُلْك سامٍ لا يدانيه غُمْدانُ[٢]

---

(١) انظر في ترجمة العنسي أشعاره البدر الطالع للشوكاني ١/ ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢/ ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم المتوكل القاسم بن الحسين والسيد عبد الله بن على الوزير ومصطفي الحموي وأحمد بن عبد الله الجربي وصلاح بن الحسين.

(٢) غمدان: قصر عتيق باليمن.

ويَعْمُره من يَعْمُر الدينَ عدلُه ... ويَحْيى بِهِ معنى الفخار ويزدان

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم في صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه، ففتك بهم فتكا ذريعا. وصوَّر ذلك العنسي في ميمية عارض بها ميمية المتنبي في سيف الدولة التي وصف فيها واقعة الحدث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة. وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه، من مثل قوله:

نثرتَ دنانيرَ الوجوهِ على الثَّرى ... كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ

هنيئًا لضَرْب الهام والمجد والنَّدى ... وراجيك والإسلام أنك سالم

وقوفُك ما بين الخميسين باسمًا ... وموجُ المنايا حولك المتلاطم

ولستَ مليكا هازما لنظيره ... ولكنك الإسلامُ للشرك هازم

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبي: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم". وهي ظاهرة تلاحظ في شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهين لا في المديح فحسب، بل في كل الأغراض الشعرية. ونري العنسي يقول في افتتاح قصيدة روضية:

يا سَميري وللفتوة قومٌ ... خُلقوا من سُلالة الإنسجامِ

بطراز الرفّا بتشيب مِهْيا ... رٍ بِلُطْف البَها بطبع السَّلامي

وهو يصرح في البيتين بأنه من قوم يعنون في شعرهم بالانسجام الموسيقي على شاكلة السَّرِيِّ الرَّفاء المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذي يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقة والسلامي المعروف بجمال نغمه. وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العَنْسي وحاكاهم وعارضهم في شعره. وله قصيدة تاريخية شيعية في نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما باديا بعلي بن أبي طالب الذي اقتلع باب الحصن في خَيْبر، فاستؤصلت شأفة الكفر، ويذكر قتلة لعمرو بن ود فارس قريش يوم الخندق ويُشيد

بفاطمة الزهراء وبانيها الحسن والحسين ريحانتي أهل الجنة وبعلي زين العابدين، ثم بإمامهم زيد منشدا:

ويا خير من سَلَّ الحُسامَ وقد طغَى ... لئيمُ بني مَرْوانَ أشْقى بني الدَّهْرِ

فأصبح مِنْه الجِذْع قد عانق العُلا ... و لكنها في الدين قاصِمَةُ الظَّهْر

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك في الكوفة ومقتله هناك وصلبه، ويذكر أخاه محمدًا الباقر وابنه جعفرًا الصادق، ويذكر ثورات الحسنيين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسنى على الخليفة العباسي الهادي في الحجاز ومقتله بفَخّ بالقرب من مكة، كما يذكر وقوع يحيي أخي النفس الزكية في يد الرشيد وإلقائه به في غياهب السجون حتى مات. ويذكر الزيدية في طبرستان وآمل. ثم يتحدث عن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى مؤسس مذهب الزيدية في اليمن، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأمجادهم، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذي تغلب على العثمانيين وردَّهم على البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول:

ويا حُجَّة الله الذي قام داعيًا ... إلى الله فردًا لا بزيدٍ ولا عَمْرو

وبشَّرَتِ الناسَ الهواتفُ باسمهِ ... كما بَشَّرتْ بالمصطفى مبدأَ الأمر

فأخلا عُلوجَ الترك عن يَمن الهُدَى ... بِضَرْبٍ كما هاج الوَهِيجُ من الجَمْر

ويلاحظ أن العنسي لا يقف عند مبادئ الزيدية في مديحة، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية في أئمتهم. وقد ساق في أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الخفي من علم الجفر، وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه، ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل، والزيدية لا يؤمنون في إمامهم بمعرفته لهذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة، ومع ذلك نري العنسي يشيد بمعرفة جعفر الصادق له، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به. وقد يكون في هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا

تعرفها نحلتهم، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله. ومر بنا أنه اصطلاح إسماعيلي وأن المراد به أن الداعي للمذهب في بلاده. ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفي، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدي الشيعي المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ في تصوُّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم، كما يفعل الإسماعيلية، وربما كتب العنسي هذه القصيدة في سجنه تقربا على القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة. وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن على الوزير الذي التزم في جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر. ودفع ذلك العنسي إلى التماس التورية بدوره في كثير من أبيات قصيدته. وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثير من أشعارهم. والقصيدتان من وزن الطويل، وقد ضمن العنسي قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلي مثل: (قضاها لغيري وابتلاني بحبها) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبي في كافور مثل: (كفى بك داء أن تري الموت شافيا) وكان هذا التضمين في الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعَدّ من الطُّرَف البعيدة.

٣

شعراء الخوارج

مرَّ بنا في الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنَّجَدات والصُّفْرية، وكان نشاط الأزارقة في فارس وكرمان والصفرية في الموصل والنجدات في اليمامة،وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموي. أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمي فقد ظلت حية طوال عصر بني أمية والعصور التالية، واتخذت مركز نشاطها في مدينة نَزْوَى داخل إقليم عُمان جنوبي الجبل الأخضر، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مر بنا في غير هذا الموضع، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري أظلت البلاد جميعها راية الإباضية إلى اليوم. وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان، وكانت تقع أحيانا في أيديهم، واستطاعوا في حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت، ومن أهم أئمتهم القدامي الخليل بن شاذان، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجي الإباضي على حضرموت، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمي، وكان شاعرا وله في الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالي والحربي ضد خصومه، وفيه يقول[1]:

هذا الخليلُ إمامُ المسْلمين حَكَتْ ... أنوارُ سِيرته في العَدْل نيرانا

ويكتظُّ ديوانه بمدائحه، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حربي إلا ويرسل إليه القصائد مهنئا. وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقي على أبي إسحق عاملا له على حضرموت، ويُعَدُّ راشد أهم إمام خارجي في الحقب الأولى لهذا العصر، إذ استولى على عُمان، وأصبحت البلاد جميعها يُظِلُّها لواء الإباضية على أن استطاع بنو نبهان في القرن السادس أن يستخلصوا منهم عمان. وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج سلطانهم على البلاد جميعها، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة في القرن العاشر، ثم يستولي عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤- ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي

(١) تحفة الأعيان ١/ ٢٥٨ وما بعدها.

الخوارج، وكان البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صُحار ومسقط في أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠- ١٠٩١ هـ) أن يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكِّل بهم وبأسطولهم في شرقي إفريقية وغربي الهند. وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافري ممجدًا[١].

ثُمَّ أَوْرَى لَمَسْقَطٍ سِقْطَ عَزْمٍ ... أسقط الظالمين منه ضِرامُ[٢]

وغدَتْ من عُمانَ كفُّ بني الأصْـ ... ـفَرِ صِفْرًا قد هزَّها الانهزام[٣]

وبِمِمْباسَةٍ أذاقهمُ بَأْ ... سًا بَئيسا سِيئَتْ بهِ الأصْنام

ولدى زَنْجِبارَ زَجْرَ فيهم ... وَعْدُ زَجْرٍ لم يُنْجِ منه اعتصام

وبِبُمْبايَ نابهم منه نابٌ ... لم يَشُبْهُ عن المَضيِّ انهتام[٤]

وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالي في ممباسه وزنجبار وفي بمبي بالهند. وهي انتصارات جديرة بكل تمجيد وإشادة. وخلفه ابنه بِلْعُرْب، وكان شاعرا. وقد تربي في كنفه شاعر خارجي مهم يسمي الحُبْسي، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم، وفيه مدائح كثيرة في بلعرب بن سلطان، وفيه يقول[٥]:

يا مَنْ إذا ثارَ في الهَيْجاء يفعل في ... أعدائه فِعْلَةَ الجزّار في البُدُنِ[٦]

ومَن إذا فاخر الأشراف في مَلأٍ ... شاعتْ مفاخرُه في الشام واليمن

هذا الكريم إلى تَشْفيك رؤيتهُ ... من كل داءٍ ومن هَمٍّ ومن حزَن

بلْعُرْب نَجْلٌ لسلطانَ الذي حَسُنَتْ ... أخلاقهُ وهْو ربُّ المنظر الحسن

---

(١) التحفة ٢/ ٦٠.

(٢) أورى: أوقد. سقط النار: شرارة أو شعلة منه.

(٣) يريد ببني الأصفر البرتغاليين.

(٤) انهتام: تكسر ثناي الأسنان من أصولها.

(٥) التحفة ٢/ ٨٧.

(٦) البدن: النوق والبقر المهيأ للذبح.

وواضح أن شعره متوسط. وأجود شعراء عُمان في أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرَّواحيّ العُماني، وهو شاعر بارع، وتوفي سنة ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠م ولذلك نري أن نؤخرُه إلى العصر الحديث في عمان.

ولابد أن نعرض لدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زَبيد من بني نجاح، وقد ظلت نحو خمسة عشر عام، وكان مؤسسها على بني مهدي الحميري يعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج، وهو أكثر مذاهبهم تشددا، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه، ويسترقّ ذراريهم. ولم يقف عند مبادئ الأزارقة، فقد استباح نساء المسلمين، وخلط آراءه بشي من مبادئ الإسماعيلية، فادَّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدي. واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر، وتولى بعده ابنه المهدي، وسار سيرة أبيه في سفك الدماء وسَبْي المسلمين، واستولى على تعزّ والجَنَد، ويقول العماد الأصبهاني إنه ادعي الإمامة وأقبل على شرب الخمر. وتوفي سنة ٥٥٩، وخلفه أخوه عبد النبي، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩. ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسبح[1] وعبد الله[2] بن أبي الفتوح الحرازي ومحمد بن عمر العمراني وله من قصيدة يمدح بها عبد النبي[3]:

وضحتْ شموسُ الحق بعد أُفُولِهِ ... ورَسَتْ هنالك قاعداتُ أُصولِهِ

ونقف قليلا عند شاعر من شعراء الإباضية، هو أبو إسحق الحضرمي، وشاعر من شعراء دولة بني مهدي الخاردية،هو ابن الهُبَيْني.

---

(١) الخريدة قسم للشام ٣/ ٢٧٢.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٢٧٣.

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ١٩٣.

أبو إسحق الحضرمي[١]

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهَمْداني الحَضْرمي، وُلد بحضرموت ولا يُعْرَفُ بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد في مستهل القرن الخامس الهجري أو في أواخر القرن الرابع. وهو من بيت علم وفضل، كان أبوه- كما يقول مقدم ديوانه- عالما ورعا زاهدا متقشفا. ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله، ومثل كثيرين من أهل حضرموت، ونشأ ابنه على عقيدته، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها في الناس من حوله، وفي نسبه وإباضيته يقول:

فإنْ تَسْألي عنِّي وعن أهل مذهبي ... ومن أين داري أنت يا أمَّ حازمِ

فَإنيَ من هَمْدانَ أصلي وقُدْوتي ... فمرداسُ والأوطان أرضُ الحضارِم

أنا الرجلُ الداعي إلى الحقِّ والذي ... أبتْ نفسُه شَتْمَ الطُّغاة والأشائم

أنا الرجلُ الشارِي الذي باع نفسَهُ ... وأصبح يرجو الموتَ عند التصادم

وهو في الأبيات يصرح بأنه حَضرمي من همدان، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية، ويصف نفسه بأنه من الشراة، وقد سمي الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد في سبيلها حتى يفوز برضوان الله، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا، مما جعله يخلف ديوانا، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما، وهي حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية في نَزْوى إذ نراه على رأس حملة للخيل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضرموت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم لخلفه راشد بن سعيد الذي مَدَّ جناح سلطانه إلى عُمان، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان في قصائد كثيرة، بمثل قوله:

---

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الحضرمي وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ وتحفة الأعيان ١/ ٢٥١ وفي مواضع متفرقة، وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان الباروني.

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذي كملتْ ... له الخصالُ مُروءاتٍ وإيمانا

إني أحبُّك والرَّحمن يعلمُه ... حبَّ احتسابٍ إلى ذي الطَّول قُرْبانا

ويطلب في القصيدة معونة ليحطم الغواة الضالين. وكانت لا تزال تأتيه المعونات ولا يزال يحارب أعداء عقيدته في حضرموت، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين البدو في المدن الحضرمية، فكان لا يزال يرسل إليهم الحملات، ولا يزال بهم حتى يُلْقوا له عن يدٍ وهم صاغرون، وصوَّر ذلك في قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه في كل مكان بحضرموت، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مذعنة مستسلمة، ويقول للخليل في إحدى قصائده:

سلِ الخُطَبا لما دَعَوْا لك جهرةً ... على رَغْم أهل الجَوْر بعد التصادمِ

وسَلْ عَرَب البَيْداء لما أقتهم ... عشيَّة خانوا العهد سُمَّ الأراقم

وأمّا نواحي حَضْرموتَ فإنها ... بحَوْل إلهي طوعُ أمري كخاتمي

ولم يَبْق لي إلا الصُّلَيْحيُّ قائما ... وها هو أيضًا سَعْدُه غيرُ قائم

ونحن إليه واردون بجيشنا ... فما هُوَ أَدهَى من ملوك الدَّيالِمِ

وهو في البيتين الأخيرين يشير على أنه عازم على حرب الصليحي مؤسس الدولة الصليحية في اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرَّش بصاحبه، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه، وكان الصليحي يهدده بالخليفة الفاطمي وجنوده، وإلي ذلك يشير أبو إسحق بقوله:

يخوِّفني أنَّ المعزَّ مَلاذُهُ ... بمصرٍ وما خوفي لأهل المظالمِ

إذا وَفْده ولَّى إلى مصْرَ رائدًا ... مَضَى وَفْدُنا قَصْدًا لخير المعالم

ليعلَم أيُّ الحزب أسبقُ نُصْرةً ... وأيُّهما أولَى بفعل المكارم

وواضح أنه سمى المستنصر خليفة مصر حينئذ المعز كأنه لا يعرف لقبه الحقيقي، وخرج هُو وخصمه الصليحي من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب، ونري أبا إسحق

يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامة الخليل بن شاذان كي يغيثه وينصره ضد الصليحي، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة، يقول له من قصيدته نونية:

انصُرْ أخاك فإن الحرب قائمةٌ ... والحق يطْلبُ من أهليه أرْكانا

اجْعَلْه أَوَّل ما تَحْيا البلادُ بِهِ ... إنا نؤمِّل جيشًا منك يَغْشانا

واعلمْ بأنك قد أثَّرْت مأْثُرَةً ... فارْفَعْ لها شَرَفًا فالأمرُ قد هانا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية، وهو يريد معونة حربية. واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحي وأن ينزل بها خسائر فادحة، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد، ويبقيه واليًا له على حضرموت، ويظل يرسل له بقصائد المديح، وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا، وله يقول:

أيا راشدٌ إنا لعمرُك نَزْدَهي ... بذكراكمُ في حَضْرموتَ تعاظما

إذا ما عُمانيٌّ ألمَّ بأرضنا ... أَحَطْنا به نسأَلْه عنكم تزاحما

وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية، وأخلاقهم الفاضلة، ومناقبهم الكريمة، وكيف أنه أصبح إماما لهم وقَيِّما عليهم، يصلح أمرهم، ويدفع عنهم الخطوب، يقول:

إباضيَّةٌ زُهْرٌ كرامٌ أفاضلٌ ... مناقبهم في كلا سامي عُلاً تَبْدُو

وأنت لنا من بعدهم صِرْتَ قَيِّمًا ... حَمولا لِثقْل الخطْب يُورِي بك الزَّند[1]

ونراه في نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه في حربه مع قبيلتي نَهْد وعُقَيل إن هما لم تستكينا نهائيا، ولم تُلْقيا السلاح وهما صاغرتان، يقول:

وإن عدلوا عن بَغْيهم وتراجعوا ... إلى عَسْكر الإسلام والحقِّ وارتَدُّوا

فأهلاً وسَهْلاً بالعشيرة إنهم ... إليكم بإخلاصٍ لربِّ السَّما أدُّوا

وإن هم أَبَوْا فاستَصْرِخونا فإننا ... قريبٌ وما للقوم من صَحْبهم بُدُّ

---

(١) يوري هنا: يتقد

وما بين وادي حضرموت وبينكم إذا سرَّكم إتيانُنا نحوكم بُعْدُ

وهو يسمي عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق، ومن قديم كانوا يقولون إن معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده، ويصفون خصومهم بالبغي والجور وأنهم خرجوا على حدود الدين ، ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل توحيد، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع. وليس في الديوان ما يدل على أنه ظل عاملا لأئمة نَزْوى بعد راشد، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه بالإمامة ونستبعد ذلك، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية في نَزْوى، وحقا نراه في بعض شعره يصرح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه في كل مكان، على شاكلة قوله:

عَلِقَ الفؤادُ بأن أكون أنا الذي يُحْيِي الهُدَى بقواضبٍ ورماحِ

وعلى السيوف يموت كلُّ مكرَّمٍ وعَلَى السيوف قِيادُ كلِّ فلاح

وعلى السيوف ينال من طلب العلا غُرَفَ الجِنان وَقصْدُهنَّ كفاحي

وهو يقصد بالهدي نحلته الإباضية، ويقول إنه يشعر في أعماقه أن عليه نشر دعوتها وإشاعتها في كل بقعة، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد في سبيل الله، وكأنه أصبح شعارا لهم، حتى ليلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم ونعيمه. ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفي حوالي منتصف القرن الخامس الهجري.

ابن الهُبَيْني[1]

من شعراء تهامة في القرن السادس الهجري، تَبِعَ على بن مهدي حين استولى على زَبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده. وكان يجعل شعره شركة بينه وبين على بن مهدي وولديه المهدي وعبد النبي، فتارة ينظمه مستقلا، وتارة ينظمه بلسانهم، ونصَّ على ذلك القدماء. وقد وصفه عمارة اليمني فقال: " هو أمتن كلاما، وأقوى نظاما من كثير

(١) انظر في ترجمة ابن الهبيني وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٦٥ وما بعدها و٣/ ٢٨٤ وما بعدها.

ممن سمعت به من شعراء اليمن ".و شعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون، من ذلك قوله على لسان ابن مهدي يهدِّد قبائل خَوْلان وجَنْب وسِنْحان وهَمْدان:

ما بالُ خَوْلانَ لا توفي بما تَعِدُ ... يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ

وما لِجَنْبٍ وسِنْحانٍ وأختهما ... هَمْدان تلك الأعاريبُ التي حشدوا

وتسميته لهم بالأعاريب كأنه يشير على شطر في خمرية لأبي نواس يهزأ فيها بالأعراب قائلاً: " ليس الأعاريب عند الله من أحد ". وابن الهبيني يحمِّل الكلمة نفس المعنى. وله قصيدة ميمية طويلة على لسان عليّ بن مهدي وجَّه بها إلى أهل حصن تَعْكُر وقبيلة خَوْلان منذرا لها نزيرا شديدا، وهو يفتتحها بقوله:

أبلغْ قُرَى تَعْكُرٍ ولا جَرَما ... أن الذي تكرهون قد دَهَمَا

وقُلْ لجنّاتها سأبدلُها ... سَيْلاً كأيام مَأْرِبٍ عَرِما

ظنَّتْ خُوَيْلانُ أنْ ستشغلني ... عَمًى لما ظنّتِ اللئامُ عَمَى

هل تَنْقُصُ البحر كفُّ غارفِهِ ... أو يُخْمِدُ النارَ قابِسٌ ضَرَما

تَعْسًا لخولانَ لا أبًا لهمُ ... أمْسَوا وُجودًا وأصبحوا عدما

إذ نفخوا من صَوارمي ضَرَمًا ... واسْتَسْمنوا من ظنونهم وَرَما

وشمَّرتْ ساقها الحروبُ وما ... ألفَّها الليلُ سائقًا حُطَمَا

وهو يهدِّد في أول قصيدته قرى تَعكُر بأنه سينزل بها ما أنزله الله بقري سبأ ومدنها من سَيْل عَرِم، يقول جل شأنه: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) والأبيات تدل على براعة شعرية حقيقية في الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب. وهو يتأثر في البيت الأخير بشطرين وردا في خطبة الحجاج المشورة التي خطبها في الكوفة أول قدومه واليا على

العراق، وقد حمَّلها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا: "إني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحَى" ثم أنشد هذا الشطر في وصف الحرب وشدتها: "وقد شَمَّرت عن ساقها فَشمِّروا" وتلاه ببيت عاصف من الشعر:

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّي زِيَم　　قد لفَّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ

والشد: العدو. وزيم: اسم فرس أو ناقة. واللف: الجمع. والحطم: الظالم للماشية وواضح أن ابن الهُبَيْني كون بيته من الشطر السالف، ثم من الشطر الثاني في البيت، ليصور ما سينزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة، ويستمر في وصف جنوده ووعيده.

إنَّ نسورَ الوَغَى إذا وقعتْ　　بأرضِ قومٍ أطارت الرَّخَما[1]

ترمي بنيرانها قُرَى عَدَنٍ　　صُبْحًا فيُمْسي شرارُها الحَرما

أيَشْرَبُ الخَمْرُ في ذُرَى عَدَنٍ　　والمُشْرِفِيّاتُ بالحُصَيْبِ ظِما

ويُلْجَم الدينُ في محافلها　　والخيل من حَولي تعْلُكُ اللُّجُما

وما جنوده إلا نسورا أما جنود خصومة فرخم وطير مأكول، ويضيف على تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها آل زُرَيْع، وكانت تعزّ والجَنَد وتَعْكُر في حوزتهم، فكان طبيعيا أن يصطدم بهم. والشعار يزعم على لسان ابن مهدي أن أهل عدن غارقون في الخمر إلى آذانهم، ويقول أن السيوف في الحصيب وادي زَبيد ظائمة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تَعْلُكُ اللجم، تريد أن تهمّ بالمسير إليهم وقتالهم. وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدي وولديه من جهة وعدن وأمرائها بني زُرَيْع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهبيني شاعر بني مهدي بأبي بكر العَيْذي شاعر الزريعيين، وأن يأخذا في التهاجي وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر، وقد احتفظ العماد في خريدته للشاعرين بنقيضتين من هذا الطِّراز، أولاهما لابن الهُبَيْني ونراه يستهلها بالإشادة بجنود على بن مهدي إمامه، يقول:

أُسْدٌ إذا ما أبصرتْ أُسْدَ الشَّرَى　　ورأتْ حِياضَ الموت لم تَتَجهْجَهِ[1]

---

(١) الرخم: طائر غزير الريش كبير الجناح طويل الذنب.

تعدو أمام متوَّجٍ مُتبَلِّجٍ ... متيقِّظٍ متوقِّدٍ متنبِّهِ

متفقِّهٍ في الدين لكنْ لم يكن ... من عند غير الله بالمتفقِّهْ

ملكٌ إذا اشتبه الملوكُ فما له ... في ملكه وصلاحه من مُشبهِ

ومنزِّهُ الدين الحنيفيِّ الذي ... لولا الإمامُ القطبُ لم يَتَنزَّه

بصوارمٍ ولهاذمٍ وضراغمٍ ... وملاحمٍ بلغتْ به ما يَشتَهي[٢]

وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام في رأيه وشدة بأسهم، ويسبغ عليه صات التفقه في الدين وحمايته بسيوف قاطعة وأسود ضارية وملاحم ساحقة. ويمجد انتصارات على بن مهدي على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشي، ويعود على الإشادة به قائلا:

أخبارُ أيَّام الإمام فواكهٌ ... فأصِخْ بسَمْعك نحوها وتفكَّهِ

سِيَرُ الإمام قديمُها وحديثها ... فَرَحُ القلوب وروضةُ المتَنزِّه

أشْهى من الماء الزُّلال على الظَّما ... وألذُّ من عَصْر الشباب الأَمْوه[٣]

ولا شك أن ابن الهبيني يجور جورا فظيعا على الحقيقة، فقد عرضنا لابن مهدي ومبادئه، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج، ويكفي وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقَّ الذراري، فكان ينبغي على ابن الهبيني أن لا يسخِّر شعره في مديحه هذا المدح المفرط في الثناء. وتُنسب لابن مهدي دالية لا شك أنها من نظم ابن الهُبَيْني، ويقول على لسانه:

قسمتُ الرَّدَى والجودَ قسمين في الوَرَى ... فللمعتدي حَدِّي وللمُجْتدِي رفْدي[٤]

---

(١) تتجهجه: ترتد.

(٢) الصوارم واللهاذم: السيوف. الضراغم: جمع ضرغام.

(٣) الأموه هنا: الناضر.

(٤) رفدي: عطائي.

ومالِيَ من مالي الذي كسبتْ يدي ... تُراثٌ أبقِّيه سوى الشكر والحَمد

تخوِّفني جَنْبٌ بِكُثْر عديدِها ... وما لجنود الله حولِيَ من عَدِّ

تُقَعْقِعُ نحوي بالشِّنان وهل ترى ... عُوَا الكلب يُخْفِي زَأْرَة الأسدِ الوَرْدِ[1]

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهُبَيْني، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج في خطبته التي اشرنا إليها آنفا فقد قال في تضاعيفها: إنني لا أُغْمَز تغماز التين ولا يُقَعْقَع لي بالشنان، وهي القرب البالية، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على السير لتفزع فتسرع. وابن الهُبَيْني مثل أبي إسحق الحضرمي لا يُعْرَف زمن مولده ولا زمن وفاته، ولكن من المؤكد أنه عاش في زمن دولة بني مهدي، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها في نهاية العقد السابع من القرن السادس.

---

(١) الورد: الشجاع الجريء.

٤

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرَّ بنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالأسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب، كتقديس الأولياء، والاعتقاد فيهم أنهم- كما يقولون- ينفعون الناس حتى في قوتهم، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم. وينبغي- في رأي ابن عبد الوهاب- أن يكفَّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه، والمدار في الدين إنما هو على النقل، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما. وهذه الدعوة- كما قدمنا- تستضئ بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقدم المنقول على المعقول، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا. والمعقول يليه ويأتي ثانيا، ولا يصح التقرب على الله بزيارة الولي الصالح، فضلا عن زيارة جَدثه ورفاته. وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعني الشرك بالله أنْ يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها، طالبا جَلْب منفعة أو دَفْع أذى، إذ يظن أن الوليّ من شأنه أنْ يُعينه على ذلك، والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ). وعلي هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يجوز إشراك غير الله معه في الدعاء، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه: أسألك بحق فلان من الصالحين، بينما الله عز وجل يقول: (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا)، وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولي أو غيره، لمثل قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ). وينبغي أن تُلْغى النذور للأولياء جملة، إذ النذور إنما تكون لله ويصح إشراك أحد معه فيها، ومن أكبر صور الشرك- في رأي محمد بن عبد الوهاب- الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة، الله يقول: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ويقول: (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا في صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه. ومدَّ حملته إلى

المتصوفة والطرق الصوفية. فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأورد دلائل خيرات، فكل هذه- في رأيه- بِدعٌ لم يعرفها الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهود أصحابه، وينبغي أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة وإحيائها والاقتداء بالسلف الصالح. ولذلك يسمي الوهابيون سلفية. ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل في آيات القرآن الكريم. وإنما عرضنا ذلك كله لنتبين الأسس التي دعا غليها محمد بن عبد الوهاب والتي صدر عنها بالتالي شعراء الدعوة الوهابية، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمني من الأسرة الزريدية، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه في هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائي. ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفي مقدمتهم سليمان بن سَحْمان وابن عُثَيْمين، ولن نعرض لهما لأنهما يدخلان في العصر الحديث، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠ م، وله مريئة في ابن عبد الوهاب حين لبي نداء ربه افتتحها بقوله[1]:

إلى الله في كَشْفِ الشدائد نفزعُ ... وليس إلى غير المهيمن مَفْزَعُ

وقصائد كثيرة نظمت في الإشادة بابن عبد الوهاب ومبادئه، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن على الشوكاني اليمني المار ذكره. ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف.

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعاني[2]

ولد بحصن كُحْلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ/ ١٦٨٧م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨م فأتم بها حفظ القرآن، وسرعان ما أخذ يختلف على العلماء ينهل من

---

(١) شعراء هجر ص ٥٠.

٢ انظر في ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر الطالع للشوكاني ٢/ ١٣٣ ونشر العرف لزيارة ٢/ ٥٠٥ و٢/ ٧٦٤ وفي مواضع مختلفة وديوانه طبع بمطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعاني، وراجع مقدمة على السيد صبح المدني للديوان.

حلقاتهم ودروسهم، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس في الفقه وفي النحو وفي غيرهما، وأخذ يَدْرس كتب الحديثِ الكبرى على كبار الحفّاظ المحدثين من مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسُنن أبي داود، ونال في ذلك إجازات مختلفة لا في صنعاء فحسب، بل أيضا على كبار المحديثين في مكة والمدينة، وعني بالتبحُّر في فقه الشافعي وفي الأصول. ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة، وله فيه على الجامع الصغير شرح في أربعة مجلدات،وله في الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد، وله شرح في علوم الحديث والآثار في مجلدين، غير كتب كثيرة في الأصول وفي النحو وفي بعض الفتاوى. ومن كتبه " إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة " ويبدو أنه كتبه في الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجَّح أدلَّة السنة والكتاب. وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحيانًا الخطابة. ويُجْمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهدا ينفر من التقليد ومن كل رأي فقهي لا دليل عليه، ويقول الشوكاني إنه كان " من الأئمة المجددين لمعالم الدين " وكان الشوكاني مثله يعجب بالدعوة الوهابية، ومر بنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده في يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته، وعلي أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثاني وذريته السلطة الروحية، وما نتقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين، حتى نجد السلطة الروحية. وما نتقد مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين، حتت نجد صوتا مدويا ينطلق من صنعاء باليمن، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيدا وممجدا لدعوته استهلها بقوله:

سلامٌ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ في نَجْدِ وإن كان تَسليمي على البُعْد لا يُجْدِي

وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين لدلائل الخيرات، يقول مبررًا صنيعهم:

غلوٌّ نهَى عنه الرسولُ وفِرْيَةٌ بلا مرْيةٍ فاتركْه إن كنت تَسْتهدي

أحاديثُ لا تُعْزَى على عالمٍ ولا تُساوي لفَلْسٍ إن رجعتَ إلى النَّقْد

وهو يضع بذلك دليلين يجوِّزان حرقها في رأيه: ما بها من غلو ومن أحاديث ضيفة واهية، ويقول إنها من البدع المستحدثة، وكان ما ينى ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد. وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطلعون على الغيب. ويكتب إلى الإمام المهدي العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة، وفيها يقول:

ولا تستمعْ من عابدٍ لنجومهِ تقاويمُ زورٍ ليس تُغْني ولا تُجْدي

أكاذيبُ يُمْليها لكلِّ مغفَّلٍ يصدِّقها من ضلَّ عن طُرق الرُّشْد

ووالله ما عند النجومِ دلالةٌ على نَحْسِ يومٍ في الزمان ولا سَعْد

ووالله ما غيْرُ الإله بعالمٍ بما في غَدٍ مما يُسِرّ وما يُبْدِي

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: " كذب المنجمون ولو صدقوا ". وله قصيدة جعل مقدمتها في ديوانه على هذا النمط: " هذه نفثة مصدور، وكلمة صادرة عن قلب من ضياع الشريعة محرور، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين، ويُحْيي شريعة سيد المرسلين، وفيها غيقاظ للهمم ولو كانت نائمة، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة. والجهاد باللسان أحد الأقسام. نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام ". وفيها يصور المصلح الديني المنتظر هو وأنصاره في سبيل دعوته، وكيف يخوضون إليها غمار الحروب، حتى تبسط سلطانها على الناس،يقول:

يَحُفُّ به قومٌ على كلِّ سابحٍ تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها

ولا جمعوا مالاً ولا كسبوا لهم قُصورا ولا باهوا برَفْعِ بُناها

وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً ومُهْرًا يباري الرِّيحَ عند سُراها

وما قصدوا من سَفْكهم لدمِ العِدا ... وتَطْويقهم بالسَّيف بِيضَ طُلاها[1]

سوى أنهم يُحيون شِرْعَة أحمدٍ ... ويَنْفون عنها داءها بِدواها

سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بِدْعةٍ ... فَيُشرق في الآفاق نورُ سَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران البدع المستحدثة في الحياة اليومية، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة، إنما يريدون درء المنكرات، وإنهم ليحملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا الغي والضلال. كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل النساء في الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية ، وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرءه من ابن عبد الوهاب ودعوته، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقربا للأمراء الزيديين من بيته وفي الحق أنه كان يحمل نفسًا ثائرة تحب الحق وتؤثر ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمته مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نري في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة:

وما حبسوني أنني جئتُ مُنْكرًا ... ولا أنني نافستُ في الملك والكُرْسِي

ولكنني أحبَبْتُ سنَّةَ أحمدٍ ... وأبرزْتُها شمسًا على العُرْب والفُرْسِ

وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة، وقد لا يكتفي الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين الله، وكأنما كان ذلك يؤذي نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يري لأصحابها أعمالا حميدة، بل يري أعمالا ذميمة فقال:

تسمَّى بنور الدين وهْو ظَلامهُ ... وهذا بشمس الدين وهْو له خَسْفُ

---

(١) الطلي: جمع طلية وهي أصل العنق.

وذا شرفُ الإسلام يدعوه قومُه ... وقد نالهم من جَوْره كلَّهم عَسْف

رُوَيْدك يا مسكينُ سوف ترى غدًا ... إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحْف

بماذا تُسَمَّى هل سعيدٌ فحبَّذا ... أو اسمُ شقيٍّ بِئْس ذا ذلك الوَصْف

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة في بيته في عصره وقبل عصره. وكان لا يخشى في الله لومة لائم. وديوانه يكتظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية، وله قصيدة في التقوى تم جميع أبياتها بشهادة: لا إله إلا الله، وله غير مدحة نبوية وأيضًا له قصيدة في مديح على سماها " التحفة العلوية " وكتب عليها شرحا سماه " الروضة الندية ". وله أشعار في فنون البديع المختلفة وخاصة في التورية وهو يكثر من التضمين في أشعاره وخاصة من شعر المتنبي. وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب في الوفاة بنحو ربع قرن تقريبًا.

ابن مشرف الأحسائي[1]

هو أحمد بن على حسين بن مشرف الوهيبي التميمي الأحسائي، وُلد وعاش في الأحساء ولا يُعْرف تاريخ مولده. وبدأ في نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في موطنه، والتهم كل ما وجده في هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية، واعتنق المذهب المالكي مثل آبائه. وليس في ديوانه ما ينبئنا عن أحواله في فواتح حياته أو شبابه المبكر، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات، وهي تمتد من سنة ١٢٤٥ هـ/ ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣ هـ/ ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها في مديح فيصل بن تركي، والسنة الأولى هي نفس السنة التي استولى فيها السعوديون على الأحساء، وكأن شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفي سنة ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨ م. وهو في ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها، فهي كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية

(١) انظر في ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (طبع الرياض).

إلى الأحساء في سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة، على كل حال الديوان كله مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها، أو قل إنها مادته سواء تغنى بابن عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيصل وأعماله أو بغيره من قواده. فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤديها بكل ما استطاع من حجة وبرهان. وقد سمى أول قصيدة في الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضيء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول:

الخيرُ والشرُّ جميعُه صَدَرْ　　من أمر ربنا وذا هُوَ القدَرْ

ومرَّ بنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شيء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولا صحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية في تصرفاته يأتي ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره. ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح في موضع آخر منشدا:

وكلّ شيءٍ قضاهُ الله في أزلٍ　　طُرًّا وفي لوحهِ المحفوظ قد سُطِرا

والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما　　يَجْري عليهم فعنْ أمرِ الإله جَرَى

فليس في مُلْكِهِ شيءٌ يكون سِوَى　　ما شاءَه الله نَفْعًا كان أو ضَرَرا

ويعقد فصلا لأنواع التوحيد، ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب، إن أضرب الوحدانية ثلاثة ويعدُّها على هذا النمط:

توحيدُ ربِّ الناس في المُلْك وفي　　صفاتِهِ وفي العبادة اقْتَفِ

فالأولى وحدانية الربوبية وهي اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت. والثانية وحدانية الأسماء والصفات، ومن

مثل الحي الباقي القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه.

ويثير ابن مشرف تبعا لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتصم والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه، وهي المشكلة التي ورَّط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفي مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية. ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظا ومعني والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول:

الصوتُ للقارئ والكلامُ ... لله ذا بهِ قد استقاموا

فاللفظ والمعني من القرآنِ ... قد نَزَلا من ربنا الرحمنِ

ومن يَقُلْ بخلقهِ أو سَطْره ... فهْو مُضلٌّ فاستعِذْ من شرِّهِ

وكان المعتزلة ينزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسما ولا عرا ولا مادة ولا جوهرا ولا يحيط به مكان ولا زمان، وأوَّلوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) بأن الاستواء في الآية بمعني الاستيلاء ومثل (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أوّلوا اليد في الآية بمعني القدرة. ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام في رأيهم وقالوا إنها عين الذات. وكل ذلك ردَّه محمد بن عبد الوهاب متابعا ابن تيمية وابن حنبل، وأخذ مثلها في الآيات التي تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها في القرآن، وعلي ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرّف:

اللهُ ذو العَرْشِ على العرش استوى ... وعلمهُ لكلِّ شيء قد حَوَى

وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ ... والوَجْه والإصبع واليديْنِ

نؤمنْ به لكن مع التنزيهِ ... له عن التمثيل والتشبيهِ

من شبَّه الله بخلقِه كفَرْ ... ومن نَفَى صفاته أُصْلِي سَقَرْ

وهو في البيت الأخير يحكم على من ينفي الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسَب على ما كسبت يداه، ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وباقي العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة وبسفيان الثوري وداود الظاهري. ويطيل في الحديث عن البعث والمعاد والحساب. وبذلك يختم الحديث عن النوع الثاني من أنواع الوحدانية وهي وحدانية الأسماء والصفات ويأخذ الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوحدانية وهو وحدانية العبادة، فالله وحده هو الذي يُعْبَدُ دون سواه، وهو وحده الذي تقدَّم إليه النذور، ومن الشرك تقديمها لسواه وأيضًا من الشرك القَسَمُ بغيره يقول:

الحَلْفُ مطْلَقٌ بغير الله ... شِرْكٌ بلا شكٍّ ولا اشتباهِ

ويهاجم زيارة القبور: قبور الأولياء والصالحين وما بُني عليها وشُيِّد من قُبب والطواف حول تلك القبور تقربا، وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى ويجلبوا لهم النفع، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء،كلما أحاط بهم كرب، طلبًا للنجاة، يقول:

ألم تنظر الشركَ الذي فيهمُ فشا ... فكَمْ قُبَّةٍ قد شَيَّدوها على قَبْرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرُّبا ... إلى ذلك المقبور بالذَّبْح والنَّذْر

وكم سألوا الأموات كَشْفَ كروبهم ... ولا سيِّما في الفُلْك في لُجِج البَحْر

فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعوْا ... سِوَى الله في حالِ الرَّخاءِ وفي العُسْر

وعلي هدي من الدعوة الوهابية مضي يهاجم كل ما هاجمته، وكان مما استحدث في الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة، وعنَّفت الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير، ورأت منعه منعًا باتا، واصفة له بأنه بدعة وينبغي الكف عنها وفي إثرها يقول ابن مشرف:

وسلْ فاعلَ التذكير عند أذانهِ ... أهذا هُدًى أم أنت بالدِّين تلعبُ

وهل سَنَّ هذا المصْطَفى في زمانهِ ... أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحَب

واستمر يتساءل هل سنَّةُ التابعون أو سنَّه أحد أصحاب المذاهب الفقهية، وانتهي إلى أنه من الأمور المحدثات التي ينبغي أن تجتنب، قائلا إن العلم ينبغي أن لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة. ويخص هذه الفكرة بقصيدة يحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث النبوي وآيات الذكر الحكيم، ويسميهما وحيين، وتسميته الذكر الحكيم وحيا واضحة، أما تسميته الحديث بالوحي فلأنه إلهام وهدي رباني، يقول:

وقدِّمْ أحاديث الرَّسولِ ونَصَّه	على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائهِ
وإن جاء رأيٌ للحديث معارضٌ	فللرأي فاطرَحْ واسترح من عنائهِ
ومَنْ يكنِ الوَحْيُ المطهَّر علمَه	فلا ريب في توفيقه واهتدائه
وكلُّ فقيهٍ في الحقيقة مُدَّعٍ	ويثبت بالوحْيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين الحنيف، وعلي العقل أن يسر وراءهما شارحا ومفسرا ومبينا، لا موجها ولا متحكما ولا مؤولا.. وعلي هذا النحو تتجلى في شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهابية بكل ما اتصل بها من مبادئ وتعاليم.

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هي بيئة مكة والمدينة، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن هناك مادح للرسول صلى الله عليه وسلم. إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطِر وإنشاده مديحه، غير من كان يقيم في البلدتين المقدستين من أهلها النساك. وقد ذكرنا في غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا ينزلون في مكة ويجاورون فيها، وقلنا إنه نزلها ابن عربي وجاور فيها سنوات، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفي " ترجمان الأشواق " وفيه يقول:

مَرِضِي من مريضة الأجفانِ ... عَلِّلاني بذكرها عَلِّلاني

هَفَتِ الوُرْقُ بالرياض وناحتْ ... شَجْوُ هذا الحمامِ مما شجاني[1]

وشاع الديوان في مكة والمدينة وفي اليمن وتناقله الحجاج. ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاوروا في مكة ابن سبعين، أقام بها سنوات طويلة حتى توفي سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول، ومن شعره[2]:

من كان يُبْصر شأن الله في الصُّوَر ... فإنه شاخصٌ في أكمل الصُّوَرِ

بل شأنه كَوْنه بل كونه كُنْهُهُ ... فإنه جملةٌ من بعضها وَطَري

ووراء ابن سبعين وابن عربي والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفي مقدمتهم القشيري الذي لمَّ شعث الفُرْقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع. ونزلها الغزالي وشهاب الدين السهْرَوَرْدِيُّ العراقي وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله:

---

(١) هفت الورق: خفق الحمام بأجنحته.

(٢) العقد الثمين ٥/ ٣٣٩.

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ ... فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ

وعِشْ خاليا فالحبُّ راحتُه عَنَا ... وأَوَّلُهُ سُقْمٌ وآخِرُهُ قَتْل

وإن شِئْتَ أن تحيا سعيدًا فَمُتْ بِهِ ... شهيدًا وإلا فالغرامُ له أهل

ولم يبق مادح للرسول صلى الله عليه وسلم إلا زار المدينة، لتتأرج روحه بعطر قبره، وقد زارها البوصيري أكبر مداح الرسول، وفيه نظم همزيته في نحو أربعمائة وخمسين بيتا، وسماها " أم القرى في مدح خير الورى " وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة، وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه إعجابًا وافتتانًا. ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطالع القرن الرابع الهجري. ولكن لم تنل قصيدة في مديح الرسول حُظْوة هاتين القصيدتين.

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زاهدة كثيرة، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة، على نحو ما نجد في ديوان الزمخشري الذي جاور في مكة طويلا، حتى لُقِّب " جار الله " وكان هؤلاء المجاورون الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التي يؤلفونها في مكة أو المدينة، ومن يقرأ تفسير الزمخشري الذي ألف بمكة والذي سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة: (إِنَّ اللهَّ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)[1] ينشد توسلاً لطيفًا لشاعر على هذه الصورة:

يا من يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها ... في ظُلْمة الليل البهيم الأَلْيَلِ[2]

ويرى عروقَ نِياطها في نَحْرها ... والمخَّ في تلك العظام النُّحَّل

اغفرْ لعبدٍ تاب من فُرُطاته ... ما كان منه في الزمان الأوَّل

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٦.

(٢) الألِيل: شديد السواد.

ومن المجاورين بالحرمين الشريفين ابن ظفر المولود بصقلية في شعبان سنة ٤٩٧ رحل من بلده يافعا في طلب العلم إلى مكة ونهل من حلقات علمائها، وارتحل إلى مصر ثم إلى المهدية بتونس، وعاد إلى موطنه صقلية، وبها ألف لحاكمها في سنة ٥٥٤ كتابه " سلوان المطاع في عدوان الأتباع " وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، ويمتلئ بأشعاره، وهي تصور زهده وتقشفه مع براعة في نسج الشعر ونظمه من مثل قوله[١]:

يا مُتْعَبًا كَدَّهُ الحِرْ ... صُ في الفُضول وكادَهْ

لو حُزْتَ ما حاز كسْرَى ... وما حَوَى وأفاده

ما كنت إلا مُعَنًّى ... ومُغْرَمًا بالزِّياده

لم يَصْفُ في الأرض عَيْشٌ ... إلا لأهل الزَّهادَه

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين، تكفيهم الكِسْرة وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة، ونزل بلادا كثيرة، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته[٢]:

راقَكَ الزهدُ إنما الزُّهد رَفْضٌ ... لفضولٍ تُلْهي وتُطْغي وتُرْدِي[٣]

مَرْحَبًا بالكفاف عيشا هنيئًا ... ثم لا مرحبا بحرصٍ وكَدِّ

لا يزال الحريصُ يَسْتامُه الحِرْ ... صُ بنُصْبٍ من الشقاء ونَكْدِ[٤]

ثم لا يستطيع أن يتعدَّى ... قَدرا ما لحكمهِ من مَرَدِّ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٥٥.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٥٦.

(٣) تردي: تهلك.

(٤) يستامه: يذله وصرفه.

فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد في كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحد. ولا يزال الحريص يدفعه حرصه على غير قليل من الشقاء والنكد والتعب، ومع ذلك لن يعدو ما كتبه له القضاء.

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة، على نحو ما نجد عند النَّشْو، وقد سُقنا له في ترجمته مثالا، ولمحب الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهلها بقوله: " رحلت إلى المختار خير البريةِ " ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة، ولابنه محمد مدحة نبوية بارعة يقول في أولها[١]:

أنِخْ أيها الصّادي الشديدُ ظَماؤهُ ... وردْ مَنْهَلاً أحْلَى من الشَّهْد ماؤهُ

وسَلْ عند باب المصطفى أيَّ حاجةٍ ... أردتَ وما تَهْوَى فرَحْبٌ فِناؤهُ

وراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكفي أن نشير إليها، ولشاعر متأخر يسمى عبد العزيز الزمزمي المكي ديوان مديح في الرسول والصحابة.

وكثر بجانب ذلك الغزلُ الصوفي في مكة والمدينة، ومن مثل قول أبي إسحق المكي المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة[٢]:

مُعَذِّبتي كم ذا الصُّدودُ إلى متى ... مَضَى عُمُري والوَصْل منكِ أروم

فجودي ورِقِّي أو فَجُورِي وعَذِّبي ... فما القلبُ إلا في هواكِ مُقيم

وفي كتابيْ سلافة العصر ونَفْحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة في القرن الحادي عشر الهجري مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة[٣].

---

(١) العقد الثمين ١/ ٢٩٥.

(٢) العقد الثمين ٣/ ٢٤٥.

(٣) انظر مثلا سلافة العصر ١٤٧، ٢٥٤.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبي بكر العيذي ابتدأها بوصف غرام له بالحجاز ليس يدفعه، وينقاد له قلبه ويتبعه، ويأخذ في وصف مكة ويذكر مناسك الحج منسكا منسكا، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله[1]:

وفي رُبَى يَثْرِبٍ غاياتُ كلِّ هَوًى ... يَجِلُّ عن مَوْقع الأشواق مَوْقِعُهُ

حيث النبوَّة مضروبٌ سُرادِقُها ... والفضلُ شامخُ طَوْدِ الفخر أفْرعُه

وخاتمُ الأنبياء المصطفى شرفًا ... محمدٌ باهرُ الإشراق مَضْجعه

صلى الإلهُ عليه وما تكرَّر بالصَّـ ... ـلاة فَرْضُ مُصلٍّ أو تطوُّعه

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام، حنينا يشمل كل المواضع هناك، وكأنما يريد أن يعانقها، فهي هواه وحبه وأماكن افتتانه وصبابته، وتكثر في اليمن كما كثرت في مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفي والمديح النبوي، وممن اشتهر بهما عبد الله[2] بن أسعد اليافعي اليمني نزيل مكة وشيخ الحرم، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها، وحج في سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة في الجبال، ولزم شيخا صوفيا يسمي الشيخ الطواشي، فسلكه في الطريق. وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات، ورحل إلى الشام، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها في القرافة في مشهد ذي النون المصري. وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشي. وألقى عصاه بمكة وتوفي بها سنة ٧٦٨ وله في الصوفية تراجم كما مر بنا كتاب " روض الرياحين وحكايات الصالحين " ومن غزله الصوفي قوله[3]:

قفا حدِّثاني فالفؤادُ عَليلُ ... عَسَى منه يُشْفَى بالحديث غَليلُ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ١٨٤.

(٢) انظره في العقد الثمين ٥/ ١٠٤ والنجوم الزاهرة ١١/ ٩٣ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة) ٢/ ٣٥٢ والبدر الطالع ١/ ٣٧٨ وتاريخ ثغر عدن لبامخرمة ٢/ ١٠٩.

(٣) العقد الثمين ٥/ ١١١.

أحاديثُ نَجْدٍ عَلِّلاني بذكرها ... فقَلبي إلى نجدٍ أراه يميل

ولا تذكرا لي العامريَّة إنها ... يولِّه عقلي ذكْرُها ويُزيل

ولكنْ بذِكْري عَرِّضا عندها فإنْ ... تقُلْ كيفَ هُوَ قُولا بذاك غَليل

فإن تَعْطفي يُشْفَى وإن تُعْرضي ففي ... هواكِ المعنَّى المستهامُ قَتِيل

وهو يصور حبه ووجه وهيامه بليلي العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية ودون تغلغل في حلول أو اتحاد أو فناء، فتصوفه تصوف سني، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها، فهو محب مولاه، وحسبه أن يصور ولهه وحبه. وله بجانب هذا الغزل الصوفي مدائح نبوية كثيرة، من مثل قوله في إحدى مدائحه[1]:

نبيٌّ عَلا فوق السَّمَوات مَنْصِبًا ... بَدا نُورهُ من قبل نَشْأةِ آدمِ

به الدَّهْرُ أضحى ضاحكا متبسِّمًا ... عَبوسا على أعدائه غيرَ باسم

علا فوق كل المصْطَفَيْنَ مُقَرَّبًا ... بأعلى مقامٍ ماله من مُزاحم

وهو في البيت الأول يستلهم بفكرة الحقيقة المحمدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور المحمدي. وابنه عبد الرحمن يحاكيه في الجانبين من شعر التصوف ثم المديح النبوي. ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير[2]، وله ديوان سماه " مجمع الحقائق والرقائق في ممادح رب الخلائق " وقد نشر في القاهرة باسم مدائح إلهية. وعُني محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح: " فتح الخالق في شرح مجمع الحقائق ". وقد ترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عني بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م. والديوان جميعه شعر صوفي سني، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة في

(١) العقد الثمين ٥/ ١١٤.

(٢) انظر البدر الطالع ٢/ ٨١ وراجع ديوانه " مدائح إلهية ط طبع المطبعة السلفية بالقاهرة.

التعبير، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب وطلب العفو منه والغفران، على شاكلة قوله في التضرع والرجاء والتوكل:

أرجِّيك إذ كنتَ أهلَ الرَّجا ... و أخشاك إني من الظالمينا

وأسألك العفوَ إذ كنت قد ... علمتُ بحبِّك للسائلينا

وفوَّضْتُ أمريَ بعد الدُّعا ... بحقٍّ إلى أحكم الحاكمينا

إذا شئت أعَفْيَتني من ذنوبي ... وسامحتَ يا أرحمَ الرَّاحمينا

وهذا الذي أنت أهلٌ له ... وأنت تحثُّ به المُحْسنينا

وأنت الذي قلت لا تَقنْطوا ... خِطَابا خصَصْتَ بِهِ المُسْرفينا

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ). وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية في الديوان، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا. وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض. وربما كان الذي دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة في شعر التصوف معاصره إسماعيل[1] بن أبي بكر المعروف بالمقرئ الشافعي شيخ الفقهاء في زَبيد وتهامة، فإنه حين رأى جماعة من صفية زَبيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربي ونَفْي العيب عن كرمه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء في الله جل شأنه ومن حلول واتحاد، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوي بعيد في اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم في عصره- كما يبدو- عن الشعر الصوفي القاتم على تصوير المحبة الإلهية، تصويرا ينتهي إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المنزع الصوفي الفلسفي.

---

(١) انظر في ترجمته البدر الطالع ١/ ١٤٢.

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير في الحق المتأخرة على أنه ينبغي أن نذكر أنه شاع في اليمن شعر صوفي متجوِّل بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطّار والطَّبْل، وأكثره من المديح النبوي لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعي، وسنخصه بكلمة مفردة.

ويكثر المديح النبوي والشعر الصوفي في حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم وببعض غزليات صوفية وأشعار زهدية، ولأبي بكر العيدروس[1] المتوفى سنة ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م ديوان صوفي سماه محجة السالك وحدة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفي، وكثير منه بالعامية اليمنية، فهو- كما يسمونه- شعر حُمَيْني وهو صوفي سني وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله:

نعم لو صحَّ تحقيقي شهودي ... لأشغلني الشُّهودُ عن المقالِ

ولو حلَّ اليقينُ صميمَ قلبي ... لكنت هجرتُ في المَوْلَى الموالي

ولو كان الحضورُ نزيلَ صدري ... لما بالغيرِ لذَّ ليَ اتصالي

وهو يصرح بأنه لم يصل على مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء في الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشري، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوي الله. وهو بذلك صوفي سنِّي، ويناجي ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا، ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يُعَد من كبار الصوفية الحضارمة، ولعمر[2] بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م شعر صوفي تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله في أحد توسلاته:

اللهُ يا من لا إله نؤمُّهُ ... إلا هو انظُرْني بِعَيْنِ تَفَضُّلِ

يا مَنْ هو الله العظيمُ ومن له الـ ... ـعرشُ العظيمُ ومن عليه توكلي

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٠٥ وما بعدها.

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٣٠.

يا من يُغيث المستغيثَ بِغوثِهِ غَوْثاه أدْرِكني عدمتُ تحيُّلي

ومن متصوفة حضرموت عبد الله[1] الحداد العلوي. وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة في التصوف والزهد والمديح النبوي والرجاء والصبر على الشدائد وفي الأشواق والمواعظ وفي المناجاة والاستغاثة بالله، ومن قوله في استغاثة نبوية:

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيم الخلق يا بَحْرَ الصَّفا

أنت بعدَ الله نعمَ المُرْتجَى واللَّجا يا مُجْتَبَى يا مصطفى

يا خِتامَ الرُّسْلِ يا خيرَ الوَرى يا سَريعَ الغَوْث أدركْ من هَفا

وفي كتاب السقاف مالا يكاد يحصي من أشعار صوفية وزهدية ونبوية، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفي العيدروس بكلمة مجملة.

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظناه ما ذكرناه في غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفي لم يشع في هذه البيئة لغلبة الخوارج عليه، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السني والفلسفي. ونفس مدينة عُمان الإمامية حينا والسنة حينا آخر لم تعن بالشعر الصوفي الخالص. ونجد لشاعر النبهانيين السنيين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلي آلائه، ويختمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف. ومن متأخري الشعراء هناك الحبسي وقد ذكرنا أن له ديوانا افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء.

ونتحول إلى البحرين وطبيعي أن تسهم في شعر الزهد، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية، ومواعظ مؤثرة، وبعض أشعار صوفية من مثل قوله أبي عبد الله محمد بن أبي شَبابة البحراني[2]:

لعمري لقد ضل الدليل على القصد ما لاح لي برق يدل على ندد

---

(١) نفس المصدر ٢/ ٢٤.

(٢) سلافة العصر ص ٥١٣، ونفحة الريحانة ٣/ ١٨٩.

فبت بليل لا ينام مهجة — تقلب في نار من الهم والوجد

وقلت عسي أن اهتدي لسبيلها — بنفحة طيب من عرار ومن رند[1]

وكم طامع في حبهم مات غصة — وقد كان يرضي بالمحال من الوعد

ولابن مشرف الأحسائي الذي ترجمنا بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار في الدعوة إلى الزهد ورفض مناح الحياة، إذ تضحك وسرعان ما تبكي، وما سرورها إلا أضغاث أحلام، وحري بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله، وأن يظل رافعا له بيديه نصب عينيه، فكل من عليها فان، ولن ينفع المر إلا ما قدمت يداه، وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية. وحري بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعي اليمني وعبد الرحيم بن مصطفي العيدروس الحضرمي.

عبد الرحيم البُرَعِي[2]

شاعر صوفي سُنِّيّ يمني، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته،وقول ابن زباره: " هو عبد الرحيم بن على البُرَعي الهاجري اليمني سكن في النيابتين من جبل بُرَع باليمن، حيث اشتهر بالعلم والشعر، وتوفي سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م. وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجري وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي، والديوان في جمهوره مقسمون بين تسبيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته. وهو في القسم الأول يعبِّر تعبيرا حارا عن تعلقه بربه، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفي بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية في المحبة الصوفية

---

(١) العرار والرند: من أزهار البادية.

(٢) انظر في البرعي وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان. (طبع دار المعارف) ٥/ ٥٨ وقد أخطأ في اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر: " في التصوف الإسلامي " لنيكلسون (ترجمة عفيفي) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مرارًا بالقاهرة.

ونشوته بشهود الجمال الرباني وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو ما نحد عند ابن الفارض مثلا، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادي ليستغرق في العالم الرباني بل ليُمْحَى فيه محوا وليفني فيه فناء مطلقا. وكأنما فَنِيَت فيه أو مُحِيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحسّ شيئا إلا الذات العليمة وجمالها الذي تفيض أشعته على الوجود.

عبد الرحيم البرعي إذن ليس شاعرا صوفيا بهذا المعنى وإنما بمعني آخر هو تمجيد الذات العالية دون اتخاذ رموز الحب الصوفي، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهي وعلم الله الذي وسع كل شيء وقدرته التي تسيطر على كل ذرة في الكون، مع حَمْده على آلائه،ومع بسط بعض ما جاء في القرآن من صفاته الربانية، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل الحض على التوبة والعمل الصالح، ومن بديع ماله قوله:

قِفْ بالخضوع ونادِ ربَّك يا هُوْ ... إن الكريم يُجيب من ناداهُ

واقصدْه منقطعًا إليه فكلّ مَنْ ... يرجوه منقطعا إليه كفاهُ

هو أوَّلٌ هو آخِرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ ليس العيونُ تراه

سَلْ عنه ذَرّات الوجود فإنها ... تدعوه مَعْبُودًا لها رَبّاه

وهو يستخدم كلمة " هو " في التعبير عن الذات الإلهية، وهو استعمال مألوف عند الصوفية وخاصة في الشعر، إذ يهتفون: " هو هو " بسكون الواو وكأن كل ما في الوجود يغيب عنهم ما عدا الله، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعيِّنه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته. والقصيدة من أهم قصائد الغناء في اليمن[1]. ويستمر البرعي في القصيدة بمثل قوله:

أَبْدَى بِمُحْكمِ صُنْعِه من نُطْفةٍ ... بَشرًا سويًّا جَلَّ مَنْ سَوّاهُ

وبنَى السموات العُلَى والعَرْش والـ ... ـكرْسيَّ ثم علا الجميعَ عُلاهُ

(١) انظر شعر الغناء الصنعاني ص ١٨١.

ودَحا بَسيطَ الأرضِ فَرْشا مُثْبَتًا ... بالرّاسيات والنباتِ حَلاه[1]

تجري الرياحُ على اختلاف هبوبها ... عن إذنه والفُلْكُ والأمواهُ

وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقه للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزيينها بنبات بهيج، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك في البحر بريح طيبة، وكل هذا يستمده من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم كما قال جَلَّ شأنه: " وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ " فقدرته لا تحدُّها حدود. ويختم القصيدة بالتوسل على الله برسوله أن يشمله برحمته وكرمه وغُفْرانه ورعايته ورضاه،يقول:

يا ذا الجلالِ وذا الجمال وذا الكَرمْ ... يا مُنْعما عمّ الأنامَ نَداهُ

اقْبَلْ توسُّلنا بفضْل محمدٍ ... وبمن له فضلٌ لديك وجاهُ

واشدُدْ عُرَى عبدِ الرَّحيم برحمةٍ ... إن الحوادث قد فَصَمْنَ عُراهُ

وأنِلْهُ في دُنْياه كلَّ كرامةٍ ... ووقِهِ الذي يخشاه في أُخْراه

وأذِقْه بَرْدَ رضاك عنه فلم يَخِبْ ... من كان عَيْنُك بالرِّضا تَرْعاهُ

وتكثر هذه التوسلات في الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذللَ لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرها وعواطفها فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حِوَلا. ويقابل هذا القسم في الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوي ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة. ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه، فيشمله بعفوه ويرعاه في دنياه وأخراه، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له:

والله ما حملتْ أُنْثَى ولا رضَعتْ ... كمثل أحمدَ من قاصٍ ولا داني

---

(١) دحا: بسط ووسع. الراسيات: الجبال.

مهذَّبٌ شَرَّف اللهُ الوجودَ به ... وخصَّهُ بِدلالاتٍ وبُرْهانِ

ومعجزاتٍ بِعَدِّ الرَّملِ لو كُتبتْ ... لم يُحْصها ماءُ سِيحانٍ وجيحانِ

محمدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْـ ... ـن والفريقين من عُجْمٍ وعُرْبان

وسِيحان وجيحان نهان في آسيا الصغرى. والأبيات عذبة، ومدائح البرعي للرسول صلى الله عليه وسلم من أسلسل المدائح النبوية وأخفها وقعا على الآذان، بل إنها لتمتع الأسماع حين تُصْغِي إليها كما تمتع الألسنة حتى تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية. ومن روائع توسلاته قوله في خواتيم هذه المدحة:

يا سَيِّدي يا رسولَ الله يا أملي ... يا مَوْئلي يا مَلاذي يومَ يَلْقاني

هَبْني بجاهك ما قدَّمتُ من زَللٍ ... جودًا ورَجِّحْ بفضلٍ منك ميزاني

واسْمَعْ دعائيَ واكشفْ ما يُساورني ... من الخطوب ونَفِّس كلَّ أحزاني

وامنعْ حِمايَ وأكرِمْني وصِلْ نَسَبِي ... برحمةٍ وكراماتٍ وغُفْرانِ

وكل أمله في هذا التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتقبله في ساحته وأن يكون رضوان ربه ونعيمه وفردوسه، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب ونازله، وأن يدفع عنه كل أحزانه وهمومه، وأن يحمي حِماه وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه. ورسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك هو الشفيع والمشفع لأفراد أمته، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز بالجنان، كما يمنحهم العون في الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم الهموم، إنه الإنسان الكامل الذي يتقبل الله منه شفاعته، وهو كمال في الخلق الشيم لا يزال البرعي يتغني به وبما أجري الله على يديه من معجزات، بل إنه يقول:

كانتْ نبوتُه وآدمُ صورةٌ ... في الماء والطِّين المصوَّر منهما

وبه وجودُ الكوْن من عَدَمٍ فقد ... ملا الزمانَ تفضُّلاً وتكرُّما

ونحس في البيتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التي تغني بها البوصيري وغيره، إذ يستلهمون الأثر المشهور: " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم، إن الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعي في البيت الثاني، وكأنه مبدأ الحياة، الذي يسري في كيان الوجود كله. ويقول فيه مادحًا:

من نور ذي العَرْش معناهُ وصورتُهُ ومَنْشأُ النورِ من نورٍ يجسِّمهُ

فهو من نور الله، وكل نور في الوجود ناشئ من نوره، فنوره يشاهَد في كل نور ويردد البرعي دائما فضائل الرسول المثالية الرفيعة، وله مخمسان بديعان في وصف تلك الفضائل، استهل أولهما بقوله:

بمحمَّدٍ خَطَرُ المحامدِ يَعْظُمُ وعُقودُ تيجانِ العقودِ تنظَّمُ

وله الشفاعةُ والمقامُ الأعظمُ يومَ القلوب لدى الحناجرِ كُظَّمُ

فبحقِّهِ صَلُّوا عليه وسلِّموا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليين، وبذلك جعل المخمس صالحا لأن ينشده منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس. وعلي شاكلة هذا المخمس مخمسه الثاني، وقد جعل الشطر المكرر فيه: " صلوا عليه وسلموا تسليما ". ونبوياته بحق رائعة وقد شُغف بها المغنون الجوّالون في اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطّارات أزمنة متطاولة.

عبد الرحمن العَيْدَروس[1]

حَضْرمِي من بيت علم وفضل، ولد بمدينة تَرِيم في سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م، وبها نشأ في رعاية أبيه وجده فحفظ القرآن الكريم وشَدَا العربية، وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه وسافر مع أبيه إلى الهند، وكثرت رحلاته بعد ذلك، فقد عاد منها، بعد أن تزوَّد من علمائها زادًا حسنا. وذهب إلى مكة للحج وأخذ عن شيوخ الحجاز، وزار مصر

(١) انظر في عبد الرحمن العيدروس وشعره تاريخ الجبرتي ٢/ ٢٧ وسلك الدرر للمرادي وتاريخ الشعراء الحضرميين ٢/ ١٨٩ ونشر العرف لزيارة ٢/ ٥٠ وشعر الغناء الصنعاني ص ١٩١ وديوانه تنميق الأسفار مطبوع بالقاهرة.

سنة ١١٥٨ هـ/ ١٧٤٥م وعاد إلى مكة وسكن الطائف، ثم زار مصر سنة ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨ من فمكث بها عاما واحدًا وعاد إلى الطائف، ثم رأي أخيرا أن يستوطن مصر فنزلها بأسرته سنة ١١٧٤ هـ/ ١٧٦٠م وفي أثناء استيطانه مصر زار دمشق سنة ١١٨٢ وزار الآستانة سنة ١١٩١ وعاد إلى مصر وتوفي بها سنة ١١٩٢ هـ/ ١٧٧٨م ودُفن في مقام العتريس إلى جانب مسجد السيدة زينب. وكانت قد طارت شهرته بالصلاح والنسك في حياته. وتعلق به شيوخ الطرق الصوفية. وله مصنفات كثيرة، تغلب عليه فيها النزعة الصوفية، ويذكرون له شرحا على بيتي ابن العربي:

إنما الكَوْنُ خَيالٌ ... وهْو حَقٌّ في الحقيقهْ

كلُّ مَنْ يفهم هذا ... حازَ أسْرارَ الطريقهْ

وهو لا يغلو غلوه في التصوف الفلسفي، فليس في أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الرباني. وحقا نجد عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْو والصَّحْوِ، ولكن لا تظن أنه يستغرق في ذلك استغراق ابن عربي، أو حتى استغراق ابن الفارض، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله:

أنْعَشَتْنِي خمرةٌ للغير تَمْحُو ... فاعْتِلالي بالهوى القُدْسيِّ شَطْحُ

عاذلي كُنْ عاذِري أو عاذلي ... أنا مِن خَمْر التجلِّي لستُ أَصْحُو

أنا فانٍ والفَنا عَيْنُ البقا ... في رَشًا مِن دونه سَيْفٌ ورُمْحُ

هامَ شخصُ القلب من خمر الفَنا ... فَهْوَ من تلك الحُمَيَّا ليس يَصْحُو

أنا في مَحْوٍ وصَحْوٍ دائما ... حيثُ لي في مَجْمَع البَحْرين سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أنه فكرة الفناء الصوفية وما يتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول في المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه،

وأيضا فكرة الصور وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر، كل ذلك نجد ظاهرا منه عند العيدروس، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقا في لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله:

شَرحَ الدمعُ على مَتْن الخدودْ ... ما أُلاقيهِ من الظَّبْيِ الشَّرودْ

يالَقومي من غزالٍ صادني ... وعجيبٌ رشأٌ صادَ الأسود

أهْيَفُ القامة في وَجْنَتِهِ ... جنَّةُ الخُلْدِ ونيرانُ الخلود

غُصْنُ حُسْنٍ قد سُقِي ماءَ البَهَا ... مُثْمِرًا- أضْحى بِرُمّان النُّهُود

وواضح أن هذا الغزل الإلهي لا يفترق في شيء عن غزل الحب الإنساني، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل في فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجمالها المغري.وكأني به يتأثر في هذا الغزل المادي بديوان ابن عربي: " ترجمان الأشواق " الذي يكتظ بالوصف الحسي لجمال محبوبته، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلا إنسانيا، وهو إنما يرمز به إلى حبه الباني ويمضي العيدروس منشدًا:

أيها الظَّبْيُ الْتَفِتْ نحو الحَشا ... أيها الشمس أزِلْ نارَ الصدودْ

عَطْفَةً بالقَدِّ من هذا الجَفا ... وأبيك العَطْفُ من شأن القُدود

كم أرى بارقَ وَعْدٍ أوْمَضَا ... قد مَضَى وقتُ المعنَّى في وعود

وصلاةُ الله تَغْشَى المصطفى ... ما تَلالا البرق من أقصى النُّجُود

وهو يتمني لفتة من الظبي الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمئه، ويأمل في عطفه نحوه أو في وصل طالما رأى بُروق وعوده،وكأنه دائما في هجر وفراق ومَطْل وبَيْن وأنه ليتوسل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود، وإنه ليشكو دائما من الضَّنِّ بالوصال، يقول:

أتسألُ عن عَيْني لما هِيَ تَدْمَعُ ... وجِسْمِي نحيلٌ والحَشا يتقطَّعُ

ولَوْني كئيبٌ والفؤادُ بِحَسْرَةٍ ومالي سهيرَ الطَّرْف والقلبُ موجَعُ

فما نالني هذا سوى مِنْ فراقِ مَنْ له النُّورُ يَبْدُو في البقاع وَيلْمَع

فهو دائم البكاء، حتى لقد شحب جسمه وضؤل، وحتى لقد تَقَطَّعت أحشاؤه واكتأب لونه والتاع فؤاده، ودائما مسهّد الطرف ساهره، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذي يملأ العالم بنوره، وهو ما ينى يذكره ويرسل دموعه، لعل محبوبه- كما يقول- يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله:

أَهْيَتَني عن جِهاتي يا راحتي يا حياتي

ما ضرَّ يا مَنْ سَباني لو جُدْتَ لي بالْتِفاتِ

بِالله يا مَنْ رماني بِأسْهُمٍ صائبات

عَطْفًا على الصَّبِّ عَطْفًا من قَبْلِ كَأسِ المماتِ

وهو يصرِّح في الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا حول مكانه، وكأنما غاب عن وجوده، ونتأهب لكي يتحدث لنا عن وجوده الإنساني وفنائه في الوجود الرباني، وكأنما لم يعد له وجود ذاتي،أوكأنه يدخل عالم الفناء الصوفي أو عالم الشهود الإلهي، ولكنه لا يستمر في بيان ذلك، وكأنه استعار الشطر من ابن عربي وأمثاله، ولم يفكر في الشهود ولا في الفناء. ولا نريد أن ننفي بذلك عنه صفة التصوف، فهو متصوف سني، لا يتعمق في تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن جوده ومن كيانه المادي وله يائية يعارض بها بائية ابن الفارض يقول في فواتحها:

صاحبي عَرِّجْ على نَجْدٍ وحَيْ أهلَ حيٍّ لم يكن يحكيه حَيْ

وهو إنما يعارض بيائيته ظاهرا من يائية ابن الفارض، فليس عند وجده ولا التياعه ولا مجاهداته في الوصول على مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية. لم يكن العيدروس يتعمق في تصوفه هذا التعمق، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ولهٍ جارف.

الفصل الخامس

النَّثْر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية، وأغلب الظن أن الإمارتين اللتين تأسستا في شرقيها لأوائل هذا العصر: إمارة بني مَزْيَد في الحِلَّة وبني عُقَيْل في الموصل كانتا تعنيان بالكتابة، فابن خلكان يذكر أن على بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدي أمير من أمراء بني مزيد في شبيبته[١] ونظن أنه كان لأمراء بني عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بني مزيد. غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعًا، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابي فيهما كان محدودًا. ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنه نشأت في الشمال الغربي للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مِرا وآل على، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك، وفي صبح الأعشَى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بإمارة أمرائهم، وكذلك لآل مهدي في البلقاء، غير أننا لا نعثر بردٍّ من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين. وبالمثل لا نجد كتابات أو كتبًا موجهة من أواسط نجد إلى خارجها، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بداوة من أطرافها الشرقية والغربية، ولعل ذلك ما جعل القلقشندي يقول: إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة، وإنما يُكْتَبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال، إذ عنهم قد عُلم اللسان وعليهم فيه يعوَّل[٢]". وهو قول دقيق وصحيح.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤٩١.

(٢) صبح الأعشى ٨/ ٧٦.

وإذا تركنا نجدا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كُتّابًا للإنشاء، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل في مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق. وفي صبح الأعشى عهد في صورة يمين لأبي نُمَيّ أمير مكة حلف بها لقلاوون. وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المماليك في هذا التنصيب[1]، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم، فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين، بل في حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين، وكانت مصر في أثناء ذلك هي التي تعيِّن أصحاب الوظائف الكبرى في البلدتين، وخاصة في القضاء وفي مشيخة الحرم النبوي، وفي صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين، تُذْكر فيها واجبات الوظيفة[2]. ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتابة سلافة العصر لابن معصوم، وتلقانا فيه خُطَب زواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون في عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم، وهي خطب منمقة يشيع فيها السجع، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله في خطبة زواج: " إن الزواج جُنَّة تُتَّقى بها الفتنة، وجَنَّةٌ يُتْلى على متفيِّئ ظلالها: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) تُثْمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد، وتطلع زينةَ الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسُه ثمرةَ الفؤاد، وتُسْفر ليلته عن طرَّة صبح تحت أذيال الدُّجَى، ويتبلَّج يومه عن شمس تتواري بحجاب الحِجال[3]، والحِجا، وهو الغرض الذي لا يخطئ قاصده الإصابة، والعَرض الذي لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة، والحصن الذي يُعْتَصَمُ به عن الوقوع في حمى الحَرج، ويُحْتَمى به من مصارع الرجال التي هي ما بين معترك الأحداق والمهج، والوسيلة التي يتوسَّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه، ويُنْشده بلبل الأفراح هنيئا لمن أمسى سمير حبيبه،

---

(١) صبح الأعشى ١٢/ ٢٣٣، ٢٤٢ وما بعدهما.

(٢) صبح الأعشى ١٢/ ٢٤٠، ٢٥٨ وما بعدهما.

(٣) الحجال: ستر أو أستار تضرب للعروس في جوف البيت. الحجا: العقل.

وناهيك في فضله ما ورد فيه من الآيات، والأحاديث الثابتة في صحيح الروايات[١]" والتنميق في الخطبة واضح.

ومرَّ بنا الحديث عن الثقافة كيف تحول الحَرمان: المكي والمدني إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف في البلدتين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامي. وشاعت منذ القرن الخامس الهجري كتابة الإجازات العلمية، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه، ويكتب في صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته، ثم يسرد المؤلفات والمرويات. وبجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقريظ الكتب المصنفة، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين. وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته في ترجمته بالجزء الأول من كتابه[٢]، وهي تصور مدى ما كان يأخذ به المقرِّظون لكتابٍ أنفسَهم بتنميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال من الجرس والأداء.

ولعل قطرًا في الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت في اليمن، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩- ٥٣٢ هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديوانًا للإنشاء، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن على بن القِمّ الشاعر النابه الذي ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية. وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمداني كتابه " الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن " بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين، وهي رسائل نفيسة لا لما تصور من شئون السياسة فحسب، بل أيضا لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها في اليمن منذ القرن الخامس الهجري. وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح في زبيد، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جَيّاش بن نجاح صاحب كتاب المفيد في

---

(١) سلافة العصر ص ١٤٢.

(٢) العقد الثمين ١/ ٣٤٧ وما بعدها.

أخبار زبيد الذي اختصره عمارة اليمني، وكان يضم شعراء زَبيد وأدباءها، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها، وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات، ويقول إنه عمل ممتع، مقدمًا بذلك لترجمته في المختصر، ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبي عَقامة كما مرَّ بنا، وكان شاعرًا قتله جياش بن نجاح، ويقول الجَندي عنه " إليه تنسب الخطب العقامية، وله شعر فائق، ترسل رائق"[1]. وبالمثل بعث بنو زُرَيْع بعدن ٤٧٦- ٥٦٩ هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبي بكير العَيْذي، وفيه يقول عمارة اليمني في صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد: " سمعت الشيخ الموفق أبا الخلال في الأيام الفائزية (أيام الخليفة الفائز الفاطمي) والقاضي الجليس أبا المعالي عبد العزيز، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منهما إلا من يقول: لم يصل إلينا من الآفاق، ولا رأينا لكتّاب الشام والعراق، أحسن من مكاتبات ترد عينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبي العتيق أبي بكر بن محمد العيذي بعدن فإن له بلاغة تشهد عذوبة مطبوعها بكرم ينبوعها، وألفاظًا تدل معانيها على فضل معانيها " وكان شاعرًا بارعًا، ومرَّ بنا بعض شعره، ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذه كاتبًا له، فامتنع وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن. وندخل فيلا عهد جديد هو عهد الأيوبيين، وسعران ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦- ٨٥٨) وتُعْنَى بالكتابة الديوانية، ويحتفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وببعض رسائل سياسية، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين المماليك، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين[2].

ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية، في صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتبة بينهم وبين سلاطين المماليك، إذ ينص على رسم المكاتبة إليهم وأنها كانت، " أدام

---

(١) انظر الجندي في السلوك- النكت ٦٣٢.

(٢) انظر صبح الأعشى ٧/ ٣٥٣، ٣٤٤، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٠، ٣٦٦.

الله تعالى- أو ضاعف الله تعالى- نعمةَ- أو جلالَ- الجانب الكريم العالي السيديّ الإمامي الشريفي النسيبِي الحسنيّ العلاميّ سليل الأطهار،جلال الإسلام، شرف الأنام، بقية البيت النبوي، فخر النسب العلويّ، مؤيِّد أمور الدين، خليفة الأئمة، رأس العلياء، صالح الأولياء، علم الهداة، زعيم المؤمنين، ذخر المسلمين، منجد الملوك والسلاطين، ولا زال زمانه مُرْبعًا، وغيله مُسْبعًا، وقِراه مُشْبِعًا، وكرمه لفيض نداه مَنْبعًا، وهُداه حيث أمَّ بالصفوف متَّبعًا[1].." وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع.

وطبيعي أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز. وتكثر تقاريظ الكتب، من مثل تقريظ القاضي شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالمقرئ اليمني لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول: " وقفت على هذا التأليف التالي فوائد العبر، والآتي بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر، فللّه در مصنفه من إمام حافظ، وبحر بجواهر العلوم لافظ، ولاحق، برَّز على السابق، وبَذْل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موفق، بلَّغه الله غاية الأمنية، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية".

وطبيعي أن تكثر المواعظ باليمن، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحي فيه نحو ابن الجوزي، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة[2]. وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر بكتابات أدبية فكهة سنعقد لها حديثًا مستقلاً في غير هذا الموضع.

وكل ما لقيناه في اليمن من نشاط كتابي نلتقي به في حضرموت. فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر، وقد جاء في صدرها: " الحمد لله جامع الظواهر والسرائر، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر، حتى ترتفع عنها الستائر، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر، وتُقْبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر، لترتقي بعين عنايته

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٤٤.

(٢) العقود اللؤلؤية ١/ ١٦٠- ١٦٢.

ورعايته إلى تلك الحظائر، ولم تزل تعتلي بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر، وتتجلّى وراء ما هو آفل وغابر، حتى تشاهد الجمال المطلق بقيومية مَنْ هو فوق عباده قاهر، حتى يأيها النداء: إنَّ هذا جمال لا أول له ولا آخر[١]". ويظل طويلا في هذه النغمة الروحية الصوفية، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذي تعم الوجود أضواؤه.

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابي طوال العصر، وقد عُني نور الدين السالمي بعرضه في كتابه " تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ". وفي طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضي الذي دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بني مكرم الشيعة الإماميين ولاة البويهيين هناك. والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط: " إني أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجره، والعمل بما أمرك الله به من أوامره، فيما ساءك أو سرك، ونفعك أو ضرَّك، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به، وتنهى عن المنكر وتكفّ [الناس] عن فعله، وَلْتَحْذر من خدائع الشيطان، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان[٢]". وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع. ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضي راشد بن على المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السري يكتب له شروطًا بها أسجاع[٣]. ويخلفه محمد بن أبي غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتابًا مسجوعًا من مثل قولهم: " الله تعالى يحرس علينا شريف بقائه، ويزيد في رفعته وارتقائه، ويديم عليه ما اتسع من نعمائه، وينعم علينا عاجلاً بكريم لقائه[٤]": ويتولى بعده موسى بن أبي المعالي بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتابا إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب مسجوع[٥]. وقلما يورد نور الدين السالمي في كتابه " تحفة الأعيان " شيئًا من رسائل بني مكرم الشيعة

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣/ ١٥٤.

(٢) تحفة الأعيان ١/ ٢٦٤ وما بعدها.

(٣) تحفة العيان ١/ ٢٧٥.

(٤) تحفة الأعيان ١/ ٢٩٢.

(٥) التحفة ١/ ٢٩٥.

الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئًا من رسائل بني نبهان السنيين الذين حكموها من القرن السادس الهجري إلى القرن التاسع. حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم، وهي رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع. ويشيع هذا الترصيع والسجع في رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم في شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة.

وليس بين أيدينا نشاط كتابي كثير لأهل البحرين، غير أننا نجد في صبح الأعشى في رسم المكاتبة إليهم فصلاً[1] طريفًا مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة في عهد المماليك. ودوّن ابن معصوم في كتابه " سلافة العصر " بعض رسائل شخصية لأدبائها. وفي كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى. وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد.

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٧٠.

٢

رسائل ديوانية

مرَّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة في العصر ين الأيوبي والمملوكي بل لا شك في أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك في العصر الفاطمي، غير أن ما بقى من هذه الرسائل في المصادر التاريخ وغيرها قليل جدًّا من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبي نُمَيّ أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم[١]: " من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبي نُمَيّ محمد بن أبي سعد: أما بعد فإن الحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من بيت النبوة أوحش، وقد بلغني عنك أيها السيد: أنك آويت المجرم، واستحللت دم المحْرم، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، فإن لم تقف عند حدك، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك، والسلام ".

فكتب إليه أبو نُمَيّ:

"من محمد بن أبي سعد إلى بيبرس سلطان مصر: أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه، تائب إلى ربه فإن تأخذ فيدك الأقوى، وإن تعف فهو أقرب للتقوى، والسلام".

وكان سلاطين المماليك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا في حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والإيمان أن يسير مسيرة قويمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج، مع ذكرهم في الخطبة، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم، وفيما يلي عهد أبي نُمَيّ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضي على هذ النمط[٢]:

"أخلصت يقيني وأصفيت طويَّتي وساويت بين باطني وظاهري في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما.. وإني عدوٌّ لمن عاداهم، صديق لمن صادقهم، حرب لمن حاربهم، سِلْمٌ لمن سالمهم.. وإنني ألتزم

---

(١) العقد الثمين ١/ ٤٦٥.

(٢) العقد الثمين ١/ ٤٦٢.

ما اشترطته لمولانا السلطان وولده في أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرَّفة في كل موسم وأن لا يتقدم عَلَمَه عَلَمُ غيره، وإنني أُسَبِّلُ زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجِّين والواقفين، وإنني اجتهد في حراستهم من كل عاد بفعله وقوله، وإنني أؤمنهم في شربهم، وأُعْذب لهم مناهل شربهم، وأنني استمر- والله- بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وأفعل في الخدمة فعل الملخص الولي. وإنني- والله- أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب، وأكون لداعي أمره أول سميع مجيب".

وواضح أن أبا نمي لم يستخدم في هذا العهد السجع كما استخدمه في الخطاب الذي رد به على بيبرس، وكأنه عني هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب، ولذلك لم يستخدم السجع، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهده، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه، ولذلك جاء خاليا من التنميق.

والرسائل الديوانية في اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية، ومن أبلغها بيانًا رسالة الحسين ابن على بن القِمّ كاتب الإنشاء للدولة الصحليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصُّلَيْحي سنة ٤٦٠ وهي موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلي بن محمد الصليحي في طريقه إلى الحج في ذي القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزبيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه، مما مكنه أن ينقضَّ على آل نجاح في السنة التالية، ويستحق جموعهم. ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند، وتدخل زبيد في طاعته. ويصور ابن القِمّ في الرسالة انتصارات الملك المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محقها محقًا. والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغَمْسه أو صَبْغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية، ونحن نسوق منه أطرافًا تصور روعتها البيانية[1]:

---

(١) انظر الرسالة في كتاب " الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن " للدكتور حسين الهمذاني ص ٣٠٨.

"المملوك يناجي حضرة الإمامة، ويناهي سُدَّة الخلافة، جعل الله عزهما باقيا على الأيام، ومجدهماغير مقطع الدوام، عالمًا أنه يَلْبَسُ بذلك شرف الدارين، ويستولي به على الحُسْنَيَيْن، شائمًا (متطلعًا) من مولاه بَرْقًا مُضِيًّا، ومستظلا من سحاب الإكرام وَدْقا (غيثًا) رَوِيًّا، ومتبوِّئًا من رُتَب الاختصاص مكانا عَلِيًّا، ومتعرضًا لمنزلة من أدناه وقَرَّبه نَجِيًّا. إنه قد كان قدَّم خدمة يطالع بها بأبناء جزيرته، وينهي أخبار دعوته، وما جرى عليه أمرها من الفتن، ودارت فيه من دوائر المحن، التي ملأت قلوب أعداء الدين سرورًا، ازداد بها الكافر طغيانًا وكفورًا، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامنا مستورا، وقال الذين في قلوبهم مرض (مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)... وجَدَّ عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زَبيد.. فوردها في التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلي العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافًّا على أحد أبواب المدينة، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان في أنفه، وأراه الحياة في حتفه، وقد عصب برأسه من الكبر تاجا ظن أن الله لا يستطيع له نَزْعا، وتجلْبَبَ من الجبروت بثوب لا يروم ما عاش خلعا.. (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا). فدَلَف إليه المملوك في جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصارا، واتخذوا الصبر شعارا، والله- عز وجلَّ- جار المتمسكين بسبب الله الذي لا ينقطع من تمسك بسببه، جائدين بأنفسهم في ابتغاء رضاه وطلبه، وخوف سخطه وغضبه.. فلما تراءي الجمعان وتداني الفريقان، ماجت الصفوف، وسالت الزحوف، ولمعت السيوف، ووكفت (سالت) الحتوف، وتزلزلت الأقدام، وصال الحِمام، واغبرَّ القَتام (الغبار) وتداعبت الأبطال، وتدانت الآجال، واكتأبت الرجال، وانقطعت الآمال.. وشخصت الأبصار، والتحمت الشِّفار (السيوف) وطُلبت الأوتار، وأعْوز الفرار... وطفقت سيوف الحق تلهمهم،وأيدي المؤمنين تقسمهم، فتركوهم بين ضَريج بدمه، وهاو ليديه وفهمه، وشاردٍ لم يُنْجه سعي قدمه، ونادم لم ينتفع بندمه... ومعفور نطيح، ومطعون جريح، وقد عادوا فرصةً لكل واثب، وأُكْلة لكل

ناهب، مصرّعين مصارع أمثالهم الكافرين وواردين موارد أعمالهم خاسرين، قد قطع الله أوصالهم، وبتَّ من حبله حبالهم".

والرسالة طويلة وابن القِمّ يلتزم فيها السجع، وواضح أنه يعني باصطفاء ألفاظه، والملائمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجَرْس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبوًّا ولا نشازا في عبارة من عباراته. ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التي يقتبسها تلتقي فواصلها مع قوافيه التقاء طبيعيا، وهو التقاء كان يقصد غليه قصدًا حتى يلتحم جَرْس النغم في الرسالة التحاما تاما.

وكأنَّ ابن القم كان استهلالا قويا لأن تأخذ اليمن منذ عصره في العناية برسائلها الديوانية عناية يعمّ فيها غير قليل من التنميق ورَصْف السجع وتدبيجه. ويلاحظ ذلك بوضوح في الرسائل والعهود المكتوبة في الدولة الرسولية، على نحو ما يلاحظ في العهد الذي فوَّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧- ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر، وه ويستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاء[1]:

"أما بعد فقد مَلَّكْنا عليكم مَنْ لا نؤثر فيه- والله- داعي التقريب، على باعث التجريب، ولا عاجل التخصيص، على آجل التمحيص، ولا ملازمة الهوى والإيثار، على مداومة البلوى والاختبار. وهو سليلنا الخطير، وشهابنا المنير، وذخيرتنا على المراد، وبصيرنا الذي نرجو به صلاح البلاد والعباد، ونؤمّل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد، وقد رسمنا له من وجوب الذبِّ والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما قد التزم بوفاء عهده. والمسئول في إعانته مَنْ لا عون إلا من عنده. ولن نعرفكم من حميد خصاله، وسديد فعاله، إلا بما قد بدا للعِيان وزكا مع الامتحان، وفشا من قِبَلكم في كل لسان".

وواضح ما في العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلسا سلاسة الماء النمير، وواضح أيضًا ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته، فكلمة " داعي التقريب "

---

(١) العقود اللؤلؤية ١/ ٢٧٤.

توضع على وزنها كلمة " باعث التجريب " وكلمة " عاجل التخصيص " تليها موازنة كلمة " آجل التمحيص " وكلمة " ملازمة الهوى والإيثار " توازنها كلمة " مداومة البلوى والاختبار " وكل ذلك إرضاء لأذن السامع. ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات في نهاية السجعة مثل " الذب والحماية " و" الرفق والرعاية " و " حميد خصاله " و " سديد فعاله " مما يدل بوضوح على الرغبة في اكتمال نغم الكلام.

وتلقانا في عهد السلطان الأشرف وربما كان في عهد أخيه المؤيد (٦٩٦- ٧٢٠هـ) رسالة موجهة من الأمير الزيدي محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكي. الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولي الذي طالت بينهما الحروب، معددا قبائحه، مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره، وإجرائه مجرى الذين ظلموا في تعجيل دَماره. وقال في رسالته: إنه إذا حضرت الجيوش المؤيَّدة قام معها، وقاد الأشراف والعرب أجمعها، ثم إذا استنفذ منه ما بيده أُنعم عليه ببعضه، وأُعطي منه ما هو إلى جانب أرضه، ثم قال: وكتبت إلى السلطان مؤذنًا بالإجابة، مؤديًا إليه ما يقتضي إعجابه.. ولا رغبة لنا في السلب، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب ". واقتطف القلقشندي قطعة من الرسالة مسجوعة(١)، وكأن السجع أصبح منذ ابن القم صفة عامة في الرسائل والعهود اليمنية. ونمضي إلى زمن السلطان الرسولي الأشرف إسماعيل (٧٧٨- ٨٠٣ هـ) فيرسل السلطان المملوكي برقوق إليه برسالة معها هدية، يحملها القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عُروض التجارة، ويبادله الأشرف إسماعيل هدية بهدية، وكتابًا بكتاب أو رسالة برسالة. ويطلب في رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجرا وغير تاجر، وأن يأذن له في حج البيت الحرام، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام. ويشكو من ارتفاع النفقات في مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كي يخفضها، لأنه تابعه. وإن

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٣٧.

كان لم يصرح بذلك. ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشرف إسماعيل عن هيدته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته، يقول[١]:

"لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري، أعزَّ الله أنصاره، بمقدار همته الشريفة العالية، ورتبته المُنيفة السامية،لاستُصغرت الأفلاكُ الدائرة، والشهب السائرة، واسْتُقِلَّت السبعةُ الأقاليم تحفة، والأرض وما أقلته طُرْفة، ولم نَرْض أن نبعث إليه الأنام مماليك وخَولا (عبيدا)، ونجبي إليه ثمرات كل شيء قُبُلاً، ولو رام محبُّ المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقَصُرَ عنها حَوْلُه، ولم يصل إليها طَوْلُه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور، بين الجمهور، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد، وليس على المستمر على الطاعة سوي الاجتهاد، والمخلصُ في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد".

والرسالة كلها من هذا الأسلوب الذي يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع في عباراته، حتى يروق الأسماع، بل حتى يبهرها، بسحن تنسيقه وجمال رَصفه ونسجه. وكان كتّاب الإنشاء في كل دولة عربية يتبارون في تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب الموسيقي، حتى تلذ ألفاظه الألسنة، وحتى تقع موقعًا حسنًا من القارئين لها والسامعين.

ومر بنا في عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عمالهم، يأمرونهم فيها بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا في الرعية سير عادلة، وكانت الرعية كثيرا ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح. ومضوا على ذلك طويلاً حتى إذا كنا في القرن الحادي عشر الهجري وجدنا الإمام الأباضي ناصر بن مرشد (١٠٢٤-١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهودا كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله في "الباطنة"[٢]:

"إني قد وليتك على قرية لويّ من الباطنة.. على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف، وتنهاهم عن المنكر المحوف، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين، وتُحْيي فيهم سنة النبي الأمين، وآثار الأئمة المهتدين، وسيرة القادة المخلصين، الذين جعلهم الله منار الهدى،

---

(١) صبح الأعشى ٨/ ٧٣.

(٢) تحفة الأعيان ٢/ ٢٦.

وقادة الناس إلى التقوى، وأورثهم الكتاب والسنة، يدعون إلى طريق الجنة.. ولا تَخَفْ في الله لومة لائم، ولا عَذْل مجرم آثم، وأن تخلط الشدة باللين،وأن تخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.. فالله ! الله يا أبا الحسن في اكتساب الحسنات، وإنكار المنكرات، بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله في الجدِّ والتشمير، وترك التهاون والتقصير".

ولا يطَّرد السجع دائما في عهود ناصر بن مرشد، وحتى في العهد الواحد يستعمله حينًا وحينا لا يستعمله، ويغلب في سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون متكلفًا، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شي من الرَّيْث في اختيارها إلا قليلاً، وكأنهم يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر وولي سلطان بن سيف (١٠٥٠- ١٠٩١ هـ) ويفتتح ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة[1]:

"الحمد لله العزيز عزَّ أن تعوم في بحور صفات جواري (سفن) الفِكَر، وأن تروم تنظر كواكب تكيُّفه بصائرُ أولي البصر، أو أن تشاهده بمخارق العِيان والنظر، والعالم بدبيب النملة والذر.. الذي (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) ولا (فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر، أو أن يدرك الأشياء بالسماع والخبر، أو أن تجري عليه أحداث القضاء والقدر، أحمده على ما صبَّ برياض قلوبنا من سلسال العبر، وحَسم عنا من أوصاب الكدر. وأشكره على ما خوَّلنا من يانع نعمه وقدَّر، وسقانا من عصير كَرْم كرمه وعَزَّ وتكبَّر. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعدها جُنَّةً ليوم المحشر، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وَزر... وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله دعا إلى الله وأنذر، وقاد الناس إلى الخيرات وبشَّر، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكّر".

وأكبر الظن أن كاتب هذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه، بل لقد كان أديبًا عالمًا، فهو يصدر في أول العهد عن عقيدة الإباضية التي تحدثنا عها في الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفي

---

(١) التحفة ٢/ ٤٧.

التجسيم عن الله بكل صورة من صوره وتنزيهه تنزيها مطلقًا عن الشبه بالمخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كَيْفٌ أو جهة أو أي صفة من صفات البشر. والكاتب أديب بارع، فقد التزم في نحو صحيفة كبيرة صدَّر بها الرسالة قافية الراء، وطاوعته دون أي عسر أو التواء، مما يدل على تملكه لناصية الكلام. وهو يعني بالتنميق في عباراته، إذ يضيف إليها وشي الجناس والتصاوير والاقتباس من الذكر الحكيم، على نحو ما يتضح في اقتباسه لقوله جَلَّ شأنه: (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) وقوله (فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ). وتكثر الاقتباسات والجناسات في العهد بعد تلك المقدمة. وقد ذكرنا في الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قَبض على صولجان الحكم في دياره ومدينتا صُحار ومَسْقط في أيدي البرتغاليين، فطردهم كما مر بنا منهما ومن سواحل بلاد شره طردة مستعينًا في ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم في كل موقع، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلمام باليمن، فدمروها تدميرا ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدي إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب، ويتبادلان رسالتين، في أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه[1]:

" إنكم علينا عاتبون، ومنا واجدون، لأجل قطع جنودنا في العام الماضي رقاب المشركين على بابكم، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم. و لعمري إنا لندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء، وزائدٌ مَحْضَ المودة الصادقة والوفاء، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم، وانتهاك المحارم. ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً، إذ كنا لم نجهز مراكبنا، ونتخذ مخالبنا، لمشارَّة (لمخاصمة) رعيتك، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمك وأقضيتك (أقاليمك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر، وأعددنا اللهاذم والبواتر، لتدمير عبدة الأوثان، وأعداء الملك الديّان تعرُّضًا منا لرضا رب العالمين، وإحياء لسنة نبيه الأمين، ورغبة في إدراك أجر الصابرين المجاهدين. وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عَبدة الأصنام، وأعداء الله والإسلام، ألستَ

(١) التحفة ٢/ ٥٦.

من سلالة على ابن أبي طالب، الساقي المشركين وَبِيء المشارب، وأنت تدري ما جري بيننا وإياهم من قبلُ في سواحل عُمان، وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة الصِّيال، وتناهب الأملاك والأموال، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحلّ به مراكبهم وتغشاه، حتى من كنج وجيرون بَنْدَري الشاه (ملك فارس) ولم يُظْهر لنا من أجل ذلك عتابًا ولا نكيرًا، وإن كنت في شك من ذلك فاسْئَلْ به خبيرًا".

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك في تعقب البرتغاليين مدافع في ظَفار التابعة له وأنه حريّ أن يردها عليه. وتمتلئ قلوبنا أسي حين نقرأ رسالة إسماعيل بن القاسم التي ردَّ بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصفح عن كبوته وعثرته المُرْدِية، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته، يُبْرق له ويُرْعد، ويتهدد ويتوعد، إذ تمضي رسالته على هذه الشاكلة[1].

"وصل كتابك الذي شحنته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب، إلى تخشين الخطاب، ظنا منك أن هذيان وعيدك، وطنين ذباب تهديدك، يزعزع من بأسنا صخرةً صمّاء، أو يحرِّك من وقارنا جبالاً شَمّاء، وكيف يكون ذلك

وأسيافُنا في كل شرقٍ ومغربٍ ... بها من قِراعِ الدارعين فلولُ

أين ذهب حِجاك حتى طلبت منا المدافع، بهذه الأراجيف والفقاقع، وإنما تقطع أعناقَ الرجال المطامع. أما علمت أن الليث إذا هِيج على فريسة كان أشد إقدامًا، وأعظم جرأة واعتزامًا، لا جرم أنها لما نأت بنا وبك الديار، وحالت دوننا ودونك الأمصار، استرسلت في لفظك، وجاوزت في سوء المقدار حَدَّك، وانفردت بأرضك، فطلبت الطعن والنزال وحدك:

يا سالكا بين الصوارمِ والقَنا ... إني أشُمُّ عليك رائحةَ الدَّمِ

فاقطع عُرى آمالك عن هذه المدافع، فهي أول غنيمة- إن شاء الله- من قطرك الشاسع.

---

(١) التحفة ٢/ ٥٨.

والكتاب حقًّا محزن، إذ كان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده في يد سلطان بن سيف حين جاءه كتابه، ويعود إليه صوابه، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآثمين. وعلي العكس من ذلك مضى في غَيِّه يتوعد سلطان بن سيف كمعركة النهروان التي تعقب بها على بن أبي طالب الخوارج ومزَّق جموعهم، وكان حريا أن يحيِّي فيه جهاده للبرتغاليين ويشدّ أزْرَه، لا برد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال، وإن لم يستطع أن يمده بالفرسان والرجال!. والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مهما شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية.

٣

رسائل شخصية

طبيعي أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة، إذ كان يلم بهما كثير من العلماء والأدباء، وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلدتين وأدبائهما، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم، من ذلك رسالة كتب بها مفتي مكة الحنفي وأحد أعلاهما العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمري إلى أبي المواهب البكري مفتي الديار المصرية، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة، وهو يستهل رسالته على هذا النمط[1]:

"إنَّ أشرفَ ما تتوَّج به المفارق والرءوس، وأبهرَ ما تبتهج به المهارق والطُّروس، وأبهى ما يُنْظَمُ في سلك السطور، ومن الدُّرَرِ الباهرة لدرر النحور، وأنهى ما يُرْقَمُ (يكتب) في صكوك الصدور، من الغُرر المضاهية للآلئ البحور، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودُها، وتسليمات رُقمت بطراز الاختصاص بُرودها، تشفعها الأدعية التي على ألسن المقربين تُتلى.. صادرة من قلب منيب أوّاه، ناظرة أن ليس في الوجود إلا الله، فها ملائكةُ الإجابة، تحفُّها بالقبول والإنابة، بأن يديم الله للعلم وأهله، ويُبْقي للفرع وأصله، بقاءَ مولانا الأستاذ الأعظم، والملاذ الأعصم، والجهبذ النقاد، والكوكب الوقاد، والبحر الزخار، والليث الزءّار، عالم الإسلام على الحقيقة، الجامع للشريعة والطريقة، كشاف مشكلات العلوم، حلال معضلات الفهوم:

عَلاَّمَةُ العلماءِ واللُّجُّ الذي ... لا ينْتَهي ولكلِّ لُجّ ساحلُ

الإمام العلامة، الهمام الفهامة، شيخ الإسلام، ملجأ الأنام، مفتي المسلمين، صدر المدرسين، الحَبْر النِّحْرير، إمام الفقه والتفسير.. مفتي السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

---

(١) سلافة العصر ص ٧٣.

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة ". وإذا تساءلنا ماذا قرأنا في الرسالة حتى الآن لاحظنا تَوًّا أننا لم نقرأ إلا سلاما وتحية ودعاء وثناء. وهذه المعاني البسيطة تتحول إلى ما يشبه خيطا تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة، صيغت في أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضمونًا واضحًا، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين الكي من رسالة كتب بها إلى صديق له في الطائف ردا على رسالة كان بعث بها غليه، وهو يمضي فيها على هذا النحو[1]:

"ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها، وما حديقة حسناء تصادحتْ أطيارها، وما دَوْحةٌ أمال أغصانها النسيم، وما سَرْحةٌ (شجرة) غرَّدت بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم، وما هيفاء قد برزت متلثِّمة بالجمال، وطلعت بأفق الحسن كالهلال، وما الخزامي والمندل (العود) الرطب، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبّ (سطع) وما الدر المكنون في الصَّدف، ما ساعات السرور المعدومة من الصُّدف، بأجل من كتاب ورد فبرَّد بوروده غليل مشتاق، وأخجل بورده وعُوده روائحَ النرجس الغَضِّ وما يُنْثر في الأطباق، قد نظمتْ قلائدَ عِقْيانه أناملُ مولى تسنَّم ذروة المجد، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد، تختال في رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تحلق جواده، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كي لا تضل جادة الإصابة والإجادة، قد هبَّ من خلال سطوره نسيمه الرطب فأشفى العليل، وجري من بحر منثوره شهده العذب، فبرَّد اللوعة وأطفأ الغليل ".

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة، وكأن ليس الغرض أن تؤدي الرسالة طائفة من المعاني، إنما هي تؤدي طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس. وحاول الشيخ أن يظهر تفننه في صنع العبارة المسجوعة، فأطالها في آخر هذه القطعة، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخليا، فكلمة " فرسان البلاغة " وفي عبارة يقابلها " أرباب الفصاحة والبراعة " وفي العبارة التالية، وكذلك كلمة "

---

(١) سلافة العصر ص ٩٩.

نسيمه الرطب " في عبارة يتلوها في العبارة التالية " شهده العذب " وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد.

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا في رسالة استعطاف بديعة للحسين بن علي بن القِمّ وجَّه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصُّلَيحي (٤٨٦-٤٩١هـ) يستعطفه، ولا ندري بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان- كما مر بنا في ترجمته بين الشعراء- القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكاتب رسائلها، وتذكر المصادر أن أباه وضع يده في يد جياش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية. وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه، والرسالة تمضي على هذا النمط[1]:

"كتب عَبْدُ حضرةِ السلطان الأجلّ مولاي ربيعِ المُجْديين، وقَريع المتأدبين، جَلْوة الملتبس، وجذوة المقتبس، شهاب المجد الثاقب، ونقيب ذوي الرشد والمناقب، أطال الله بقاءه، وأدام علوَّه وارتقاءه، وما قُدِّمت العارية للمستعير، ولزمت الياء للتصغير، وجعل رتبته في الأوَّلية عالية المقام كحرف الاستفهام، وكالمبتدأ إن تأخر في البِنْية، فإنه مقدم في النِّيَّة. ولا زالت حضرته من الحادثات حِمَى، وللوفود مُزْدَحمًا وملتزَما، حتى يكون في العُلا، بمنزلة حرف الاسْتعلا.. ولا زال عدوُّه كالألف، حالها يختلف، تسقط في صلة الكلام، ولا سيما مع اللازم،فإنه- أدام الله علوه- أحسن إليّ ابتداء، ونشر عليّ من فضله رداء، أراد أن يخفى وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان، سقوط ذكره عن اللسان- كالمفعول رُفع رَفْع الفاعل الكامل لما حُذف من الكلام ذكرُ الفاعل- وأنا أهدي إليه سلاما ما الروض ضاحكه النَّوْض[2]، غُرِس، وحُرِس، وسُقي، ووُقي، وغِيب وصِيب[3]، فأخذ من كل نَوْءٍ[4] بنصيب، زهاه الزَّهر، وسقاه النَّهر، وجاور الأَضا[5] فحَسُن وأضا، رَتَع فيه

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٢.

(٢) النوض: مجري الماء، ويريد الماء نفسه.

(٣) غيب: غاب بذره في الأرض وصيب: أمطر.

(٤) النوء: المطر.

(٥) الأضا: الغدير.

الـشُّحْرور[١]، ومـرَح العـصفور، فنظـر إلى أقاحيـه، تفـترُّ في نواحيـه، وإلي البَهـار يـضاحك شمس النهـار، فجعـل يَلْـثِمُ مـن ورده خـدودًا، ويـضم مـن أغـصانه قـدودًا، ويقتـبس النـارَ مـن الجُلّنار[٢] ويلتمس العقيـق مـن الـشقيق[٣] فتثنّـى ثَمِـلاً، وغَنّـى خفيفًـا ورَمـلاً، بأطيـب مـن نفتحـه المـسكية، وأعطـر مـن رائحتـه الذكيـة، وإني وإن أهديتـه في كـل أوان، مـن أداء مـا يجـب غـيرَ وان، أعُدُّ نفسي السُّكَّيت[٤] في السبق لتقصيري لما وجب عليّ من الحق".

وكل من يقرأ رسـائل أبي العـلاء المعـري يحس بوضـوح صـلة هـذه الرسـالة بهـا، ومـرَّ بنـا في حديثنا عـن شـعره أنـه كـان يـستوحيه في بعـض أبياتـه، ومعـروف أن أبـا العـلاء كـان يتـصنع في رسائله تصنعًا واسعا لجلـب مـصطلحات العلـوم اللغويـة، هـو أول مـن نهـج بقـوة هـذه الـسبيل ومهَّدها لمن جاءوا بعده[٥]، وتـأثره فيهـا شرقًـا وغربًـا الكتّـاب، وهـا هـو ابـن القـم اليمني الـذي يوشك أن يكـون معـاصرًا لـه يتـأثره في هـذا الأسـلوب الجديـد، فـإذا هـو يـدعو لـسبإ بـن أحمـد بدوام علـوه وارتقائـه دوام لـزوم اليـاء عنـد الـصرفيين للتـصغير، ويـدعو لـه بـدوام تقـدم رتبتـه عـلى الأمـراء والـسلاطين مـن حولـه كـدوام تقـدم حـرف الاسـتفهام عـلى جملتـه أو عباراتـه، وكـدوام تقـدم حـرف الاسـتفهام في جملتـه أو عبارتـه، وكـدوام تقـدم المبتـدأ عـلى الخـبر، وحتـى إن هو تأخر عنـه كـان متقـدما عليـه في النيـة. وإنـه ليتمنـى لـه أن يظـل دائـما متـسنمًا ذروة العـلا، مثلـه مثـل حـروف الاسـتعلاء عنـد أصـحاب التجويـد والقـراءات وهـي سـبعة: ق، ظ، خ، ص، ض، غ، ط، وهـي دائـما تفخـم في النطـق، فـلا يـدخل عليهـا ترقيـق. ويجعـل عـدوه كـالألف، حالـه دائـما مختلفـة، إذ هـي تـأتي للوصـل وللقطـع، ولا ينطـق بهـا في مثـل الـشمس والنور الصلاة.

---

(١) الشحرور: طائر كالعصفور رخيم الصوت.

(٢) الجلنار: زهر الرمان.

(٣) الشقيق: ورد كبير أحمر.

(٤) السكيت: آخر خيل الحلبة.

(٥) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (نشر دار المعارف- الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها.

ولا ريب في أن ذلك تعقيد وتصنع شديد، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات. وظاهرة ثانية في الرسالة اندفع فيها ابن القِمّ وراء أبي العلاء وإن لم يبعد إبعاده، وهي ظاهرة التصنع للفظ الغريب، فقد وشّاها به، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم، حتى يثبتوا مهارتهم، وهي مهارة لغوية خالصة. ونحمد لابن القِمّ أنه لم يسرف في هذه المهارة. والرسالة تصور براعة حقيقية في استخدام السجع، فقد كان يستطيع أن يأتي به قصيرًا، بل مفرطًا في القصر، حتى لتكون السجعة أحيانًا كلمة واحدة والجناس كثير في العبارات، ومن مثل قوله: "جَلْوة الملتبس" و"جَذْوة المقتبس" و"البهار" و"النهار" إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة، وهو يمضي فيها مستعطفًا محاولا بكل ما في وسعه أن ستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله:

"وأما حال عبده، بعد فراقه في الجَلد، فحال أم تسعة من الولد، ذكور، كأنهم عِقبان وصقور، كَنُّوا[1] في وُكور، اخترُم[2] منهم ثمانية، وهي على التاسع حانية. نادى النذير، العُربان في البادية، للعادية يالَلْعادية[3]، فلما سمعت الدّاعيَ، ورأت الخيل وهي سراع جعلت تنادي ولدها: الأناة ! الأناة ! وهو ينادي العُداة ! العداة:

بَطَلٌ كأن ثيابه في سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءَمِ[4]

فحين رأته يختال في غضون الزَّرد المصونه[5] أنشأت تقول:

نَشَدْتُ أَضْبَطًا يَميـ ... ـلُ بين طَرْفاءٍ وغِيلْ[6]

---

(١) كنوا: استتروا وأقاموا.

(٢) اخترم: مات.

(٣) العادية الأولى: الداهية، والثانية: الخيل.

(٤) البيت لعنترة والسرحة: شجرة طويلة. يصف خصمه بالبطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة ويصفه بالترف إذ ينتعل بنعال السبت الجيدة، كما وصفه بالقوة إذ ليس توأما شركه غيره في بطن أمه.

(٥) غضون: ثنايا ويريد بالزرد المصون الدرع.

(٦) الأضبط: العامل أو المقاتل بيمينه ويساره والطرفاء: شجر. الغيل: الغابة.

لباسُه من نسْج دا ودَ كَضَحْضاحٍ يَسِيل[١]

فعرض له في البادية أسدٌ هَصُور،كأن ذَرْعه مَسَدٌ[٢] مضفور:

فَتطاعَنا وتواقفتْ خيلاهما وكلاهما بطلُ اللقاء مقنَّعُ

فلما سمعتْ صياحَ الرَّعيل[٣]، بَرَزَتْ من الخِدْر بِصَبْرٍ قد عِيل[٤]. فسألت عن الواحد فقيل لها: لحَده اللاحد:

فكرَّت تبتغيه فصادفتْهُ على دمهِ ومصرعه السِّباعا

عَبِثْنَ به فلم يتركن إلّا أديمًا قَدْ تمزَّق أو كُراعا[٥]

وما هذه الأم الثكلى بأشدَّ من عبدك تأسفًا، ولا أعظم كمدًا وتلهفًا، وإنه ليعنِّف نفسه دائمًا، ويقول لها لائمًا: لو فَطِنْتِ لَقَطَنْتِ[٦] ولو عقَلْتِ لما انتقلتِ، ولو قَنِعْتِ لرجعتِ، وما هَجَعْتِ:

يُقيم الرجالُ الموسِرون بأرضهم وترمي النَّوَى بالْمُقْترِينَ المراميا[٧]

وما تركوا أوطانهم عن ملالةٍ ولكنْ حذارًا من شَماتِ الأعاديا

أيها السيد! أمن العدل والإنصاف، ومحاسن الشِّيم والأوصاف، إكرامٌ لمهان، وإذلال جواد الرِّهان، يَشْبع في ساجورة[٨] كلبُ الزِّبْلِ، ويَسْغَبُ في خِيسه أبو الشِّبْل[٩]:

---

(١) تصف درعه وأنه متين من نسج داود، ويشبهون كثيرا الدروع وثناياها بغدران المياه حين هبوب الرياح عليها.

(٢) هصور: شديد. ذرع: طول. مسد: حبل.

(٣) الرعيل: القطعة من الخيل.

(٤) عيل: نفد.

(٥) الكراع: الساق.

(٦) قطنت: أقمت.

(٧) المقترون: أصحاب العيش الضيق.

(٨) الساجور: خشبة صغيرة تعلق في عنق الكلب.

(٩) يسغب: يجوع. الخيس: غيل الأسد.

إذا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مكانةَ فاضلٍ وأَصبح ربُّ الجاه غيرَ وجيهِ

فإن حياةَ الحرِّ غيرُ شَهِيَّةٍ إليه وطعمُ الموت غيرُ كريه

أقول لنفسي الدنيَّةِ هُبّي طال نَوْمُكِ واستيقظي لا عزَّ قومك، أرضيتِ بالعطاء المنزور[1] وقنعتِ بالمواعيد الزور، يقظةً فإن الجِدَّ قد هَجع، ونُجْعَة فمن أجْدَب انتجع".

ويتشبه ابن القم في هذه القطعة بأبي العلاء من ناحية وببديع الزمان الهمداني من ناحية أخرى، وأما تشبهه بأبي العلاء أو محاكاته له فتتضح في الألفاظ الغريبة التي يحشدها في نثره، وحتى الشعر يرى أنه يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب، على الأقل إلى حد ما. وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار وقد حاكاه في ذلك وفي تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية، حين شبَّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم، وبقي لها ولد واحد، وهو كل أملها في الحياة، فإذا غارة على الحي، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحريم. وهي تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده، ويتراءى لها في بطولته وبأسه وسلاحه، وعبثا تحاول ردَّه. ويلقاه من الأعداء فارس، بل أسد هصور، وتدور عليه الدوائر، وتسمع صياح الخيل حين عودتها، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها، وتعرف أنه سُفك دمه، فتخرج إلى العراء باحثة عنه، وتجده أشلاء ممزقة فياللهول ويا للكارثة المقضَّة للمضاجع. ويقول إنه ليس أشد أسفًا منها ولا كمدا وتلهفا على فقده لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته. ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتابًا رقيقًا، كله لطف، ملوِّحا له بحقه عليه، وإنه قرَّب إليه واصطفي من هم دونه في المنزلة الأدبية، وكأنه يَعْرض عليه الصفح عنه والعفو، آملا في العودة إلى سابق مكانته،وإنه ليصرح بأنه أجدب، وخليق به أن ينتجع، وأن يجد الوادي ممرعًا كعهده.

وإذا كنا قد وجدنا في اليمن كاتبا مبكرا يحاكي أبا العلاء وبديع الزمان في بعض رسائلهما فإننا نجد في حضرموت كاتبًا يحاكي الحريري لا في مقاماته، ولكن في بعض

---

(١) المنزور: القليل.

رسائله، كان الحريري قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقًا أخلَّ به في دعوة دعا غيره إليها. وعلي غراب هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمي رسالة سينية طويلة نقتطف من مطلعها قوله[1]:

"باسم السلام[2] أستبدي، وبإسعافه استهدي، وبأسمائه استنجد، ولنفثات سره استنشد، وبإسبال ستره استظل وبإسدال أستاره أستقلّ... تقدس سبحانه، وسما إحسانه، واستطال سلطانه، واستعينه واستنصره، وأستقيله وأستغفره، وأستعيذه من دسائس إبليس، وسائر التلابيس، وسطوة النفوس، وسؤال المنحوس.. وأسأله التيسير، وسكون الفردوس لا السعير، وأسلم سلاما مستمرًا، يتلمس سيد السادات سنيَّ السيرة، حسن السريرة، المخرس بلَسَنه المُلْسِنين، السالك سبيل أسلافه السائدين".

وتمضي الرسالة في ألفاظ مبعدة في الغرابة، كي يدل الكاتب على مهارته، وهي ليست مهارة أدبية، ولكنها مهارة لغوية، وكانا يعدونها زخرفا وتنميقا، نحس كأن الكلمات يرص بعضها بجوار بعض في الرسالة، فهي صفوف سينية، أو هي صناديق سنية، نقرأ فيها سينيات، ولكن لا نقرأ فكرا ولا شعورا، وقد كثر فيها الجناس كثرة مفرطة. وكل ذلك محاكاة للحريري ومحاولة للدنو من طريقته في رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين، مع ما يطوي في ذلك من التصعيب والتعقيد. ويقول من ترجما له وكتبوا عن هذه الرسائل إنه كان لها دوي بعيد في الأوساط الأدبية الحضرمية، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلا. على أن الكثيرة من رسائل الأدباء الحضرميين لم تكن تغرب هذا الإغراب، بل كانت تكتفي بالسجع وقلما اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة.

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣/ ١٤.

(٢) السلام: من أسماء الله.

ونترك حضرموت إلى البحرين، ونلتقي في كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبي شبانة البحراني إلى ابن المعصوم صاحب الكتاب، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها، يقول[1]:

"أُنْهي أَبْهَى سلام، شَدَت بنغمات السرور أطياره، وبَدَتْ على صفحات الدهور أنواره، وأصلحَ دعاءٍ تعاضدت شرائط إجابته، وترادفت وسائط إصابته، وسمت مصاعد قبوله، ونمت فوائد فروعه وأصوله، وأنفس ثناء ثُنيت بالوفاء وسائده ومساندة، وبُنِيت على الولاء قواعده ومقاعده، وخالص إخلاصٍ حديث خلوصه قديم، وحظ خصوصه مستيم، أخدم به... شمس سماء المحامد والفضائل، وغُرَّة سماء الأماجد والأفاضل، ديباجة صفحتي الشرف والفتوة، ونتيجة مقدمتي الولاية والنبوة، صاحب ذيول العز الشامخ، وصاحب أصول المحتد الباذخ، مربع الكرم والجود، ومرتع الآمال والمقصود، الذي نيطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة، وأصبحت كعوب أعراقه في الكرم متناسقة، وشعوب أخلاقه في الهمم متوافقة".

وتطَّرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وَشْيْ الجناس، إن صح أن سمي هذا واشيا، وما هو بوشي، بل هو ألفاظ متراصَّة، وقد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها، والعدد ليس كافيًا، بل لابد أن تكون موازِنة لها موازَنة تامة، فكلمة " شدت بنغمات السرور أطياره " توازنها كلمة " بدت على صفحات الدهور أنواره " وكلمة " تعاضدت شرائط إجابته " توازنها كلمة " ترادفت وسائط إصابته " وفي أثناء ذلك تُرَصُّ الجناسات رصًّا، فالوسائد تليها المساند، والقواعد تليها المقاعد، ويلي ذلك خالص وخلاص وخلوص وخصوص. وكلمة " شمس سماء المحامد والفضائل " توازنها كلمة " غرة سماء الأماجد والأفاضل " وكلمة ديباجة صفحتي الشرف والفتوة " توازنها كلمة " نتيجة مقدمتي الولاية والنبوة " وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى في الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم. ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه

---

(١) سلافة العصر ص ٥٠٦.

طبيعية، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفِرْجار، وقد حُشد الجناس بجميع صوره: جناس الاشتقاق والجناس الناقص، وحُشد كثير من الاستعارات، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحَظ في وسائد الثناء ومسانده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق. وهذه الصورة التي يسودها التصنع كانت شائعة في البلاد العربية وخاصة في حقب هذا العصر المتأخرة.

٤

مواعظ وخطب دينية

لا ريب في أن المواعظ كانت مزدهرة في مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس، أو يلقون عليهم المحاضرات، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر، فالناس كأنهم سَفْر وقوف، وكل منهم ينتظر أجله، ولن ينفع أحدًا إلا ما قدمت يداه. وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامي، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدي فريضة الحج، وكان كثير منهم يجاور بها أو المدينة، ويتحول واعظًا في الحرم المكي أو الحرم المدني. وكم كان الأدب العربي يَثْرَى ويَغْنى لو أن الوعظ في المدينتين سُجِّل في الكتب وعُني به من يحفظ عيونه. ولعله من الطبيعي أن نجد ابن ظفر الذي مَر بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه " سلوان المطاع في عدوان الاتباع " واعظا، وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة، تعقبها أحيانًا أبيات حكمية.

والمعنى الذي يلم به "سُلْوانة " أو سَلْوة ومن هنا جاء اسم الكتاب. وكثيرا ما تجري سلواناته في شكل حكم، كقوله في سلوانة التأسي: " التأسِّي جُنَّةُ البلاء، وسنَّة النُّبلاء. والتأسِّي دَرَج الاصطبار، كما أن الجزع دَرَك التَّبار (الهلاك). ومن قوله في سلوانة الرِّضا: من رَضِي، حَظِيَ. من تَرَكَ الاقتراح، أفلح واستراح. كن بالرِّضا عاملا قبل أن تكون معمولا، وسِرْ إليه عادلا وإلا صرتَ نحوه معدولا ". والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله: " ما أحرى الملول، بأن يُحْرَم المأمول. من لزم الرُّقاد، حُرِم المراد. والتنعم في الدنيا يضاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكِّد غُصَّة اغتيالها. الهوى طاغية فمن ملكه، أهلكه، الهوى كالنار إذا استحكم اتِّقادها عَسُرَ إخمادها. الغريب ميت الأحياء قد أعاده البَيْن، أثرًا بعد عين ".

ونتحول من الحجاز إلى اليمن، وتلقانا فيها المواعظ في كل مكان وزمان ونجدها في الرسائل وفي الوصايا على شاكلة ما نقرأ في وصية الملكة الحرة الصليحية أرْوَى بنت أحمد، وهي لا شك من عمل بعض الوعاظ، وقد جاء في فواتحها[1]:

" لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات، وخالق المخلوقات، جَلَّ وعلا أن تناله صفة، أو تدركه معرفة، الخلائق في قبضته، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، إنه العدل الذي لا يجور، والحكم الذي لا يَحيف، والصادق الذي لا يُخْلف، والعفوُّ الذي لا يؤاخِذ، خالق السموات والأرضين، وإله الأولين والآخرين، ذو الأسماء الحسنى، والكلمات التامة صدقا وعدلا. له ملائكة انتخبهم من بريته، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) و (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ). وإن الجنة حق، خلقها الله للمطيعين من بريته، الخائفين من سطوته، المؤمنين به، المصدقين لوعده، الموفين بعهده، المتبعين لرسله، العاملين بمقتضى آياته وكتبه. وإن النار حق أعدها الله لمن جحد أنبياءه، وخالف أولياءه.. وتمادى في غَيِّه وأسرف في أمره، وأصرَّ على كفره ".

وهذه الموعظة في مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة، لا في بيئة الدولة الصليحية وحدها، بل في بيئات كل الدول والإمارات التي كانت تعاصرها، وأيضا في الدول التي جاءت بعد ذلك، ونقصد إمارة الزيديين ودولتي الرسوليين والطاهريين، حتى إذا اصبح الصولجان في اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهرًا. وكانت ترفده دائمًا خطابة الجمعة في المساجد والجوامع أسبوعيا، كما كان يرفده المتصوفة، ومن أشهرهم في عهد الرسوليين أبو الغيث[2] بن جميل الملقب بشمس الشموس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة، وسُئل عن الصوفي من هو ؟ فقال: " هو مَنْ صَفا سِرُّه من الكدر، وامتلأ قلبه من العِبَر، وانقطع إلى الله عن

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٣٢٣.

(٢) العقود اللؤلؤية ١/ ١٠٧.

البشر، واستوى عنده الذهب والمدَر[١] " ومن دعائه: " اللهم إني أسألك يا روح روح الروح، ويا لبَّ لُبِّ اللبِّ، ويا قلْب قلب القلب، هَبْ لي قلبًا أعيش به معك، فقد خَلقت كلَّ ما هو دونك لأجلك، فاجعلْني ممن شئت من هذه الجملة ". وكان يعاصره أحمد بن علوان الذي مرَّ ذكره وله في الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزي فلذلك يقال له جَوْزيّ اليمن وله في التصوف فصول كثيرة[٢]، وله أتباع من الدراويش المعروفين في اليمن بالمجاذيب، كانوا نشرون هناك كلامه ومواعظه. ومرَّ بنا في غير هذه الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعي نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفي ومواعظ كثيرة. وصنف في الصوفية وتراجمهم- كما مر بنا- كتابا سماه " روض الرياحين وحكايات الصالحين".

وكان الوعظ مزدهرًا في حضرموت، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم في المساجد وفي خطابة الجمع، ومن أشهر متصوفيها أبو بكر العيدروس، ومرَّ بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية، وله نثر صوفي ووعظ كثير، ومن قوله في الفرق بين الشريعة والحقيقة[٣]:

"الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته، حتى أقام عليه حجته، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه، على مقتضى سعيه فناداه: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) وتارة أقام نفسه وأخفاه، فقال: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ) فحصلت الحيرة، وعَمِيت الأبصار والبصيرة، فوفَّق من شاء من عباده للوقف عند مكنون علمه، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه، فالعلم المتجلي على الجسم علم ظاهر، وهو علم الشريعة، والعلم المتجلي على القلب علم باطن، وهو علم الحقيقة. فأقام ظاهر الإسلام على أركان، القائم بها

---

(١) المدر: القطعة من الطين

(٢) العقود اللؤلؤية ١/ ١٦٠.

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١١٨.

جوارح الأبدان وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان، القائم بها صميم الجنان، ولكن لما خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُمل له ترجمان وهو اللسان، فارتبطت الشريعة بالحقيقة، الحقيقة بالشريعة".

وأبو بكر العيدروس يشير في أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شيء قدر مقدور لا مفر منه، ولا حول ولا قوة للإنسان إزاءه، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحريته وأن كل شيء إنما هو بمشيئته. ويقول إنهما جميعًا حائران، ويضع فوقهما أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمي ذلك عمل الجوارح، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذي لا ينضب معينه غذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافي. وتصوفه بذلك تصوف سني كتصوف الغزالي وأضرابه، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن.

وطبيعي أن يكثر الوعظ في خطابة الخوارج الإباضية بعُمان، وقد وقف الجاحظ في كتبا البيان والتبيين مرارًا عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم، ونوَّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبي حمزة قائد عبد الله بن يحيي الكندي، وروي بعض خطبه، وهي تمتاز بألفاظها الطلية ومعانيها القوية. ولا شك في أنه ظلت شعاعات من خطابته. وخطابة عبد الله بن يحيي وعبد الله بن إباض تدور في ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة في عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤- ١٠٥٠ هـ) وهي تمضي على هذا النمط[1]:

" بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي هدم بالموت مشيَّد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، وجعلهم أغراضًا لسهام الأقدار، ووكَّل بهم أمراضًا تزعجهم عن القرار، وتجري منهم مجري الدماء في الأبشار، لا يعتصم منهم معتصم بالحِذار، ولا يختص بها الفقراء دون ذوي اليسار، بل هي آيات عَدْلٍ عدل الله بها في البادين والحُضّار، أحمده

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢/ ٣٦.

على نعمه المُسْبَلة الغِزار، وأعوذ به من العتوِّ والاستكبار، واستغفره للذنوب والأوزار، من الكبائر والإصرار، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار، مبوِّئة مَنْ شهد بها دار القَرار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المختار، أرسله بأيمن شِعار، وأبين فخار، وأنور منار، أطهر إعلان وإسرار، وأظهر برهان وإنذار، من صميم العرب في النضار[1]، وأكرمها في الفخار، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار، منصورًا بالملائكة الأبرار، صلى الله عليه وسلم، وعلي آله الأطهار، آناء الليل وأطراف النهار: أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همة إلى التنزه عنها داعية، وإن طوالع الآجال واجبة فهل قدم إلى التزود من الدنيا ساعية ".

وتستمر الخطبة في الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغوابر، وابتلعتهم الحفر والمقابر. ومثل السلف الخلف، فهم دائمًا هدف للتلف. عظة ينبغي أن يتعظ بها العاقل، فينقل ساعاته في التقوى والعمل الصالح، وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلي آله قائلة: " اللهم صَلِّ على محمد وعلي آل محمد ما ذرَّ شارق[2]، وأومض بارق، وفاه ناطق، اللهم صَلِّ على محمد وعلي آل محمد بعدد أنفاس الخلائق، وبعدد ما في السموات السبع الطرائق، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق". ثم تستنزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الأسفار، معدن الجود والفخار. وسيد المهاجرين والأنصار. أول ساع إلى شرف التصديق، أبي بكر الصديق، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين. والخطبة مبنية على السجع، وليس ذلك فحسب، فإن منشئها تكلف في الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الراء دلالة على مقدرته البلاغية، حتى إذا انتهي من التحميد والشهدة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ في الوعظ بني قوافي أسجاعه على الألف والعين والتاء، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية، ورأي أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية في العبارات أو السجعات،

---

(١) النضار: الذهب والخالص من كل شيء.

(٢) الشارق: الشمس.

فكلمة خاطبة في السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها في السجعات التالية كلمات كاذبة وواجبة، فكأن السجعات المتوالية لا تتوازن خارجيًّا في القوافي النهائية فحسب، بل تتوازن أيضا داخليًّا، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها في العبارة أو العبارات التالية.

وإذ كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية في البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبِّجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين في ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية في الجزيرة العربية والجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائمًا قائمًا، كما كانت الخطابة في المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت في جملتها مواعظ خالصة.

٥

محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا في الحقب المتأخرة في هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة، من ذلك محاورة لعلي بن صالح أبي الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية[1]، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح في حال رثة فلا فراش ولا سراج، فشكا حله لمسجد جناح، فأشار إليه من باب النصيحة، لما بينهما من المودة الصحيحة، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك، إذ النساء مصابيح البيوت، وفوَّض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التي يراها كُفْؤًا له وأشار عليه بإحدى مدرستين: البكيرية فريدة العصر، أو المرادية خريدة القصر. وذهب معه البكيرية، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلَّة، وقالت له: اخرج يا جناح أنت والمذهب، قبل أن تُصْفَع وتُضْرب وخرجا، وجناح يتمثل بقول ذي الرمة:

على وجه مَيٍّ مسْحةٌ من ملاحةٍ ... وتحت الثياب الخِزْيُ لو كان باديا

ونهضا إلى المدرسة المرادية، وأفهمها جناح أن الذهب جاء معه لخطبتها، وأنه نعم الرجل الصالح، العاقل الراجح، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستتر بهما وتتجمل، وقنديلاً تنتفع به ليلة تتأهل. ويمضي على بن صالح قائلا:

"فقال المذهب: من هذا كنت أحاذر، فليست على تحصيلها بقادر، فالمفارش غالية وليس عندي غير بُسُطٍ بالية، فقال له جناح: أشهد أنك رجل وقاح. أما علمت أن المفارش كسوة أمثالها،وأنه لا يخطر البساط ببالها، وسأشير عليك بما يأسو جراحك، ويَريش جناحك، فقال:سَمْعًا لأمرك، وطوعًا لحكمك. فأْمُرْني بما تراه، فإني لا أتعدّاه، فقال: قد علمت أن البكيرية طردتك، وتهددتك بالضرب وتوعَّدتك، فإذا كان جُنْح الظلام، وقد هج النَّوام، انسلتَ انسلال الخائف الذليل، وأخذت منها مفرشتين

---

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة. ٢/ ٢٢٤.

وقنديل(١) فقال: قد أشار بما في النفس، فإني مُهَمْهِمٌ به من أمس. فلما نشر الظلام ثيابه، ومدَّ على الأنام جلبابه، خرج من محلِّه وانسلَّ، وسقط عليها سقوط الطَّلِّ، فأخذ المفرشتين والقنديل، وعاد إلى منزله فرحًا بالتحصيل، ولما أسفر ضوء الصباح أشار إلى مسجد جناح، بأن المطلوب قد حصل، فانهضْ بنا لتمام العمل. فحملا إلى المرادية ما اشترطته.. ".

وتمضي المحاورة، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توسل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وقنديلاً. يقول على بن صالح:

" فقال له جناح: عاودْ ذلك المحل فلعلك تظفر بالأمل. وقد كانت البكيرية جمعت مَنْ حولها من المساجد القريبة، وطلبت منها الرأي في دفع هذه المصيبة،فأجمع رأي المساجد والمدارس، على أن يستأجروا لها حارس(٢) فقالت: عليّ تحصيل الأجرة، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة،فاختاروا لها مسجد عقيل، وقالوا لها: هذا نعم الحارس والنزيل. فلما جَنَّ الظلام وهجع النّوام، أقبل مسجد المذهب، وهو خائف يترقَّب، فخرج عقيل ومَنْ حوله من المساجد، وحملوا عليه حملة رجل واحد، فهرب من بينهم وفرّ، فما قعد في مجلسه ولا استقرّ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقيلاً ومن معه يغيرون عليه،فأقبلوا يُهْرَعون إليه، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزِّحام،فقال: اعلموا يا جيراني، أني راقد بمكاني، فأتت المساجد في جنح الدياجي، تريد(٣) تسرق بساطي وسراجي، فأعينوني على الحق، وأدركوني ولما أمزَّق، فرجع كل مسجد إلى مكانه. واجتمعت المساجد عن البكيرية في الليلة الثانية، ليتفاوضوا في دفع هذه الداهية، فأجمعوا على أن يحفروا حفرة في أرض بقدر طوله والعرض وأن يربطوا الشِّباك إلى جانب المئذنة والشُّبّاك.فسكت عنهم أيام(٤) ثم أقبل على حين غفلة من الأنام. فوقع في تلك الشِّباك، وكاد أن يشرف على الهلاك ".

---

(١) الكلمة منصوبة وترك نصبها للسجع ٢/ ٢٢٤.

(٢) لم ينصب كلمة حارس للسجع.

(٣) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة.

(٤) ترك النصب للسجع.

ويمضي على بن صالح في المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة، منتظرا انقضاء المدة، وأخذت المساجد تضربه وتركله، وافدة عليه رَعيلا إثر رعيل، وهو بينهم كالأسير، قد غلبه البكاء والزفير، وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه، ويدعو له المدرسة المرادية في الحال. وأقبلت تتبختر في ثيابها تائهة على أترابها. ويهجم عليها في غير حياء. فتغضب المساجد، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه. ويعزم على الرحيل، ويأسى مسجد الإمام له، لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبزر وطلحة والأبهر أن تتوسط له لدى المرادية فنهضوا إليها، وعرضوا الكلام عليها، فرفعت النقاب، وقالت: ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب، وتقول: "على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندي، وكاد الهوى أن يخرجني عن جلدي.. وإني كنت لا أصلح لمثله، ولم أكن قد تزوجت من قبله، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله، واشهدوا بأني قد وكلت مسجد الإمام، يعقد لي بالمذهب، قبل أن يتبع هواه أو يترهب.. وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال: بالرفاء والبنين".

والمحاورة طريفة في فكاهتها خفيفقة في ألفاظها وأسجاعها، وهي تمتد إلى نحو اثنتي عشرة صحفة، وها قيمة تاريخية، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء في عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجصيصها أو طلائها بالجصِّ وترميم جدرانها وما تآكل من حيطانها، ولعلي بن محمد العنسي المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدي القاسم بن الحسين (١١٢٨-١١٣٩هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهواني أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير، وقد سماها: الروض الأقحواني في الشعير الزَّهُواني. وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يمطله ويؤجله في البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكاه[1]:

"مولاي حامي حمى الدين، وحافظ بيضة المسلمين، خلَّد الله إقباله، وضاعف جلاله، حوَّلتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزَّهواني، الذي لا تُقْبض الحوالة منه إلا بالأماني، فسلَّم للمملو منها أربعة أقداح شعير كان قدسَها عنها خازن الإمام صلاح

(١) نشر العرف ٢/ ٢٩٥.

الـدين في ذلـك العـصر، فتركهـا في زاويـة مـن زوايـا القـصر، ثـم مـرَّت عليهـا الأعـوام والـدهور.. وغمرهـا الـتراب إلى كعـب الـشِّراك[١]. لمـا اسـتولت عـلى الـيمن علـوج الأتـراك. ثـواب لاحـت أنـوار الدولـة القاسـمية التـي لـبس الـدهر بهـا شـبابه، وزان جَبِينـه بـأشرف عِصابه. وقد صـار ذلـك الـشعير دفينـاً تحـت ترابـه. وقـد ذهـب لُبُّـه لطـول المـدة فلـم يبـق غـير إهابه. ثـم تعاقبـت عـلى المخـزن أيـدي الخُـزَّان ولكـنهم لم يبلغـوا في التحـري والتفتـيش مـا بلغـه هذا الرجـل النـصيح، ذو الطبـع المـرَضيّ والخلـق الـشحيح، فإنـه لفـرط الأمانـة لم يـترك التلفـت على الزوايا، ولا أهمـل المثـل الـسائر: كـم في الزوايـا مـن الخبايـا، فعثـر في بعـض فتاتـه عـلى تلـك الزاويـا، ولا أهمـل المثـل الـسائر: كـم في الزوايـا مـن الخبايـا، فعثـر في بعـض لفتاتـه عـلى تلـك الزاويـة التـي اشـتد ظلامهـا، وخفيـت أعلامهـا، فـرأى شـيئاً مجموعـاً، وتَـلاًّ مرفوعـاً.. فلاحـت لـه منـه شـعيرة بغـير شـعوره، أسرف لأجلهـا في حبـوره، وتـصحيف سروره [٢]، فـأمر بإثـارة ذلك الكنـز المـدفون، والـدفين المخـزون. ثـم عَّـير [٣]، فحـصل منـه أربعـة أقـداح، فجـاءت وفـق الاقتراح، واتفق لـسوء الحـظ حـضور الرسـول الغَريـر[٤]، حـال بُعـث مـن مرقـده ذلـك الـشعير، فكيل له في الغرائر[٥] على غِرَّرة، وقيل له: خُذها، وأحذر العَوْد بعد هذه المَّرة ".

والفكاهـة واضـحة في الرسـالة، وهـي تلـسع ولا تجـرح ولا تـدمى، فكاهـة تحمـل حينـاً دعابـة وحينـاً سـخرية خفيفـة، دون أن تـؤذي، وقـد أنهاهـا بقطعـة شـعرية بديعـة. وكـانوا يلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قية طريفـة كـأن نجـد يحيـى بـن إبـراهيم الجحَّـاف يـسوق سـؤالاً[٦] عن صديق عاهده على التعـاون، وخاصـة حـين تبتـسم لـه هـو الـدنيا، وتعـبس في وجـه صـديقه، فإنه حينئذ يمد لـه يـد العـون ولا يتركـه لمحـن الـدهر تعـصف بـه، غـير أن هـذا الـصديق لم يـف بعهـده، وإنـه ليـسأل علـماء العـدل وقـضاة الإحـسان وحكـام الإنـصاف ومـشايخ المـروءة مـا

---

(١) الشراك: الحذاء.

(٢) تصحيف سروره: يقصد شروره.

(٣) عيَّر: كال من الكيل.

(٤) الغرير: الغر الذي لا تجربة له.

(٥) الغرائر: جمع غرارة، وهي وعاء من الخيش يجعل فيه الشعير ونحوه.

(٦) نشر العرف ٢/ ٨١٣.

يقولون في صديقين تغذَّيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التي هي أوثق من أخوة النسب، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه، فتناساه وأهمله، فما حكمه؟ يقول: "فهبت لأحدهما ريح الإقبال، ولمعت له لمعة سعد، وأمطرته سحابة خير.. وبقي الثاني في ظل العفو وروض العافية.. يسبح من حسن الظن في غير ماء، ويطير مع طول الأمل بغير جناح.. إن التفت يمنة وجد محنة. أو نظر يَسرة رأى حسرة، أو حاول به اللحاق. أحتاج إلى البُراق. وقد كان يقسم بالله الذي وسعت العباد رحمته، وشملتهم نعته أنه إذا أثنيت له الوسادة، ولاحتْه عين السعادة، وخرج من زاوية الخمول، وطلع نجمة بعد الأفول.. ليُبْلغَنَّه من الخيرات ما لا قلبُ فكَّر فيه، ولا لسان نطق به، ولا جارحة تكلَّفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر قط. فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى: ما الذي يجب في شريعة المودة، ويُسَنُّ في دين الفتوة، ويُنْدَب في ملة الوفاء، ويباح في فقه العرف.. وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب"..

والقضية طريفة، وهي قضية اجتماعية، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون، وخاصة حين يرزق السعادة، فإنه لن يترك صديقه يعاني بؤس الحياة ومرارتها، بل سيأخذ بيده، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن. حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة.

وتلقانا- من حين إلى حين- مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التي تركها الحريري وإنما بالصورة التي تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء، قصداً لبيان القدرة الأدبية، وفي الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى في العلم وتحصيله.